النقد البيئوي

جرج جرارد

ترجمة: عزيز صبحي جابر

النقد البيئوي

تأليف

جرج جرارد

ترجمة: عزيز صبحي جابر

مراجعة: د. أحمد خريس





فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

النقد البيئوي

جرج جرارد

الطبعة الأولى 1430 هـ 2009 م

PR143.G3712 2009
Garrard, Greg
[Ecocriticism]

النقد البيئوي/ تأليف جرج جرارد؛ ترجمة عزيز صبحي جابر؛ مراجعة أحمد خريس. - ط.1. -
أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
212 ص؛ 24x17 سم.
ترجمة كتاب: Ecocriticism
تدمك: 978-9948-01-389-1
1 - البيئة في الأدب. 2 - الأدب الإنجليزي - تاريخ ونقد. 3 - حماية البيئة في الأدب
4 - البيئة والإنسان. 5 - الانسان والطبيعة.
أ- خريس، أحمد. ب- جابر، صبحي. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Greg Garrard, Ecocriticism

كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 300 6215 2 971+ ، فاكس: 059 6336 2 971+

المحتوى

تصدير بقلم محرر سلسلة المصطلح النقدي الجديد

تحتوي سلسلة المصطلح النقدي الجديد مجموعة من الكتب التقديمية (التمهيدية)، التي تهدف إلى توسعة آفاق المعجم الأدبي، لمواكبة التغييرات الجذرية التي طرأت على دراسة الأدب في العقود الأخيرة من القرن العشرين. وغرض السلسلة الرئيس تزويد القارئ بدراسات مبسطة وتفصيلية حول ما يتعلق بالمصطلحات المستخدمة في زمننا الحاضر، وتأريخ حركة تغيُّر استخدام هذه المصطلحات.

إنَّ الزمن الحاضر للدراسات الأدبية يشهد جِدلاً بَيِّناً تجاه قضايا أساسية في المصطلحات الأدبية والنقدية. فهو يشمل -فضلاً عن قضايا أُخرى- ضرورة التمييز الجنسي بين الأدبي واللاأدبي، ومكانة الأدب في عالم الثقافة الواسع، والعلاقة بين آداب الثقافات المختلفة، وعلاقة الأدب بالمعارف الثقافية المختلفة لاسيما في الحقول العلمية المتشابكة التداخل.

مما لاشك فيه أن النقد الأدبي ونظريته يتسم بالحيوية (dynamic) واللااتساق، مما يؤدي إلى خلق حاجة ماسة لإصدار دراسات مستقلة عن هذه المواضيع، تجمع بين العرض الدقيق المبسط، والجرأة في المنظور، والتطبيق الموسع في الأمثلة. وسوف يحتوي كل كتاب إيحاءً عن الوجهة التي قد يتحرك إليها المصطلح، فضلاً عن توسعة حدود الحقل المعرفي الذي تنتمي إليه بعض المصطلحات تقليدياً. كما ستتضمن هذه التوسعة إعادة ترتيب بعض المصطلحات في المنظومة الثقافية الواسعة للمصطلح، وستقدم أمثلة من حقل: الأفلام والإعلام الحديث، إضافة إلى النصوص الأدبية المتنوعة.

تنويه حول المصطلحات

درجت العادة في الكتابة الأكاديمية استخدام مصطلح (الأمريكان الأصليين) وليس (الهنود الأمريكيين)، إلا أنني استخدمت المصطلحين مترادفين في هذا الكتاب. فكلاهما غير مرضٍ بشكل كامل، وأظن أن كثيراً من الأمريكيين الأصليين يفضلون المصطلح التقليدي.

مقدمة المترجم

شكلت دراسة جرج جرارد (النقد البيئوي) المنشورة في سلسلة راوتلج (سلسلة المصطلح النقدي الجديد) تحولاً أساسياً في مسيرة تطور النقد الثقافي، والأدبي المتمحور حول البيئة. فكتابه الذي يُعد أول كتاب تقديمي في مجال النقد البيئوي، والمزود بمسرد مصطلحات غاية في الإفادة، وقائمة ممتدة من المراجع والدراسات الإضافية، كان خير شاهد على ازدياد وتيرة البحث ثلاثي التشعب في الأدب والثقافة والبيئة في العقد المنصرم.

برز مصطلح (النقد البيئوي) في مطلع التسعينيات من القرن العشرين، وعلى الرغم من وجود بعض الدراسات الرائدة مثل: (ملهاة البقاء) (1972) لجوزيف بيكر، و(القرية والمدينة) لريموند ويليامز والتي تحظى بشرف السبق في التحول لهذا النهج النقدي، إلا أن هذا النهج ظل غامض الملامح إلى زمن ليس ببعيد. وكما أشار جرارد،فقد استمد هذا النهج النقدي قوته وشرعية وجوده من حركات حماية البيئة التي نشطت في ستينيات القرن العشرين. وعلى الرغم من وجود أنماط أخرى من النقد السياسي مثل الماركسية الغربية، والنقد النسوي، ونقد ما بعد الحقبة الاستعمارية، التي حظيت كلها بشرعية وانتماء كامل إلى عالم النقد، إلا أن النقد البيئوي ما زال يجابه معارضة شديدة تعترض طريق انضمامه إلى تيارات النقد المتعددة.

اتسع نطاق الحقل ليغطي مواضيع مختلفة مثل: الإعلام، وظواهر ثقافية أخرى، علاوة على تناوله طيفاً واسعاً من النصوص الأدبية مستفيداً من تعددية المناهج النقدية واختلاف أساليبها. فالنقد البيئوي –وفقاً لتعريف جرارد الواسع له– يتضمن «دراسة علاقة ما هو إنساني باللإنساني على مدى التاريخ الثقافي البشري، وتقديم تحليل ناقد لمصطلح (الإنساني ذاته)».

تنبثق أهمية هذا التناول -وفقاً لتحليله- من تسليمنا أن المشاكل البيئية تقتضي تحليلاً ثقافياً وعلمياً في آن، لأنها نتاج تفاعل المعرفة البيئوية مع انعكاساتها الثقافية. وفي الوقت نفسه، يؤكد جرارد أن المعرفة البيئوية تُعد بيئة صالحة للتحول وليست أرضاً صلبة تصلح منطلقاً لتحليل النقد البيئوي، مؤكداً -خصوصاً- على التحدي الذي يفرضه علم التبيؤ الفضفاض المرن المنسجم

المتغير في حقبة ما بعد الحداثة. ويشير جرارد في كتابه أيضاً إلى طبيعة النقد البيئوي الذي يرتكز إلى تداخل حقول المعرفة من النظرية الأدبية، والثقافية، إلى الفلسفة وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والاقتصاد، وربما التصورات الأُخروية.

وفّق جرارد في كتابه لتهيئة أرضية نظرية نقدية لهذا النهج النقدي الجديد. فقد ساعد كتابه النقاد البيئويين على التخلص من شعور الأقلية المحاصرة التي تجهد في سبيل شرعنة عملها النقدي وإضفاء صبغة العلمية عليه.

ختاماً، أود التنويه إلى أن الهوامش جميعها الموضوعة في أسفل صفحات الكتاب هي من إضافة المترجم، إذ ضمن المؤلف هوامشه داخل النص.

الفصل الأول

البدايات: التلوث

BEGINNINGS: POLLUTION

المتفق عليه -بشكل عام- أنّ علم البيئة الحديث أطلقت شرارته قصة (خرافة للغد) (A Fable for Tomorrow) من مجموعة راشيل كارسون (Rachel Carson) القصصية (الربيع الصامت) (Silent Spring, 1962). افتتحت كارسون حكايتها بالكلمات التالية: "كان يا ما كان في قديم الزمان بلدة تقبع في قلب أمريكا، تتناغم فيها الحياة بشتى صورها". ولكي تبعث القصة الحياة في تراث الرعوية، استرسلت كارسون في رسم صور "المزارع المزهرة، والحقول الخضراء، وعواء الذئاب في التلال، والغزلان الصامتة، ونباتات السرخس والزهور البرية، والطيور التي لا حصر لها، وأسماك السلمون المرقط التي تسترخي في ماء الجداول العذب البارد، كلها كانت مبتهجة برؤية عابري السبيل يقطعون البلدة (21: 1991). لقد ركزت القصة على تصوير جمال الطبيعة الأخاذ، وأكدت على علاقة التناغم التي سادت (سالفاً) بين الإنسان والطبيعة، فتأخذنا الحكاية ابتداءً إلى تصوير حالة السكون التي نادراً ما يعكّر الإنسان صفوها، والتي يعمل تعاقب الفصول على تعزيزها. إلا أن هذا السلام الرعوي ما يلبث أن يمهّد سريعاً لدمار كارثي.

"فجأة زحفت آفة غريبة على المكان، وبدأ كل شيء بالتغيُّر، خيّم سحر شرير على المجتمع: عللٌ غامضة سحقت قطعان الدواجن، سقمت الأغنام والماشية ونفقت. وخيم ظلام الموت على المكان".

أشارت الفقرات اللاحقة إلى صور التمزق التي طالت عناصر الحياة الرعوية جميعها،

بسبب عامل من عوامل التغيير. وقد أكدت القاصة على غموض هذا التغيير باستخدامها الإشارات العادية والخارقة لـ (العلة) و(السحر). وأكثر ما يثير شفقة القارئ الفقرة التي تتحدث عن حالة الانهيار التي حلت بأسراب الطيور المختلفة: "خيّم الصمت على الصباحات التي كانت تنبض بتغاريد الطيور المختلفة، التي كانت تمتزج تغاريدها كجوقة تزقزق للفجر. فمن طائر أبو الحناء (robin) إلى الكتبرد[1] (catbird)، إلى الحمائم وطائر الزرياب، وطائر الصُّعْو[2] (wren). وأصوات لا تحصى من الطيور الحاضرة الأخرى. فالصمت وحده أطبق على الحقول والغابات والأهوار" (22: 1999). ويلمع عنوان قصة (الربيع الصامت) من جهة إلى هذا الفقد في غناء الطيور، إلا أنه ينذر أيضاً من خلال مجاز مرسل علاقته الكلية برؤيا بيئية أكثر عمومية.

فالنص المؤسس للحركة البيئية الحديثة لا يبتدئ فقط بحكاية شعرية ذات رمزية أخلاقية، محددة سلفاً، لكنه يتكئ أيضاً على الأجناس الأدبية للرعوية وسفر الرؤيا. وتعد هذه طرائق قديمة لتصوير علاقة الإنسان بالطبيعة يمكن تعقبها حتى سفر التكوين: أول أسفار الكتاب المقدس، [العهد القديم] وسفر الرؤيا [رؤيا يوحنا]: آخر أسفار الكتاب المقدس [العهد الجديد]. وتعزو قصة (الربيع الصامت) ابتداءً الكارثة البيئوية الأسطورية التي حلت بالبلدة إلى أسباب خارقة، وأكدت هذا الرأي من خلال تضمينها مقطوعة قصيرة ساخرة مفعمة بالتناقض من قصيدة كيتس (Keats)[3] (السيدة الجميلة بلا رحمة) (La Belle Dame Sans Merci) والتي يفسد فيها جمال امرأة ساحري البيئة: "ذبلت البرديّ[4] في البحيرة/ وما عادت الطيور تغني". ثم تُختتم قصة "الربيع الصامت" بـ "ليس بكيد ساحر، ولا بعدو من أخرس بعث الحياة من جديد في هذا العالم المترع بالآفات والعلل/ بل هم البشر أنفسهم". وتشرع بقية القصة في إثبات أن هذه الرؤيا تلف -بطريقة متشظية- أمريكا عن آخرها. لذا فالقدر المدمّر الذي ينتظر هذه البلدة الأسطورية مستقبلاً، ما هو إلا توليفة لعدد من المآسي الأقل كارثية، التي نعايشها واقعاً في يومنا الحاضر، وقد أثبتت علمياً في عام 1962م.

المتهم الحقيقي في هذه الكارثة [البيئية] -كما تراه كارسون- هو المبيدات الحشرية

---

1 طائر أمريكي مغرد.

2 طائر صغير جداً.

3 جون كيتس (John Keats) (1795-1821) شاعر إنجليزي، يعدُّ أحد زعماء المدرسة الرومانسية.

4 البرديّ sedge نبات مائي من الفصيلة السعدية تسمو ساقه الهوائية إلى نحو متر أو أكثر، عرفه المصريون القدماء فيما كان بواديهم من البرك والمستنقعات فقدسوه، واتخذوه رمزاً مقدساً للدلتا، وانتفعوا به في بناء دورهم وزوارقهم، ونسجوا منه القراطيس. انظر: يوسف خياط. معجم المصطلحات الفنية. بيروت، دار لسان العرب، (برد).

العضوية الجديدة مثل: د.د.ت (DDT)[1]، الذي عرفه العالم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وأثبت فاعلية عالية في مكافحة الحشرات. فقد نظمت قصة (الربيع الصامت) مظاهرة علمية مثيرة لكشف التهديد الحقيقي الذي يدعيه هذا النجاح العلمي ضد البشرية، والحياة البرية بشكل عام، ومواجهة الادعاءات المثالية (Utopian) التي يروجها علماء الزراعة عن أراضيهم. وقد أُثبتت ادعاءات كارسون العلمية -على الرغم من عدم وجود دليل بيّن على تأثير سمية د.د.ت على البشر- بشكل حاسم، فاتحةً الباب على مصراعيه: لتجسيد الوعي العام بمخاطر التلوث الناتج عن المبيدات الحشرية، والبدء بتطبيق سياسة حكومية أكثر صرامة تجاه هذه المبيدات، والعمل على إيجاد مواد كيميائية زراعية أقل سمية.

تُلقي هذه الطروحات البيئية ظلالاً مؤثرة على الثقافة والسياسة المعاصرة، وقد تَلقى استجابة بدرجة معينة في أذهان كثير منا. إلا أنّ طلبة العلوم الإنسانية يمكن أن لا يجدوا صعوبة في التعاطي معها على حالها. فالدراسة الجامعية تم تشكيلها بناء على الحقول المعرفية المستقلة بعضها عن بعض، وأن القضايا العلمية تقتضي خبرة ودراسة علمية. وعلى الرغم من ذلك، فالأساليب البلاغية (Rhetorical Strategies)، واستخدام الصور المجازية كالرعوية والرؤيا، والتلميحات الأدبية التي وظفتها كارسون لتشكيل مادتها العلمية، قد جعل منها مادة مستساغة للتحليل (الأدبي والثقافي). فمثل هذا التحليل يلتقي مع ما سنسميه النقد البيئوي (Ecocriticism). وهذا الكتاب هو مقدمة نقدية لحقل النقد البيئوي في زمننا الراهن.

ولنستعرض سوية بعض التعاريف المتوفرة للموضوع. وأول هذه التعاريف مأخوذ من مقدمة كتاب مختارات في النقد البيئوي (The Ecocriticism Reader. 1996) الذي يُعدُّ كتاب مقتطفات مختارة مهم يُعنى بالنقد البيئوي الأمريكي:

"ما هو النقد البيئوي؟ ببساطة، هو النقد الذي يدرس العلاقة بين الأدب والبيئة المادية. فكما يبحث النقد النسوي (Feminist Criticism) في العلاقة بين اللغة والأدب من منظور واعٍ للجنس (gender)، ومثلما يستحضر النقد الماركسي (Marxist Criticism) وعياً وادراكاً

1 مبيد حشري من مجموعة الهيدروكربونات المكلورة تم تحضيره لأول مرة سنة 1939م من قبل الكيماوي ميولّر (Mueller) ونال عليه جائزة نوبل سنة 1948م، وبذلك تم لأول مرة إنتاج مادة متوسطة السمية للإنسان وذات تكلفة معقولة، وتأثير واسع، مما أدى إلى الاستغناء عن المبيدات الحشرية غير العضوية مثل الزرنيخ. واعتقد العالَم أنه دخل حرب ناجحة ضد الحشرات بسلاح سحري. ولكن بعد فترة من الزمن وجد العالَم أن هذه المادة لا تتحلل بسهولة في البيئة، وتتراكم في السلسلة الغذائية وتسبب المناعة لدى الحشرات الضارة، بالإضافة إلى أضرار أُخرى عديدة. لذلك يمنع استعماله في معظم دول العالم.

لأنماط الإنتاج، والطبقة الاقتصادية عند تعامله مع النصوص الأدبية، يتخذ النقد البيئوي منهجاً يرتكز إلى الأرض في تعامله مع النصوص الأدبية (Glotfelty 1996:xix).

حدد جلوتفلتي (Glotfelty) بعض الأسئلة التي يطرقها النقاد البيئويون، التي تمتد من: كيف مُثّلت الطبيعة في هذه السوناته (Sonnet)؟ مروراً بـ: كيف تغير مفهوم البرية عبر الزمن؟ و: كيف ينفتح العلم نفسه على عالم التحليل الأدبي؟ إلى: ما هي إمكانية التداخل الخصب بين الدراسات الأدبية والخطاب البيئي في حقول المعرفة المتداخلة مثل: التاريخ، والفلسفة، وعلم النفس، وتاريخ الفن والأخلاق؟

فالنقد البيئوي -إذاً- هو نمط تحليلي سياسي صريح مثلما تستدعي مقارنته بالنقد النسوي والماركسي. فالنقاد البيئويون عموماً يربطون تحاليلهم الثقافية صراحة ببرامج (agenda) سياسية وأخلاقية (خضراء)[1]. ويلتقي النقد البيئوي في هذا التوجه كثيراً مع التطورات الموجهة بيئياً في مجال الفلسفة، والنظرية السياسية. فمن خلال استحضار الأفكار النيرة التي حملتها الحركات النقدية المبكرة وتطويرها، يمكن لدعاة التبيؤ (ecofeminists)، وعلماء الاجتماع البيئويين، ودعاة العدالة البيئية، أن يؤسسوا لتركيبة تُعنى بالقضايا البيئية والاجتماعية.

ومن الجدير ذكره أيضاً، أنّ الأسئلة التي يعرضها النقد البيئوي وفقاً لدراسة جلوتفلتي تتبع بشكل جليّ مساراً منحنياً: فالسؤال الأول (كيف مُثّلت الطبيعة في هذه السوناته؟) مثلاً يوصف بالتقوقع الأدبي الضيق، حيث يرنو إلى محاباة دارس الأدب الرومانسي. لذلك فقد كانت دراستا بيت وكروبر (Bate 1991, and Kroebey, 1994) عن وردزورث (Wordsworth) وشيلي (Shelley) أشهر وأهم عملين في النقد البيئوي في حقبة التسعينات. ثم يتسع نطاق الأسئلة المتداولة مع توارد قائمة من الدراسات التي تقترح معالجة ترتكز إلى حقول العلم المتداخلة، مثل: دراسة سيمون سكاما (Simon Schama) (المناظر الطبيعية والذاكرة) (Landscape and Memory, 1995).

ويقترح تعريف ريتشارد كيرج (Richard Kerridge) في كتاب: (الكتابة عن البيئة) (Writing the Environment, 1998) -الذي يضم مؤلفين بريطانيين بشكل رئيسي- نقداً بيئوياً ثقافياً أوسع، مشابهاً لمعالجة جلوتفلتي.

"يريد الناقد البيئوي أن يطارد الأفكار البيئية وتجلياتها أينما وجدت، ليرى بوضوح

1 يشير تلوين أية ممارسة سياسية أو اقتصادية أو ثقافية باللون الأخضر إلى حماية البيئة.

جدلاً جارياً -غالباً على نحو خفي جزئياً- في فضاءات ثقافية متنوعة. وأكثر ما يهم النقد البيئوي تقييم النصوص والأفكار، وفقاً لترابطها المنطقي، وجدواها كاستجابات للأزمة البيئية (5 :1998).

سيتوافر لدينا المبرر المنطقي لمساءلة التصور الوحدوي المتسق (للأزمة البيئية) المضمرة هنا، وربما ندفع ضد تقييم (النصوص والأفكار)، في مواجهة ما يبدو معياراً بيئوياً آمناً. (فعلم البيئو) ذاته- بوصفه علماً وحركة اجتماعية سياسية- يتعرض للتحوّل والجدل. إلا أنّ التركيز على التوجه الأخلاقي والسياسي للناقد البيئوي، والتوصيف الواسع لهذا الحقل المعرفي يُعدُّ غاية في الأهمية.

من وجهة نظر الجامعيين (academics)، تهيمن جمعية دراسة الأدب والبيئة (ASLE) على النقد البيئوي، وهي جمعية محترفة انطلقت في أمريكا ابتداءً، وكونت لها فرعاً رئيسية في المملكة المتحدة واليابان. وتنظم الجمعية مؤتمرات منتظمة، وتنشر مجلة تضم دراسات أدبية، وكتابات إبداعية، ومقالات عن التربية البيئية، ومذهب الفعالية[1] (activism). اتسمت كثير من أعمال النقد البيئوي المبكرة بالاهتمام الخاص والمقتصر على الشعر الرومانسي، والقصص (narrative) البرية، والكتابة عن الطبيعة. إلا أنّ السنوات القليلة الأخيرة شهدت تحولاً لـ (ASLE) صوب نقد بيئوي ثقافي أكثر شمولية، شمل كتابات علمية شائعة، وأفلاماً، وتلفازاً، وفناً، وعمارة، ونتاجات ثقافية أخرى تتناول -مثلاً- الحدائق الرئيسية، وحدائق الحيوان، ومراكز التسوق. نظراً لسعي الناقد البيئوي إلى تقديم خطاب تحوّلي يمكّننا من تحليل العالم المعيش ونقده. فقد تمّ تركيز الاهتمام على الطيف الواسع من العمليات الثقافية، والنتاجات التي تتمّ فيها -ومن خلالها- المفاوضات المعقدة حول الطبيعة والثقافة. في الواقع، أكثر تمارين النقد البيئوي اتساعاً هو ذلك الذي يعرّف النقد البيئوي: أنه دراسة العلاقة بين الإنساني واللاإنساني على مدى التاريخ الثقافي البشري، وتضمين تحليل نقدي لمصطلح (الإنساني) ذاته. سيعكس هذا الكتاب هذه الاتجاهات بمنح مساحة للنقد البيئوي الأدبي، والنقد البيئوي الثقافي على حد سواء. وعلى الرغم من ذلك لا بدّ من توضيح أنني سأقتصر – بالدرجة الأولى- على دراسة أدب بريطانيا وأمريكا الشمالية وثقافتهما. رغم أنّ مبادئ النقد البيئوي –طبعاً- تقتضي تطبيقاً أكثر شمولية.

يتفرد النقد البيئوي عن النظريات الأدبية والثقافية المعاصرة، لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم التبيؤ. ومن الممكن ألا يكون النقاد البيئويون مؤهلين كفاية للدخول في نقاشات حول مشاكل علم التبيؤ، إلا أنه ينبغي عليهم بالرغم من ذلك تجاوز انتهاك حدود الحقول العلمية، وتطوير

---

1 مذهب يؤكد على ضرورة اتخاذ الإجراءات الفعالية لتحقيق الأهداف.

معرفتهم البيئية الخاصة بهم ما استطاعوا. وهذا يدفعني إلى التعرض -بشكل مختصر- للتهديدات البيئية التي تعصف بعالمنا في الوقت الراهن. مع أنّ الغوص عميقاً في مثل هذه المشاكل لا يندرج ضمن الحدود المرسومة لهذا الكتاب. إلا أنه من الضروري للنقاد البيئويين أن يدركوا أنّ هناك طروحات حقيقية تؤكد وجود هذه المشاكل وحجمها: وطبيعة هذه التهديدات وسُبل معالجتها. لذا فإنني سأناقش في الفصل الخامس مثلاً: مشكلة الاكتظاظ السكاني من وجهة نظر الدراسة الإحصائية للسكان (demographic) قبل أن أشرع في شرح انعكاسات هذه المشكلة في النصوص البلاغية التي تتخذ من الرؤيا طريقاً لها.

قد يبدو – للوهلة الأولى- أنّ القضايا البيئية مشاكل علمية لا تصلح مادةً للتحليل الثقافي. فقد شهد نشر (الربيع الصامت)- في الواقع - انتقادات للكتاب أطلقها أرباب الصناعة الكيماوية الزراعية. نظراً لطبيعته الأدبية. التي لا تقوى -كما أوحوا- على مسايرة دقة العلم وصرامته. فهل سنكون عاجزين عن إيجاز كل الحملات الدعائية التي روّج لها منتجو المبيدات الحشرية. إذا قرأنا كتاب كارسون. مستعينين بأدوات أدبية نقدية؟ لقد اقترح جون باسمور (John Passmore) تقسيماً يمكن أن يعيننا في التعامل مع الإشكالية. فقد أكد أنّ (المشاكل في البيئة) هي ذات صبغة علمية محضة. تستوجب صياغة وفحص فرضيات في تجارب بيئوية. إلا أنّ (المشاكل البيئوية) ما هي "إلا معالم وصور لمجتمعنا تتفتق من خلال تعاملاتنا مع الطبيعة. وينبغي لنا أن نحرر أنفسنا من هذه الصور ولا تعاملاتنا معها بوصفها نتائج حتمية لما هو خير في مجتمعنا" (1974:44). عندما نسمُ شيئاً أنه مشكلة بيئوية فإننا بذلك نطلق دعوى معيارية تعكس رغبتنا في واقع الأشياء وما يجب أن تكون عليه. وفي حين أن هذه الدعاوى انبثقت عن علماء التبيؤ. إلا أنهم لم يحددوها أو يعرفوها. (فالعشبة الضارة) ليست نوعاً من أنواع النبات. بل إنها النوع الخطأ في المكان الخطأ. من الواضح أنّ إزالة الأعشاب الضارة هي (مشكلة تتعلق بفن الحدائق)، إلا أنّ تعريف الأعشاب الضارة وتحديدها يستند إلى الثقافة وليس إلى البستنة وفنونها. وبالمثل، فإنّ التلوث مشكلة بيئوية لا يمكن تحميل عنصر أو مجموعة عناصر بذاتها المسؤولية عنه. إنما تمثل دعوى معيارية مضمرة مفادها أنّ هناك كمية كبيرة من شيء ما في البيئة-في الغالب في المكان الخطأ. كان لا بد لكارسون أن تستقصي مشكلة في التبيؤ بمؤازرة علماء أحياء الحياة البرية، وخبراء تسمم البيئة لإظهار أن (D.D.T) يتراكم بكميات تسمم الحياة البرية. إلا أن (الربيع الصامت) قد قام بعمل ثقافي وليس علمي في كفاحه لإثبات القضية الأخلاقية التي تستوجب عدم وجود مثل هذه المادة السامة. ويكمن جوهر الإنجاز الذي

حققه الكتاب في تحويل (المشكلة العلمية) في التبؤ إلى مشكلة تحظى بوعي واهتمام واسعين أهلها. لتكون محور تجاذبات سياسية وقانونية وفي الإعلام والثقافة العامة. إذاً فليس باستطاعة النقد البيئوي أن يسهم كثيراً في النقاشات الدائرة حول المشاكل البيئوية، ولكن من الممكن أن يفيد في تعريف وسبر وحتى حل المشاكل البيئوية -وفقاً لهذا المعنى الأوسع.

إحدى طرائق (النقد البيئوي) للقراءة هي: أن نرى الإسهامات في مجال الجدال البيئي بوصفها مثالاً على فن البلاغة والإقناع. وكما أشرت آنفاً- فإنّ كارسون وظفت كلاً من الصور الرعوية والبلاغة الرؤيوية في (الربيع الصامت) -وسوف نعود لهذا الموضوع لاحقاً- ولكن حالياً هناك كثير من التطبيقات الأخرى لاستخدام التحليل البلاغي والاقناعي. فعلى سبيل المثال لا الحصر، حاول رالف لوتس (Ralph Lutts) أن يوضح تأثير (الربيع الصامت) لافتاً الانتباه إلى المقاربة المضمرة التي عقدتها كارسون بين تلوث المبيدات الحشرية، وشكل آخر من أشكال التلوث، كان له صدىً بارزاً في الوعي العام في عام1962:

"لقد كانت تدق جرس الإنذار لنوع جديد من أنواع التلوث كان خافياً عن حواسنا، يمكن أن ينتقل لمسافات كبيرة، ربما بمستوى عالمي، قد يتكدس بمرور الوقت في أنسجة الجسم، ويتسبب بالتسمم المزمن، ويمكن أن ينتهي به المطاف إلى الإصابة بالسرطان، أو التشوهات الخَلقية بعد الولادة، أو اعتلالات جينية لا تتكشف إلا بعد سنوات أو عقود من التعرض للتلوث. وقد صرحت أيضاً أنّ المسؤولين الحكوميين لم يتخذوا الإجراءات اللازمة لإحكام السيطرة على هذا التلوث وحماية العامة. ولم يكن التلوث الكيميائي الشكل الوحيد الذي ينطبق عليه هذا التوصيف. فثمة نوع آخر -يعرفه العامة جيداً- هو السقط الإشعاعي. وقد تكون المبيدات الحشرية شكلاً من أشكاله." (2000:19).

لقد جمعت كارسون بين الأساليب القديمة والمعاصرة في تصوير الطبيعة لتعكس التهديد الذي تطلقه (هستريا السقط) للتأسيس لدعاوى معيارية خاصة عن التلوث. ويمكن لتحليل بلاغي مفصل أن يظهر كيف ركبّت بنية قصة (الربيع الصامت) لتحقيق بعض المكاسب السياسية الخاصة: وليست الإجراءات العلمية الموضحة في الفصل الأخير فقط، ولكن مراجعة صريحة لمفهوم التلوث ذاته.

قراءة (الربيع الصامت) نصاً بلاغياً إقناعياً لها فوائد عدة لأية ممارسة نقدية مسيسة علانية، وقد وضع بعضها الناقد الماركسي تيري إيجلتون (Terry Eagleton):

"ماذا يمكن أن يكون خاصاً بنوع الدراسة التي أختزنها في عقلي ... ما هي أنواع التأثيرات التي يمكن أن تنتجها الخطابات، وكيف تنتجها؟ فقراءة كتاب في علم الحيوان لمعرفة شيء عن الزرافة، تُعدُّ جزءً من دراسة علم الحيوان. إلا أنّ قراءته من أجل بيان رؤية بنيته الخطابية وتنظيمها، والبحث عن التأثيرات التي تحدثها مثل هذه الصيغ والأساليب الكلامية على بعض القرّاء في ظروف حقيقية هي مشروع آخر مختلف عن سالفه. في الواقع ربما يكون النموذج الأقدم للنقد الموسوم بالبلاغة". (1996:205).

سوف أقرأ الثقافة (Culture) بوصفها بلاغة، ولكن ليس بالمعنى الضيق الذي يفهمه البلاغيون، ولكن كإنتاج وإعادة إنتاج [قراءة مونتاجية] وتحويل طيف واسع من الصور المجازية (metaphors). وسوف يُعني كل فصل من فصول دراستي بمناقشة واحد من هذه المجازات، التي يُعتقد أن لها آثاراً سياسية محددة -وإن كانت متضاربة أحياناً- أو تخدم مصالح اجتماعية معينة. بعض هذه المجازات كـ (الرعوية) مثلاً: هي مجازات أدبية راسخة، وبعضها متنافرة بشكل كبير، يمكن توحيدها تحت مسمّى واحد. ولأن المجازات كلها -بمفهوم معيّن- طرائق للتصوير -بناء أو تقديم الطبيعة بكلام مجازي، فسوف أعنون فصولي بعناوين (مجازية). سيضم كل فصل مجموعة تباديل (تغيرات) من الخيال الإبداعي: المجاز، والجنس الأدبي (gender)، والسرد (narrative)، والصورة (image). تستكشف هذه المقدمة مجاز (التلوث) مثالاً. أما الأساس الذي ينبني عليه تعريف وتحديد المجاز فسيتناوله الفصل الخاص به، مع بقاء فرضية (الخارطة ليست الأرض) -كما يحب النقاد البيئوون أن يقولوا. ليس كلامي المجازي حاسماً ولا شاملاً، فالقصد منه أن يكون معيناً وليس محدّداً.

يقترح التحليل البلاغي ترابطاً وثيقاً بين معنى العبارات المجازية وسياقها الاجتماعي الأوسع. فهي ليست معاني ثابتة، ولكنها تتطور وتتغير تاريخياً. فالتلوث (pollution) مشتق من الكلمة اللاتينية يلوّث (Polluere)، التي تعني يدّنس (to defile). وقد عكس بواكير استخدامها في اللغة الإنجليزية أصولها اللاهوتية –الأخلاقية: فحتى القرن السابع عشر كانت الكلمة تدل على التدنيس الأخلاقي لشخص أو أفعال (مثل الاستمناء)، ويعتقد أنها تروّج لمثل هذا التدنيس. هذا المعنى الداخلي أو الذاتي بشكل أساسي ما لبث أن تحوّل تدريجياً -في الواقع بيئياً تحديداً- إلى معنىً خارجي وموضوعي، فيما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، إلى درجة أن المعنى الثاني هو الذي بقي رائجاً حتى يومنا الحاضر. ويصلح هذا المثال نموذجاً لبيان كيفية اضطرار الناس أن يتعلموا مقت تشظيهم، كما أنه يوحي بالجذور الثقافية الراسخة للخوف الذي

يرافق هذه الشطحات اللاأخلاقية. سيتم تتبع الأصول القديمة للمجازات التي ترد في الكتاب قبل أن أشرع في سبر انعطافاتهم الحديثة.

إنّ أول استشهاد لمعنى التلوث المعاصر كان على يد فرانيسس بيكون (Francis Bacon) في قاموس أكسفورد الإنجليزي، في دراسته تقدّم التعلّم (The Advancement of Learning, 1605)، الذي يُعدّ نصاً مؤسساً في أساليب البحث العلمي المعاصرة: "الشمس ... مرت بتلوثات، ولكنها ذاتها بقيت نقية كما كانت سابقاً". يبدو أن بيكون يكتب هنا عن ظاهرة مادية، وليست أخلاقية، فقد شكلت تحولاً أساسياً في المعنى، وولادة طريقة جديدة في الرؤية والتفكير. ورغم ذلك عزت كارولين ميرتشنت (Carolyn Merchant) في كتابها -المحوري في تاريخ النقد البيئوي- موت الطبيعة (The Death of Nature, 1980) دوراً أساسياً قام به بيكون في تشكيل النظرة للعالم المدمّر للبيئة. حيث صورة الأكوان العضوية مع الأرض الأنثى الحية في مركزها عبدّت الطريق لنظرة عالمية آلية، مما أعاد النظر إلى الطبيعة بوصفها ميتة وسلبية، يسيطر ويهيمن عليها البشر (xVi:1990). إذن فالمفردة المجازية (التلوث)، قُصد بها تاريخياً الدمار البيئي والخلاص على حد سواء، منذ أن (اكتشفت) بيكون التلوث بمعناه المعاصر -ووفقاً لميرتشنت- أفادت كثيراً في توظيف هذا المجاز. وهذا يعكس -من وجه نظر النقد البيئوي- الدور المتناقض للعلم الذي يعمل منتجاً للمخاطر البيئية ومحللاً ناقداً لها، وتظهر كل المجازات التي سنتناولها في هذا الكتاب شيئاً من هذا التناقض.

وهنالك ميزة أساسية للبلاغة تقتضي انخراط الألفاظ المجازية بالصراعات الاجتماعية الأوسع بين الأجناس، والطبقات والجماعات العرقية. فلا يسهم كل المساهمين بالحصة نفسها عند تشكيل الثقافات، ولا تتساوى الثقافات العالمية قوة. ولا بدّ أنْ ندرك أن الصيغ المجازية التي يحتمل أن تجابه أو تبطل الممارسات المدمرة للبيئة يمكن تطويعها، على الرغم من أن البرية يمكن أن تظهر محصنة في وجه النظرة الصناعية، والزحف المادي للعالم والنظام الاجتماعي؛ إلا أنه بمقدور عناصر هذا النظام الصناعي من مثل صناع سيارات الدفع الرباعي الرياضية الاستيلاء على البرية بوصفها (الموطن الطبيعي) لمنتجاتهم في إعلاناتهم الدعائية (انظر Campbell 1998). وبما أنّ هذه السيارات تحتاج بئر نفط خاص لتغذية محركاتها الضخمة، فسخرية التجاور (juxtaposition) يمكن أن تقترح أنّ (البرية) لها وظيفة إيديولوجية في هذا المقام، وهي شرعنة الاستهلاك الملحوظ لطبقة أو أمة ثرية.

في الاستخدام العادي، تقترح (البلاغة) لغةً تحلُّ محل الحقيقة الحرفية: أنّه كلّه هواء ساخن إلا أنّ المعنى المنشود في هذا الكتاب يُعنى بشكل أساسي بالمعنى الحقيقي وليس المجازي. ويمكن أن يكون ذلك جدير بالاهتمام، فلا يوجد توجهات مهمة في النظرية الأدبية والثقافية تبدو أنها تهمش وظيفة الحقيقة الحرفية في الأدب والثقافة، ولا في العلم ذاته. فقد أكدت البنيوية وما بعد البنيوية على الوظيفة اللغوية للعلامات، التي تعزوه إلى بعضها بعضاً بدلاً من الإشارة إلى الدلالات الحقيقة. وقد عززت تطورات في مواضع أخرى هذا الانفصال بين اللغة والواقع: فقد أظهر منظرو أدب ما بعد الحقبة الاستعمارية (post-colonial)، ومنظرو الأدب النسوي، أن الفئات التي تظهر أنها حقيقية أو طبيعية بشكل واضح، مثل العرق أو الجنس يمكن فهمها بشكل أفضل بوصفها (بنى ثقافية)، والتي تستبدل الدعاوي المعيارية المضمرة حول -مثلاً- ما يجب أن يكن عليه النساء؟ بواقع النساء الحقيقي. فقد ميّز النقاد النسويون بين الجنس (sex) بوصفه تصنيفاً نوعياً (biological)، وبين الجنس (gender) بنيةً اجتماعيةً، ليبينوا كيف حاولت رؤية العالم ونظامه الاجتماعي الذي يسيطر عليه الرجال أن تشر عن تغيير تفسيرات الجنس بوصفه ظاهرة اجتماعية بإرجاعهم إلى ما يفترض أنها هوية (طبيعية) جنسية ثابتة. و(النسوية) -وفقاً لكثير من المنظرين النسويين- هي ليست نتيجة طبيعية أو حتمية لأنثوية الكون، وإنما هي مجموعة من السلوكات المفروضة ثقافياً. مثل هذه الدعوى تفصل بالكامل الجنس الأنثوي عن هوية الجنس النسوي الثقافية الراسخة، والتي تحيا في اللغة والثقافة فقط. بينما يوفر مثل هذا الفهم الفرص الممكنة للنساء للخروج من دائرة الصور النمطية القمعية، فإنّه يمثل أيضاً أولوية بارزة لدعاوى الثقافة على دعاوى الطبيعة.

تعدُّ البنيوية أداة فاعلة في عملية التحليل الثقافي -وفي الواقع- فقد اعتمدتُ عليها كثيراً في مناقشتي لمفهوم التلوث. ولكنها تقترح-أيضاً- أن (الطبيعة) كثيراً ما كانت تستخدم غطاءً لمصالح بعض المجموعات الاجتماعية. فالتحدي الذي يواجهه النقاد البيئويون يقتضي أن يبقوا عيناً من كلتا عينيهم مفتوحة على الأساليب التي تبنى من خلالها (الطبيعة) ثقافياً، وعيناً أخرى على حقيقة وجود الطبيعة حقاً، على الشيء -ولو بشكل متباعد- على أصل خطابنا. وقد سمّى لورنس بويل (Lawrence Buell) ذلك "أسطورة البنيوية المتبادلة: بيئة مادية (طبيعية من صنع البشر)، تشكل بدرجة معينة ثقافات تجدد بدرجة معينة الطبيعة (2001:6). إنّ عدم الدقة الذي تصفه شبه الجملة -بدرجة معينة- غاية في الأهمية؛ ذلك أن شبكات (التشكيل) المتبادل بين الطبيعة والثقافة متداخلة، فهي معقدة وإنْ كانت العين ثاقبة. وسيتركز الهدف في مجمل

هذا الكتاب على الموازنة بين المنظور البنيوي، والدعاوي القوية لحقيقة حرفية يطلقها علم البيئة. تساور النقاد البيئويون شكوكاً حول حقيقة أن العلم يحتفظ النقاد البيئويون بشكوك في حقيقة مفادها أن العلم موضوعي كلياً، وأنه يخلو من القيم. إلا أنهم في هذا الوضع غير العادي يجدون أنفسهم مضطرين -أخيراً- أن يذعنوا للفهم العلمي للعالم.

تُعدّ شبه جملة بويل (بدرجة معينة) غاية في الدقة والإفادة. إلا أن جزءاً من المشكلة يكمن في مجاز (البناء) ذاته، الذي يقترح حتى في نسخته المعدلة نتاجاً بشرياً مثل بناية أو آلة، وعملاً مستقلاً للعقول والسواعد. إنني أتريب فيما إذا كان القراء سيتخيلون تلقائياً بناءً طبيعياً مثل بيوت النمل الأبيض. أما إذا صنعت بناية أو آلة –بغض النظر عن تقدمها التقني- على يد الحيوانات الراقية (الكائن الحي الإنسان Homo sapiens) من مواد طبيعية (nartura)، وفقاً للقوانين الطبيعية للفيزياء الحركية، فعندئذٍ تكون كل البنى الثقافة التي نتبجح بها -بمعنى معين- بنى طبيعية. وربما يحيرنا أو يُعمّى علينا مجاز فن العمارة الأساس الطبيعي لمجمل الثقافة الإنسانية، ونمجّد قوتنا بوصفنا سلالة بشرية وحسب. ولا يمكن تلافي الإيحاءات المفرطة في الثقافة (للبنية) بسهولة، من خلال تبديل المصطلحات، لكني أميل إلى استخدام (التشكيل) أو (البيان) أو (الأصباغ) لوصف التحولات المعقدة والمفاوضات التي تجري بين الطبيعة والثقافة، أو بين الطبيعة الحقيقية والمفترضة.

وإذا عدنا إلى مصطلح (التلوث) حاملين هذا المنطق في ذهننا، فمن الممكن أن نلحظ أن التاريخ البلاغي للمصطلح كان مصطفاً إلى جانب مع ادعاءات الحقيقة التي يتبناها علماء التبيؤ والعلماء التسمم البيئي. فقد تطورت تقنيات التحليل إلى درجة رصد الكميات الكيميائية المتناهية الصفر في البيئة.

"عند تعاملنا مع التقارير البيئية، أو السياسات، أو الأنظمة يجب ألاّ نغفل لحظة أن ما كان صفراً لن يبقى كذلك في المستقبل. فقد تخطينا القياس بالميكروغرام [=1×10- 6 جزء من مليون من الغرام] في الخمسينيات، إلى القياس بالبيكوغرام (=1×10- 12 جزء من التريليون من الغرام) في الثمانينيات والتسعينيات... وفي الوقت نفسه يجب أن نعي تماماً عدم وجود علاقة بين النتائج السميّة، وبين قدرتنا على رصد مادة كيميائية، فلا يصبح للكميات الصغيرة أية أهمية، إلا عندما ما تؤثر في الكائنات الحية (Barrchers 1996: 46-7).

يوجه بارشرز (Barrchers) انتقاداً كبيراً (لهستريا) البيئويين بسبب وجود كميات صغيرة جداً من المواد الكيماوية أقل بكثير من مستويات التسمم. فشعوره بالإحباط من انتشار

ظاهرة سوء الفهم، والجهل في علوم البيئة، يبدو مبرراً. إذا سلمنا أن الناس عامة يقبلون دائماً أن هناك مخاطر كبيرة مصاحبة -لنقل-، والتدخين. أما أن يطالبوا بإزالة المخاطر الصغيرة جداً التي ترافق تسارع التكنولوجيا، فهذا أمر مبالغ فيه. ويمكن للجماعات البيئية الضاغطة أن تروّج أيضاً لحمى الشك المبنية على الجهل، وليس للنقد المنطوي على المعرفة. (انظر: الفصل الخامس).

وفي الوقت نفسه، لم يقدم بارشرز شرحاً للموقف الذي يقول أن انفعال العامة، ما هو إلا ردة فعل توازي بدقة حدود، ودرجة المراقبة البيئية التي يصفها. فبدلاً من الفصل بين (المخاطر الحقيقية) التي يحددها علماء السموم، وبين (المخاطر المدركة) التي يستثمرها العامة، ثم توجيه النقد للناس لعدم ثقتهم بالخبراء. فلا بد لنا من فهم المخاطر المدركة على أنها -على وجه المفارقة- نتيجة للمراقبة المعقدة المتزايدة. فكلما زادت دقة قياسات الخبير للمخاطر، زادت الهوة بين التقديرات الرسمية للخطر، وبين أي تقييم يدلي به أي إنسان عادي نتيجةً لخبرات شخصية. وهذه الطريقة في التعامل يصفها عالم اجتماع الاغتراب أولرخ بك (Ulrich Beck) أنها مصادرة للحواس (1999:55). علاوة على ذلك، فإنّ (المخاطر الهائلة) النووية والبيولوجية والكيمائية تعمل على تقويض الكفلاء التقليديين للسلامة الصناعية، مثل: شركات التأمين الخاصة، والتعويض والتعليمات الحكومية لقياس المخاطر وحسابها، وذلك لأن التهديد الذي تفصح عنه المراقبة البيئية يتضاءل دون نقطة اتخاذ القرار الإحصائي. فمن غير الممكن أن نقيّم المخاطر بذاتنا. وفي الواقع يُبرز علماء السلامة الصناعية المخاطر بشكل أكثر غموضاً وأشد ترويعاً كلما بالغوا في تصغيرهم. ونتيجة لذلك -يحتج بك (Beck) قائلاً- إنّ ادعاءات السلامة الآمنة التي تفترضها الصناعات هائلة المخاطر تولّد شعوراً غير آمن لعامة الناس. فإعادة بناء (التلوث) التي دعت إليها كارسون (Carson) ليتضمن الكميات الدقيقة للمبيدات الحشرية، والتلوث الضخم الملاحظ للإنتاج الصناعي التقليدي، ما كان إلا استمراراً لتعاقبية تاريخية من إعادة هيكلة مفهوم التلوث ما زالت مستمرة في ثقافتنا المعاصرة. فتوالد أنواع (التلوث) ومصادره، يعني أنه من الممكن عدّ الضوء والضجيج الصناعي ملوثات، ووصف ثاني أكسيد الكربون ملوثاً مناخياً رغم أنه يحدث طبيعياً وبكميات هائلة. فمحاولة باشرز للتعقل والتقليل من هذا التوسع المطّرد لا يمكن أن تنجح في تصفية الحساب مع الثقافة الدعائية والسياسية التي ينيرها تحليل بِك البنيوي.

هذا التعميم، من وجهة نظر استثمارية عادية -الذي سلّ التلوث من ماديته- له عواقب مهمة جداً في ثقافتنا، لأنه يؤسس لـ (جمعية الخطر العالي) التي تُعنى بتهديدات مادية غير

محسوسة آنياً ولكنها حاضرة في كل مكان ولا تنفصل عادة في الممارسة عن تفصيلاتها الثقافية. فقد تغلغل مفهوم (التلوث) في مواطن ومستويات متعددة في ثقافتنا، من الهمّ البيئي المضمر في شعر سيلفيا بلاث (Sylvia Plath) (Brain 1998) إلى التصريح المباشر في أعمال مثيرة -مثل الفيلم المثير الأخضر لهوليود- (على أرضة مميتة) (On Deadly Ground 1994) (Kerridage 2000. Inagram 2000). لقد وضع بويل أربعة محكات تطبيقية لـ (الخطاب السمومي) جنساً ثقافياً: تأسيس (جامع أساطير عدن المخونة) (Mythography of betrayed Edens 2001:37) والمرتكز -مثل قصة كارسون العبرية السالفة- في" تجميع، صور الرعوية المرعبة عن عالم بلا ملجأ من الاختراق السّمي" (p.38) الذي تشكّل غالباً من الخوف الذي عقب الحرب من الانتشار الإشعاعي للأسلحة النووية (تهديد السيطرة الاستبدادية) (p.41) للشركات أو الحكومات القوية في مقابل المجتمعات المهدّدة، وإضفاء الصبغة (القوطية): لفضح القذارة والتلوث التي تتعرض لها البيئة.هذه المعايير -إضافة إلى سلسلة نَسَب (التلوث) التي أشير لها آنفاً- تمكن من تحديد صيغ مجازية بيئوية معاصرة هامة في أعمال قوطية تتناول أحياء وضيعة مثل رواية ديكنز (Dickens): (أوقات صعبة) (Hard Times 1854). وأعمال درامية تتناول رفع دعاوى بيئية مثل (Erin Brockovich، 2000)، واستكشاف تلويث المكان والعائلة في عمل تيري تيمبست ويليامز (Terry Tempest Williams) (الملجأ) (Refuge، 1991). وقد وصف أندرو روس (Andrew Ross) مدينة نيويورك بطبيعة هوليود المسمّمة الكاملة "على الجانب الآخر للسلطة تقبع مدينة تعجّ بالمخاطر الحيوية. بالتأكيد لم تحظ مدينة أُخرى بمؤلّف رائع عن الحيوانات كسكان تاريخيين- من التماسيح إلى سلاحف النينجا- في أنفاق صرف الصحي" (1994:135).

وعلى الرغم من ذلك، ففي عالم الازدحام الإعلامي ما بعد الحداثي، يمكن للصيغة المجازية الحديثة (للتلوث) أن تصبح منفصلة -بشكل خطر- عن مرجعيتها بطرق قد لا يتعرف عليها باشرز. في الضجة البيضاء (White Noise) لدون دليلو (Don Delillo، 1986) كافح البطل والراوي جاك جلادني (Jack Gladney) للوصول إلى تفاهم مع قرب (حادثة التسمم المحمولة جواً) غير المتوقعة:

"اندفع الدخان من أعمدة الضوء الحمراء نحو الظلام، ثم إلى عرض الفيضانات البيضاء الطبيمية الخلابة، تحرّك الرجال ببزات الميلكس (mylex) بحذر تحت ضوء القمر. كانت كل خطوة ممارسةً "لشيء من الانفعال لم تذكه الغريزة. لم تكن النيران والانفجارات

مخاطر متأصلة هنا. فالموت يستطيع أن يخترق ويتخلل الجينات، ويظهر ذاته في أجسام الأجنّة" . (1986:116).

من وجهة نظر ما، يبدو أنّ هذا يؤكد طرح بيك أنّ توتر الخطر لا يمكن تنفيسه أو حتى التعامل معه (بالفريزة)، فعدم جود تهديد محدد بذاته يزيد الأمور حدة. ورغم ذلك، فإن الحكاية تصارع (الحدث) وفقاً لحكايات سابقة أُخرى، مثل (السيطرة على الفضاء)، بكل ما تعكسه من صور دراماتيكية، وأسماء علامات صناعية عسكرية. ولقد أصبح التلوث مشهداً لافتاً منفصلاً تقريباً عن أي معنى حقيقي للتهديد، ويعود الفضل بذلك للحضور الكلي والشامل لمثل هذه الصور: "شابهت الغمامة ترويج وطني للموت، أو فاصلاً دعائياً يساند حملة بملايين الدولارات، أو مطبوعات ولوحات إعلانية قوية، أو إتخام المحطات المتلفزة" (p.158).

يعتمد الناس القاطنون مناطق محاذية للانبعاثات السامة على الإعلام، لفهم مثل هذه الانبعاثات: أولاً- (كتلة ريشية)، بعد ذلك، (غمامة سوداء مفلطحة)، ونهاية (حادثة التسمم المحمولة جواً). واذا عكسنا أولويات باشرز عن حقائق التمثيل، فإنّ أعراض الضحايا تتباين كلمّا حُدّثت تقارير الخطر الإعلامية. وإنّ أساس التفاوت هو كثرة الصورة وندرة الحقائق، مما يجعل من حدث التسمم حالة لأزمة ما بعد حداثية يجب أن ينخرط فيها النقاد البيئيون. تؤسس الحركة البيئة والنقد البيئوي توعية من دعاوى الحقيقة العالمية أو (القصص العظيمة)، يعدّها ما بعد الحداثيين من أمثال جين بودريلارد (Jean Baudrillard) دعاوى لا يمكن الدفاع عنها، مثلما يحتج المؤرخ بيتر كوتس (Peter Coates) قائلاً:

"وفقاً لمنطق ما بعد الحداثة الذي لا يفوّض أحداً عموماً، فإن الاعتقاد بوجود أزمة بيئة عالمية ما هو إلا حكاية عظيمة أخرى، لأنّ النظرية الثقافية تصر على أنّ التهديدات البيئية (مثل أي شيء آخر)، تبنى اجتماعياً وتعرّف ثقافياً: وليس هناك تهديدات عالمية مشتركة أو جماعات مختلفة تمنح امتيازاً لأولئك الذين يواجهون مصالحهم الخاصة" (185:61998-).

ورغم ذلك، فإن الاحتكامات حقيقة علمية في مواجهة ادعاءات ما بعد الحداثة، تتعقد لاسيما إذا عددنا أن علم البيئة نفسه يسري عليه التغيير. فقد شكّك علم البيئة ما بعد الحداثي في الأفكار التي بقيت شائعة لزمن طويل، والتي كانت تروّج للانسجام المتأصل في الطبيعة، كما هو موضح في الفصل الثالث. ولا بد لنا من التميز بين نظرية ما بعد الحداثة التي تعادي النقد البيئوي، وبين علم البيئة ما بعد الحداثة الذي سيصبح يوماً بعد يوم مركزيته المرجعية العلمية.

إذاً، فهذه هي أطروحات هذا الكتاب: تقتضي المشاكل البيئية تحليلاً ضمن المستويين العلمي والثقافي، لأنهما نتاج تفاعل بين المعرفة البيئية للطبيعة، وبين انعكاساتها الثقافية. وهذا يتطلب مشروع بحثي متداخل الحقول العلمية يرتكز إلى النظرية الثقافية والأدبية، والفلسفة وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والتاريخ البيئي، بالإضافة لعلم البيئة. وإن دراسة البلاغة توفّر لنا نموذجاً لممارسة قرائية ثقافية مكرسة للقضايا السياسية والأخلاقية، وممارسة متيقظة للتفسيرات الحرفية الحقيقية، والتفسيرات المجازية أو المبنية عن (الطبيعة) و(البيئة) على حد سواء. وإنّ تجزيء هذه المفاهيم -التي تبدو متناغمة- إلى مجازات وصيغ ثقافية هامة، يمكّننا من توجيه الاهتمام لميزات الخطاب البيئي: الموضوعة[1] (thematic)، والتاريخية، والجغرافية، ويكشف لنا أنّ كل صيغة مجازية بيئية لها قابلية لأن تنتشر وتخصص لخدمة مجموعة من الاهتمامات المحتملة المتنازعة. يمكننا النقد البيئوي من تحليل الصيغ المجازية التي تستخدم في الجدل المتمحور حول البيئة تحليلاً نقدياً. وبقدر كبير من التجريب، يمكّننا من التنبؤ بمن سيكون له أثر أكثر استجابة لجمهور ما في فترة تاريخية ما. وإنّ مواجهة التكتل الهائل والمعقد والمتشعب للأزمات البيئية بأدوات تحليل ثقافي غير متماسكة بشكل بيّن، يجب أن ينظر إليه الناقد البيئوي بوصفه حاجة سياسية وأخلاقية، رغم أن المشاكل تظهر دائماً مقزّمةً للحلول.

تقدم الفصول اللاحقة شرحاً مقتضباً للتوجهات السياسية والفلسفية المتنوعة لطيف علم البيئة الواسع، وجزئياً لتوضيح أنه ليس هناك منظور بسيط واحد يوّحد كل النقاد البيئويين. وابتداء من الفصل الثالث وما بعده، سينتظم التحليل تحت مسميات ذات صيغ مجازية هامة في النقد البيئوي، ابتداء من (الرعوية) التي تحظى بقدر كبير من الدفاع المتخندق، وانتهاءً ببناء (الأرض) بوصفها كلاً موحداً. وسوف نقوم ضمن كل فصل بتتبع تطور الصيغة المجازية تاريخياً و-في بعض الحالات- جغرافيا، إضافة إلى أنني أخلط بين نقاش النصوص المتعارف عليها عند النقاد مع مزيد من المواد الثانوية، لأشير إلى مدى العمق والسعة الذي يفترضها هذا الحقل المعرفي.

وتتناول الفصول من الثالث إلى الخامس سلسلة متصلة من المجازات التي تدين بشكل

---

1 الموضوعة (التيمة) يعني في الرواية: النسيج الفكري الناشئ من الأحداث والشخصيات، باعتباره محصلة نهائية تتخذ عادة شكلاً هرمياً من الأسئلة والمشاكل (وربما يتضمن بعض الأجوبة). وقد فضلنا ترجمة (Thematic) بالموضوعة. علماً أنها استعملت في النقد العربي لفظة (تيمة). كما قد يعني المصطلح: الدعوى أو الحجة أو المبدأ، أو الفكرة أو السؤال الذي قد لا تكون له إجابة محددة. انظر تفصيل ذلك في: محمد عناني. المصطلحات الأدبية الحديثة مادة (Them) .

كبير للقصص الأورو -أمريكية المسيحية- اليهودية عن إنسانية منحطة منبوذة تسمى للخلاص الديني، ولكنها تخشى القدر الرئيوي (apocalyptic): الرعوية، والبرية، والرؤيا. وتقيّم هذه الفصول أهمية الأنماط التي اكتسبتها هذه المجازات في الزمن الراهن. ثم يقارن الفصل السادس مفهومين منفصلين تماماً للسكن (dwelling) على الأرض: الإرث الكتابي الأوروبي الزراعي (georgic) عن العمل في الأرض، والوصف الأحداث تزامنياً لأساليب حياتية محلية بوصفها نماذج محتملة للتعايش المنسجم. وعلى الرغم من ذلك، تركن مناقشة مفاهيم علاقة الإنسانية بالعالم الطبيعي إلى التمييز الإشكالي بين سلالتنا البشرية، وبين الأنواع الحيوانية الأخرى؛ لذلك يعرض الفصل السابع للطرائق المختلفة التي تصوّر فيها الحيوانات البرية، والأليفة، والمفاهيم التي شُكّلت عنها. وسأبرهن على أنّ إعادة تمحيص فكرة (الإنسانية) مهمة أساسية للنقد البيئوي، محاولاً إخراجها من مضمار الكتابة عن الرعوية والطبيعة، إلى هموم ما بعد الحداثة، مثل: العولمة، والمخلوق الهجين (cyborg) المشكّل من البشر والتكنولوجيا. وفي الفصل الأخير أستكشف دلالات الصور الاستثنائية لكامل الأرض من الفضاء، التي تنحصر بين صور الأرض سوقاً تجارياً عالمياً، وبين تصويرها مخلوقاً خارقاً نفيساً.

الفصل الثاني

مواقف

POSITIONS

تعدُّ (الحركة البيئية) حركة اجتماعية، وسياسية، وفلسفية شابة نسبياً، علماً أنه قد ظهر عدد من الفلسفات البيئية المستقلة، التي تنافس بعضها بعضاً للتجمع في أية توليفة ثورية. وكل منهج يفهم الأزمة البيئية وفقاً لمرجعياته الخاصة، مسلطاً الضوء على النواحي التي يسهل حلها بناءً لشروطه الملتزم بها، أو تلك التي تهدد القيم التي يمتد بحملها، ونتيجة لذلك يطرح طيفاً من الاحتمالات السياسية المختلفة. إضافة لذلك يمكن لكل منهج أن يهيء أرضيةً صالحةً لمنهج نقد بيئوي مستقل بتجاذباته وتنافراته الأدبية والثقافية الخاصة.

قرن الخصب[1] CORNUCOPIA

على الرغم من درجة الاتفاق العالية بين العلماء تجاه التهديدات البيئية التي تطرحها المدنية الحديثة، إلا أن ثمة آخرين –على النقيض من ذلك- يحتجون أن معظم –إنْ لم يكن كل- هذه المخاطر وهمية، أو مبالغ فيها؛ لذلك فهذا الموقف (الخصبي) –بمعنى هام- لا يمت للبيئة بصلة. وفي بعض الحالات يخصص له دعماً مالياً، وتعمل جماعات الضغط الصناعية المناوئة للبيئة على نشره. ويُعدُّ اقتصاديو السوق الحر، وعلماء الإحصاء السكاني (Demographers)

---

1 هو قرن تندلق منه الفاكهة يرمز للنصر والثروة والسلام قديماً (المراجع).

من أهم مناصريه [الموقف الخصبي] الفكريين المنظرين له، مبرهنين على أنّ حيوية الاقتصاد الرأسمالي قادرة على إيجاد حلول للمشاكل البيئية لحظة ظهورها. وأنّ زيادة عدد السكان تنتج افتراضاً الثروة اللازمة للإنفاق على التحسينات البيئية.

وعلى رأس الدعاوى التي يتشدق بها الخصبيون دعوى: أنّ مصلحة البشرية –التي يتم قياسها وفقاً لإحصائيات مثل معدل الإعمار المتوقع، والتلوث المحلي -قد ازدادت بشكل واضح مع ازدياد عدد السكان، والنمو الاقتصادي والتقدم التقني. ويلمحون إلى أنه -وعلى المدى البعيد- سينقض تدني أسعار الطعام والمعادن، مقارنة مع حجم الأجور. دعوى الندرة المفترضة للمصادر الطبيعية، لأنه كلما صَعُب الحصول على عنصر ما ارتفع سعره، وهذا سيدفع المقاولين الرأسماليين للبحث عن مصادر أو طرائق أو مواد بديلة. فاكتشاف بدائل لمادة ما يؤدي إلى تدني أسعار المادة الأصلية، مثلما أدى انتشار حزم الألياف الضوئية بديلاً عن أسلاك النحاس، إلى تدني أسعار النحاس الخالص. إذاً (فالندرة)، ظاهرة اقتصادية ليست بيئية، وسوف يعمل المقاولون الرأسماليون على معالجتها. وليس التخفيضات في الاستهلاك التي روّج لها البيئويون: "الحقيقة أنّ مفهوم المصادر ذاته مفهوماً متغيراً. فكثير من الأشياء تصبح مصادر مع الزمن، وقد شهد كل قرن ظهور مصادر جديدة" (Beckerman, 1995: 60). وإنّ وجود أناس أكثر على الكوكب يعني عقولاً أكثر حيلة وأشدُ دهاءً، وأيادي أكثر إنتاجاً، واستهلاكاً أكبر، مما يؤدي إلى نمو اقتصادي أكبر. فقد أدت ثقة الاقتصادي جوليان سيمون (Julian Simon) في (الحلقة الافتراضية Virtual Circle) في النمو الاقتصادي والسكاني إلى إطلاقه تحدٍّ مستمر:

"خذ (أ) أي مقياس للمصلحة البشرية –مثل معدل الإعمار المتوقع- أو سعر الألمونيوم أو البنزين، أو حجم التعليم بين زمرة من الشباب، أو نسبة اقتناء أجهزة تلفاز، أو أي شيء آخر سمّه أنت: (ب) بلد (أو منطقة مثل الدول النامية)، و(ج) أية سنة مستقبلية، وسأراهنك على أجر أسبوع أو شهر، أنّ ذلك المؤشر سيظهر تحسينات بالنسبة إلى الحاضر الذي تراهن عليه، الذي سوف يظهر هبوطاً (Myers and Simon 1994:21).

لقد كسب سيمون رهاناً واحداً مع العالم البيئوي بول ايهرليك (Paul Ehrlich) حول ندرة المصادر المعدنية، إذا قيست بالأسعار خلال ثمانينات القرن الماضي. وبالمقابل فقد هاجم إيهرليك سيمون بسبب (الغسيل الأسمر brownwashing) الذي وصفه أنه استخدام العلم الزائف لمهاجمة الحركة البيئية (Ehrlich and Ehrlich, 1998).

إلى جانب إدعاءات وفر الثروة التي لا تنضب ، والنمو وإنتاج السلع، يستحضر بيكرمان وسيمون وآخرون نقداً (للإتجار بالرعب) البيئي، مشيرين بذلك إلى التضخيم غير المنضبط للتبريد العالمي، والمجاعة العالمية، الذي قام به العلماء البيئويون في سبعينيات القرن الماضي. فقد ألمحوا إلى عدم التأكد المتفق عليه من نسب انقراض الأنواع الحياتية -على سبيل المثال- أو مخطط المناخ العالمي، ودعوا بناءً على ذلك إلى التراخي، أو بأفضل الأحوال إلى مزيد من البحث.

إنه لمن المهم حقاً أن نستذكر التحسينات الهائلة -وفقاً لمعيار المصلحة البشرية- التي حدثت في الدول المتقدمة والنامية على الرغم من عدم تساويها المقلق، نتيجة النمو الاقتصادي، والتقدم التقني، حيث تحشد الرأسمالية طاقات حل المشاكل الكامنة في البشر التي -من الحكمة- أن لا نقلل من قدرها. ورغم ذلك، يعاني هذا الموقف من عدم ثبات كبير: فكثير من التحسينات التي تتمتع بها أمم ما بعد العصر الصناعي، يتم تحقيقها ليس عن طريق نقل الصناعات المدمِّرة للدول النامية فقط، ولكن تم دفعها بفعل التأجج السياسي للحملات البيئية، التي يدعي الخصبيون اليوم أنها تعيق التقدم الاقتصادي والتقني. ليست الرأسمالية وحدها هي التي تطرح الحلول التي يعرِّض لها الخصبيون، ولكن أيضاً المقاولون الذين يستجيبون للمستهلكين المتحصنين بالقيم والتشريعات الحكومية.

ومن الاعتراضات القوية جداً التي يجابه بها الخصبيون، أنهم لا يقيمون وزناً -إلا نادراً- للبيئة غير البشرية، إلا إذا ألقت بظلالها على الثروة أو المصلحة البشرية. فلا تقدِّر الطبيعة إلا من خلال منفعتها لنا. ويطالب كثير من البيئويين بمنظومة قيم تتخذ من القيمة الجوهرية أو المتجذرة للطبيعة نقطة بدء لها. ويتضح هذا التمييز الجوهري من الجدل الدائر بين سيمون وعالم الأحياء المحافظ نورمان مايرز (Norman Myers) الذي اقتبست منه آنفاً.

الحماية البيئية ENVIRONMENTALISM

سيتم من الآن فصاعداً وصف الطيف الواسع من الناس المهتمين بالقضايا البيئية، مثل: ظاهرة الاحتباس الحراري، والتلوث، الذين يرغبون بالحفاظ على مستوى معيشتهم السائد وتحسينه، والذين لا يرحبون بتغير اجتماعي جذري (بحماة البيئة). فكثيرٌ منهم يثمنون طرائق الحياة الريفية، كالتنزه مشياً على الأقدام، أو التخييم، أو أنهم أعضاء في إحدى الجمعيات البيئية السائدة، مثل: نادي سيرا (Sierra Club)، أو جمعية حماية الطبيعة، أو جمعية أودوبون (Audubon Society) في الولايات المتحدة الأمريكية. أو الجمعية الملكية لحماية الطيور،

أو مجلس حماية إنجلترا الريفية في المملكة المتحدة. يمكن أن يكونوا قلقين على ندرة المصادر الطبيعية، أو التلوث، لكنهم يتطلعون إلى المنظمات الحكومية وغير الحكومية من مثل: المؤسسات الخيرية؛ ليقدموا حلولاً، لاسيما حلولاً تقنية. وتتمركز أمانيهم في كبح جماح النمو السكاني -الذي يُعدّ مشكلةً رئيسية للدول النامية- من خلال حملات التخطيط الأسري، وليس -مثلاً- من خلال إجراءات التعقيم التي تمولها الدولة. فقد يتراوح النشاط من إعادة تدوير الزجاجات، وشراء طعام عضوي إلى الالتزام الكامل بنشاط الحماية. وفقاً للتوجه الفلسفي والديني، ما زال حماة البيئة يثمنون التقاليد الغربية مثل: الديمقراطية الفردية الحرة، وحقوق الإنسان، والمسيحية، وأفكار التقدم التاريخي أو العلمي -بدرجة متفاوتة- حتى في ضوء الأزمة البيئية. وفقاً لهذا الوصف، فهناك نسبة لا بأس بها من سكان الدول المتقدمة يندرجون تحت مظلة حماة البيئة. فالضغوطات السياسية، وضغوطات المستهلك التي برع حماة البيئة في استثمارها مسؤولة عن كثير من التحسينات الملموسة، مثل: التوسع السريع في الزراعة العضوية في السنوات الأخيرة.

فحماية البيئة -إذاً- حركة ذات انتشار واسع، وتعد -في محاور معينة- حركة قويّة، يتوجب على الأحزاب السياسية أن تسدي لها خدمة التحدث عنها، وأن تتجاوب الصناعات بأشكال مختلفة تتراوح بين التغيرات المكلفة لعمليات الإنتاج، وبين مجرد (طلاء أخضر) (greenwashing) تجميلي لتروق لجمعيات حماية البيئة أو تهدئها. وفي الوقت ذاته، فقد هاجم النقاد المتشددون (radical)[1]، حماية البيئة، أو ما يسمى (حماية البيئة الضحلة)، ذلك بسبب التسويات التي تقوم بها مع النظام الاجتماعي والاقتصادي الحاكم. فقد اتهم كل منهج من المناهج اللاحقة حماة البيئة بالفشل في التعاطي مع حالة التوعك التي شخصها، والتي يفترض أن تكون أساسية جداً.

يناصر كثير من أبرز الدعاة العلميين لحماية الطبيعة، مثل: راشيل كارسون، وبول وآن إيهرليك (Paul and Anne Ehrlich)، وإي. أو. ويلسون (E.O Wilson)، وستيفن شنايدر (Stephen Schneider)، جزءاً كبير من هذا الموقف، وعلى الرغم من أنّ حماية البيئة -بلغة فلسفية- والنقد البيئي لم تحظ بمدافعين نظاميين. يوجه مارتن لويس (Martin Lewis) في كتابه (تضليلات خصراء) (Green Delusions، 1994)، هجمة شرسة على حركة حماية البيئة المتشددة، ويقترح برنامجاً إصلاحياً يؤكد على دور العلم والتقنية وتغيير

---

1 راديكالي: هو النزّاع إلى إحداث تغييرات متطرفة في الفكر والعادات السائدة، أو في الأحوال والمؤسسات القائمة. والراديكالية: معتقدات ومبادئ الراديكاليين.

سياسة الحكومة تجاه البيئة. وفي مواجهة المنهج (الأركادي) Arcadian[1] للمتشددين الذين يناصرون اللامدنية، واستخدام المنتجات المصنعة، وحلول حياتية تكاد تخلو من الاعتماد على التقنية. تروّج الحركة (البرومثيسية Promethean)[2] التي تدعو لها (فك تزاوج) الاقتصاد الإنساني مع العلم البيئوي الطبيعي إلى حد ما، حمايةً للطبيعة. ويشير إلى أنّ المدن ليست مراكز للنشاط الثقافي وحسب، ولكنها أقل تكلفة على المستوى البيئي من التنافر السكاني في الضواحي، أو الفرار إلى مناطق خلف الضواحي. ويحتج أيضاً أنه يمكن للرأسمالية بتوجيه من الناخبين والمستهلكين أن توفر حلولاً تقنية (Technological) للعديد من مشاكل المصادر والتلوث. ويعدُّ منهج اللاتدخل (الطبيعة تعرف الأفضل nature knows best) الذي ينسبه لويس للمتشددين البيئويين، منهجاً غير كاف: "يؤكد البروميثيسيون .... أنه في المستقبل المنظور يجب أن ندير الكوكب بطريقة تضمن بقاء أكبر قدر ممكن من التنوع الأحيائي. فرفض القليل حاجة ملحة، إذا أردنا البدء بالتكفير عن خطايانا البيئية الحقيقية تماماً" (1994: 251). كما يتبنى ريتشارد نورث (Richard North) في كتابه (الحياة على كوكب معاصر) (Life on a Modern Planet, 1995) موقفاً مشابهاً، واضعاً (بياناً رسمياً للتقدم) يتسم بالاعتدال.

من الممكن أن يقال أن منهج الحكومة التقنية الفنية (technocratic) قد فشل فعلاً إذا قبلنا السبب الشائع طويل الأمد لاستمرار وتيرة الدمار البيئي. وفي الوقت نفسه، ليست للحركة البيئية السائدة نجاحات في قضايا معينة، مثل: استنزاف الأوزون وانبعاثات (CFC)[3] تحسب لها حسب. ولكنها [الحركة البيئية]، مثلت جمهور الناخبين الذي يتوجب على المتشددين مناشدتهم، إما من أجل تغيير موقفهم، أو من أجل التحالف معهم. فقد جهدت الجمعيات المتشددة الناجحة، مثل: جمعية السلام الأخضر، للمحافظة على سمعتها في النشاط المتشدد، ولكنها في الوقت نفسه روّجت لإعادة التدوير (والاستهلاك الأخضر). ومن الممكن أن يعتمد مستقبل أي من المواقف المتشددة المبينة هنا على فعل متوازن مشابه. علاوة على ذلك، ولأنّ معظم النقاد البيئويين يناصرون وجهات نظر متشددة، فمن المرجح أن يسعوا لاستغلال الحركة البيئية بين القراء، بينما يغرونهم بالتوجه نحو سياسة أو فلسفة أكثر كفايةً لمواجهة الأزمة البيئية كما يدركونها هُم.

---

1 نسبة إلى سكان أركادية وهي منطقة جبلية في بلاد اليونان اشتهرت أنها موئل الرعاة البسطاء القانعين بما قُسم لهم.

2 نسبة إلى بروميثوس سارق النار من الآلهة ومعلم البشر استعمالها.

3 CFC: اختصار لـ (Chloro Fluoro Carbon) وهو غاز يستخدم في صناعة تبريد الثلاجات، وفي صناعة بعض أنواع البلاستيك، يُظن أن استخدامه أدى إلى تدمير طبقة الأوزون.

علم التبيؤ المتعمق DEEP ECOLOGY

من بين الأشكال الأربعة للحركة البيئية، يعدّ علم التبيؤ المتعمق الأكثر فعالية خارج الدوائر الجامعية، ملهماً كثيراً من الناشطين في جمعيات مثل: أصدقاء الأرض، والأرض أولاً، وراعي البحر. وسوف يتكرر هذا الموقف وصوره المختلفة في هذا الكتاب، أنه وجهة نظر النقاد البيئويين المعلنة أو المضمرة، على أن يتم مناقشة بعض جوانبه بتفصيل أكثر في فصول عديدة لاحقة. يُعدُّ جاري سنايدر (Gary Snyder) (المولود عام 1930: انظر الفصل الرابع). شاعر بلاط (Poet Laureate) علم التبيؤ المتعمق، أما مرشده الروحي فهو أرني نايس (Arne Naess). وقد وضع نايس نقاطاً ثمانية أساسية لبرنامج علم التبيؤ المتعمق في .مجموعة جورج سشنز (George Sessions) الإيضاحية (علم التبيؤ المتعمق للقرن الواحد والعشرين 1995). وأهمها ما يلي:

"I- لسلامة وازدهار الحياة البشرية، وغير البشرية على الأرض قيمة بذاتها (مرادفات: قيمة جوهرية، استحقاق متأصل). هذه القيم مستقلة عن المنفعة المرجوة من العالم اللاإنساني لغايات إنسانية.

4- يتوافق ازدهار حياة البشر وثقافاتهم مع انخفاض التعداد السكاني. ويتطلب ازدهار الحياة غير البشرية تعداد سكاني أقل" (Sessions 1995: 68) تنسحب النقطة الثانية (4) على الدول النامية والمتقدمة علي حد سواء، والتي يستهلك سكانها [الدول المتقدمة] أكثر بكثير من استهلاك أمثالهم في دول أخرى. ويدعو علماء التبيؤ المتعمق لخفض –على المدى البعيد- للتعداد السكاني في كل أنحاء العالم. تتألف التركيبة الفتاكة من النمو السكاني المطّرد في الدول النامية، والذي يفضي إلى تفاقم المشاكل البيئية الملازمة للفقر، مثل: زيادة الوطأة على الأرض، وإزالة الغابات، مصحوباً بنمو اقتصادي سريع في الدول المتقدمة، والذي يفاقم بدوره المشاكل الملازمة للثروة، مثل: التخلص من النفايات المحلية وانبعاثات غاز الدفيئة.

يرى كثير من علماء التبيؤ المتعمق في النقطة الأولى مميزاً لموقفهم من الحركة البيئية، بينما تتخذ المناهج (الضحلة) طريقاً وسيلياً للطبيعة، داعين إلى المحافظة على المصادر الطبيعية لمصلحة البشرية فقط، في حين يطالب علم التبيؤ المتعمق اعترافاً بالقيمة المتأصلة للطبيعة. وبذلك يتم تحديد الفصل الازدواجي بين البشر وبين الطبيعة التي تروّج له الفلسفة الغربية وثقافتها أنّه أصل الأزمة البيئية، وتطالب بالعودة إلى تعريف فردي وأولي للبشر والمحيط البيئوي. ويعدُّ التحول من نظام يسيطر عليه البشر إلى نظام تسيطر عليه الطبيعة جوهر التشدد الذي يُعزى

لعلم التبيئو المتعمق. ووضع هذا النظام في مواجهة مع -تقريباً- التكامل الموجود في الفلسفة الغربية والدين:

"يمنى علم التبيؤ المتعمق بتشجيع اتجاه المساواة في جانب البشر، ليس فقط اتجاه كل أعضاء المحيط البيئوي، لكن اتجاه كل موجودات وأشكال المحيط البيئوي، التي يمكن تحديدها، لذلك يقصد بهذا الاتجاه أن يمتد -على سبيل المثال- لأشياء وأشكال، مثل: الأنهار، والمناظر الطبيعية، وحتى الأنواع والنظم الاجتماعية، التي تقدّر وفقاً لأهليتها هي، وليس اعتمادها على أشياء أخرى" (Sessions 1995: 270).

من المحتمل أن يفرّغ هذا الإنصاف الملحوظ علم التبيؤ المتعمق من أي محتوى جوهري: إذا وجدت القيمة في كل مكان انتفت من أي مكان، فتفقد ميزتها بوصفها قاعدة للتميز واتخاذ القرارات. فكون الشيء أو الشكل حي وذو إحساس، لا يؤهله أن يكون ذا قيمة جوهرية، بل -قد يبدو- أنها أي نوع لمنظومة مفيدة يمكن لشخص أن يدعي إيجادها بالتساوي في طائر واحد، أو نهر، أو جنس بأكمله، أو نظام بيئي مستقل، أو جماعة عرقية. ويمكن تعقب الجدل الكبير الدائر حول مفهوم القيمة الجوهرية في المجلة المؤثرة (الأخلاق البيئية EnVironmental Ethics) أو في أحد المصنفات العديدة المتوفرة (Elliot and Care. 1983. Cooper and Plamer 1992. Elliot. 1995).

أحد الاعتراضات الرئيسية المتكررة لعلم التبيؤ المتعمق هي: أن المركزية البيئوية تعادي البشرية، وهناك -في الحقيقة- بعض المناصرين من مثل: ديف فورمان (DaVe Foreman)، وكريستوفر مينز (Christopher Manes)، ممن أدلوا بعبارات قاسية وجاهله تجاه ضبط الزيادة السكانية، على سبيل المثال لا الحصر. ولكن بجوار هذا الجناح (المتشدد) هناك تيار (معتدل) يرى أن المركزية البيئوية، ما هي إلا (توجّه) يحتمل اختلافات واسعة من الآراء. فيوصي نايس (Naes) -مثلاً- أن نُعني الاحتياجات البشرية (الحيوية) أولوية على حساب أي شيء آخر، وبذلك يجنبنا الصراعات القاسية بين مصالح البشر، وبين مصالح النمور آكلة البشر، أو عصية الطاعون الدبلي. في الواقع، عندما يتعلق الأمر بالتفاصيل يعيد علماء التبيؤ المتعمق التأكيد على الأولويات المتعارف عليها، التي ينتقدونها عند البيئيين على الأقل: لأنهم يخشون خطر وصفهم بمعاداة البشرية إنْ لم يفعلوا ذلك. وإضافة إلى ذلك، يبدو محتملاً أن يحمل أي فرد مهتم توجهات بيئوية، وأخرى تميل إلى عدّ الإنسان مقصد الكون في أوقات وظروف متباينة. وفي الوقت ذاته لا بدّ من تمييز وجهتي النظر هذه عن فلسفة حقوق

الحيوان التي تدعو إلى التوسع في الجانب الأخلاقي الذي يصنف البشر ضمن ثدييات أرقى (انظر الفصل السابع).

انبثقت فكرة المركزية البيئوية، وقدمت تغذية راجعة لمجموعة من الأنظمة الاعتقادية المترابطة من الديانات الشرقية، مثل: الطاوية (Taoism)[1] والبوذية، ومن هراطقة مسيحيين من أمثال القديس فرانسيس من أسيسي (St. Francis of Assisi 1182-1286)، وتيلهارد دي تشاردون (Teilhard de Chardin 1881-1955)، ومن شروحات معاصرة لويكان (Wiccan) لما قبل المسيحية الهندوأمريكية، أو من الديانة الشامانية[2]، وديانات بدائية أخرى. إلى جانب هذا البعد الروحي القوي يقبع –بشكل مربك في أوقات معينة- علم التبيؤ العلمي الذي استمدت الحركة اسمها منه. وفي الواقع لم يكتب عالم بيئوي أياً من المقالات الموجودة في مصنف (الجلسات) الأساسي، وقد ظهر (علم التبيؤ) هناك -إذا ظهر أصلاً- بوصفه نشاطاً في الكواليس جديراً بالثناء، لا يستلزم نقاشاً مباشراً، ولكن يمكن استخدامه لاستمرار صلاحية (حدس) موجود. لاسيما عندما يصطدم الحدس بالعلم، فعادة ما يفوز الحدس، لذا فإن المحاولات المتسلحة بالعلم لإدارة النظام البيئوي -على سبيل المثال- ينظر إليها أنها جزءاً من (المشكلة). ويمكن اتهام علماء التبيؤ أنهم (معادين لعلم التبيؤ). ليس لأن مشاريعهم يمكن أن تولّد مصادفة ضرراً، ولكن لأن تنفيذ هذه المشاريع، ينمُّ عن أسلوب الإدارة، التي تنظر للإنسان أنه هدف الكون، والتي تتناقض مع الوعد الصادق ذي التركيز البيئوي للحقل العلمي. وفي الواقع، قد تبدو تطورات ما بعد الحداثة في علم التبيؤ عاملاً مقوّضاً لعلم التبيؤ المتعمق، إذا ما انكب عليها فقط. ويبدو (علم التبيؤ المتعمق) مسطحاً إذا لم يكن -في النهاية- مسائلاً بل مناقضاً لحقل العلم البيئوي الذي انبثق منه فعلاً.

المذهب النسوي البيئوي (ECOFEMINISM)

يَعدُّ علم التبيؤ المتعمق ازدواجية الفوقية البشرية (anthropocentric) -البشرية/ الطبيعة، أنها المصدر الرئيسي للمعتقدات والممارسات المعادية للتبيؤ، في حين يُلقي المذهب

1 الطاوية فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسي وتعدّ بالإضافة إلى الكونفوشيوسية والبوذية، أحد أديان الصين الثلاثة.

2 الشامانية: دين بدائي من أديان شمالي أسيا وأوروبا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف وأن هذا العالم لا يستجيب إلا للشامان الذي يستطيع معالجة المرضى وكشف المخبّأ والسيطرة على الأحداث.

النسوي البيئوي بالاثمة أيضا على ازدواجية الفوقية الذكورية (androcentric) الرجل/المرأة. وإنّ تمييز الأولى (البشر على الطبيعة) ينطلق من بعض الخواص المزعومة، مثل: امتلاك روح أبدية أو امتلاك العقل، ثم تفترض أن هذه الميزة تمنح البشر تفوقاً. أما الثانية فتميز الرجل عن المرأة وفقاً لبعض الخواص المزعومة، مثل: حجم دماغ أكبر، ثم تفترض أن هذه الميزة تمنح التفوق للرجل. وفّق المذهب النسوي البيئوي في إظهار أن هاتين الحجتين تتقاسمان (منطق الهيمنة) المشترك. (Warren 1994:129)، وتؤسسان لـ (نموذج غالب) وهو «أن المرأة ارتبطت دوماً بالطبيعة التي تتسم بالمادية، والعاطفية، والخصوصية، بينما ارتبط الرجل بالثقافة اللامادية، والعقلانية، والمجردة». (DaVion 1994:9). وأن هذا الربط يجب أن يفترض علة مشتركة بين دعاة المذهب النسوي وبين علماء التبيؤ.

إذا ارتبطت المرأة بالطبيعة -وكل صفة تزيد من تشويه مكانة المرأة أكثر من التي قبلها- يبدو جديراً أن يهاجَم هذا الترتيب الطبقي من خلال قلب المعطيات: تمجيد الطبيعة، واللاتعقل، والعاطفة، والجسد الإنساني أو اللاإنساني مقابل الثقافة، والرشد، والعقل. وقد تبنّى بعض دعاة المذهب النسوي البيئوي- لاسيما أولئك الذين يروّجون (لمذهب نسوي بيئوي متشدد)، وعبادة الإلهة- هذا المنهج. فقد أكدت -على سبيل المثال- شارون داوبياجو (Sharon Doubiago) أنّ "وعي علم التبيؤ هو وعي المرأة التقليدي، ولطالما فكرت المرأة مثل الجبال، لكي نلمح إلى نموذج آلدو ليو بولد (Aldo Liopold) في التفكير البيئوي. (لا شيء يشبه تجربة نمو بطن أحدهم كالجبل ليعلمك هذا)» (1989: 41، 42). وبالروح نفسها أسست شارلين سبريتناك (Charlene Spretnak) نوعاً من روحية النساء في أحياء الأنثى وتثاقفها وهذا (يتألف من حقائق النزعة الطبيعية، ونزعات النساء المقدسة، 9-1989:128).

إلا أن دعاة المذهب النسوي -كما ورد آنفاً- جادلوا كثيراً ضد قبول بعض (الماهية الأنثوية Feminine Essence)، بناء على النوع الجنسي الحيوي، موضحين بالمقابل، كيف يُبنى النوع البشري (gender) ثقافياً. ولأن هذا ينطبق على الماهية سواء أفسرت سلباً أم إيجاباً، يقدم لنا المذهب النسوي البيئوي المتشدد صورة عاكسة كالمرآة المفاهيم الأبوية (Patriarchal) للأنوثة في إطار محدَّد ومحدِّد. وأن تثمين الأنوثة بوصفها (أقرب للطبيعة)، بفضل أنثوية الأنثى الحيوية أو الخبرة الاجتماعية، يغفل حقيقة أن الفروقات النوعية البشرية كلها التي نعرفها، قد بُنيت في المجتمعات التسلطية الأبوية. وانتقد دعاة المذهب النسوي البيئوي مذهب الماهية[1] النسوية

1 مذهب الماهية: نظرية تقدم الماهية على الوجود، فهي بذلك نقيض الوجودية.

البيئوية المتشددة (Radical Ecofeminist Essentialism) من منظور فلسفي واجتماعي (Warren 1994. Biehl. 1991)، والذين ألمحوا إلى أنه: "ليس بوسع المنظور النسوي الحقيقي أن يمتق أي من المؤنث أو المذكر بلا نقد [لكنه] يتطلب نقداً لأدوار النوع البشري، ولا بد لهذا النقد أن يضم الذكورة، والأنوثة" (DaVion. 1994:9). ويبدو أن مثل هذا الاعتراض لاقى قبولاً لدى دعاة المذهب البيئوي النسوي.

إذا كان المذهب النسوي البيئوي عرضة للتشكيك وفقاً لأنثويته، فإنه على الأرجع عرضة للتشكيك أكثر وفقاً لعلم التبيؤ. وإنّ الرغبة في قلب إعطاء النظام الذكوري الأفضلية للعقل على العاطفة، أدى إلى خلق مضادية علمية (anti-scientism) مذهلة (مثال: Kheel 1989. Griffin. 1978). وقد طوَّعت ميري دالي (Mary Daly) في كتابها المبيض/ علم التبيؤ (Gyn/Ecology) بلاغة (خضراء) مبهمة في خدمة هجمة جامعة ومستدامة، وغير مشروطة. ضد (أسطورة عبادة فرج الرجل لغة) العلوم، خاصة العلوم الطبية. وعلى الرغم من ذلك فقط أظهر تحليل فال بلومود (Val Plumwoold) البارز أنّ مجرد التفريق بين الرجال والنساء، أو بين البشر والطبيعة، أو بين العقل والعاطفة، لا يخلق بذاته الفوقية الذكرية، أو الفوقية البشرية الإشكالية. بل على العكس من ذلك، فإنّ النموذج المؤسس للسلطوية التي تتشاركه أشكال القمع هذه، يرتكز إلى التفريق الاغترابي والتبعية المنكرة: لا يتميز البشر في الثقافة الأمريكية والأوروبية المهيمنة عن الطبيعة فقط، بل يعارضونها بطرق معينة تجعل البشر مفتربين كلياً عن الطبيعة ومتعالين عليها. وعادة ما تتضمن هذه القطبية، أو الانفصال المفرط (hyperseparation) إنكاراً للعلاقة الحقيقية بين مصطلحي الأعلى والأدنى (Plumwood. 1993:47-55). لذلك فقد بينت – على سبيل المثال- بلومود كيف طرح الفيلسوف ريني ديسكارتز (Rene Descartes 1596-1650) وصفاً مؤثراً للفرق بين العقل والجسد، اللذان تصارعا لإزالة كل الآثار العينية من النطاق العقلي للرشد. فقد اضطر إلى "إعادة تغيير فكرة (التفكير) (thinking) بطريقة ما، تضمن أن تصبح تلك النشاطات العقلية، التي تشرك الجسد، مثل: حاسة الإدراك، والتي تظهر أنها تردم الهوة بين العقل والجسد، وبين الإنسان والحيوان من خلال إعادة تفسيرهم وفقاً للوعي (Consciousness)، أنها عمليات عقلية محضة" (1993:115).

لقد أفرط ديسكارتز (Descartes) في الفصل بين العقل والجسد، ولم ينكر على الحيوانات ملكة العقل فقط، بل أنكر عليهم أية مشاعر أو أحاسيس مرتبطة بالعقل. ونتيجة لذلك فقد نظر إلى الحيوانات أنهم مختلفون جذرياً عن البشر وأدنى منهم. فهم أجساد بلا عقول مثل الآلات.

يُعدّ انتقاد بلومود لازدواجية العقل والطبيعة المبنية على أساس الجنس (gendered) من أهم مساهماته. فقد قدمتها [الازدواجية] "نموذجاً ضاماً، بالغ العمومية، ومتشابك"، لسلسلة من الازدواجيات المتغيرة عبر التاريخ، ويمكن أن توظف مثل هذه الوظيفة التحليلية العامة فرضية مفادها أن (العقل) كان أساس الإفراط في الفصل بين الرجال والنساء، وبين البشر والحيوانات، لذلك يمكن لهذه الازدواجية أن تحل محل المصطلحين المسيطران على حد سواء. وهي بذلك لا تدعو لرفض العقل أو العلم، بل تدعو لتأهيل الفلسفات التي تركز على إظهار العقل والطبيعة تضادياً: بينما تحكم (الموضوعية) العلمية على أي حديث عن قصدية الطبيعة أنه يؤسس لأنسنة غير علمية لها (الطبيمية). ونتيجة لذلك تدفع بلومود(Plumwood) باتجاه تحديد نقاط التشابه والاختلاف في سلسلة الإنسان/الطبيعة المتصلة. وبوسعنا أن نمضي في التمييز بين العقل والعاطفة، وبين الرجل والمرأة وبين الإنسان والحيوان، ولكن دون الاستحواذ العصابي للإرث الفلسفي السائد. وإنّ فعلنا ذلك فإن نموذج السيطرة الذي يشرعن الفوقية البشرية، والفوقية الذكورية سيتقوض. (انظر أيضاً: Plumwood، 2001).

يمكن للعقل -إذا أُنقذ من مثاليته التي تسبغه إياها فلسفة الفوقية الذكورية- أن يعترف ويحترم (الآخرين على الأرض) دون أن يجرحه الانسلاخ عن العقلانية المفرطة، أو التمثيل الروحي: "نحتاج أن نفهم الغيرية ونؤكد عليها وعلى مجتمعنا على هذه الأرض" (Plumwood، 1993: 137) ونتيجة لذلك يرفض هذا الموقف ازدواجية الخصب (الوفرة). التي تفضل الاقتصاد العقلاني على كل ما عداه. وأحادية المذهب النسوي البيئوي. وعلم التبيؤ المتعمق الساذج. حيث تتعرض القدرات المتفردة. وحاجيات السلالة البشرية. لخطر الانغماس في غلاف بيئوي غير مصنّف وغير سياسي. ولسوء الحظ. يمكن لهذه الازدواجية أن تؤدي إلى الموقف الذي تناصره كارولين ميرتشنت (Caroline Merchant) في مقالتها النقدية المؤثرة. والتاريخية للعلوم الحركية (Mechanistic Science) (موت الطبيعة) (The Death of Nature): وهي توصية منحازة -إلى حد ما- للعلوم (الكليّة Holistic) أو (الحيوية Vitalistic) [1] . التي ترتكز على أخلاقياتها. وليس على تفوقها الأسلوبي. أو النفعي (Pragmatic) على العلوم التقليدية (المختزلة). وبذلك تستمر نسختا علم التبيؤ الرئيسيتان في تقاذف مكانة العلوم فيما بينهما.

---

1 الحيوية (Vitalism): مذهب يتبنى الرأي القائل إن الظواهر الحيوية لها خواص أساسية لا مثيل لها في الظواهر الكيميائية والفيزيائية. فهي تنطوي على (قوة حيوية). مغايرة للقوة المادية.

يؤكد المذهب النسوي البيئوي على العدالة البيئية بدرجة أكبر من علم التبيؤ المتعمق. فمنطق السيطرة يظهر جلياً في التمييز والاضطهاد بناء على العرق، والجنس، والطبقة، إضافة إلى السلالة والنوع البشري (gender). في حين يشتمل كتاب مقتطفات عن (علم التبيؤ المتعمق) مقالات عن (ذكور بيض موتى) وضمها كتّاب مثل: د.هـ. لورنس (D.H. Lawrence)، وجون موير (John Muir)، وهنري ثورو (Henry Thoreau) يضم كتاب مقتطفات حديث (النقد الأدبي النسوي البيئوي (Ecofeminist Literary Criticism) وضمه جارد و ميرفي (Gaard and Murphy 1998) كتابات تناولت كتّابا من ألمانيا الشرقية وفرنسا، وأمريكيين أصليين، وأمريكيين من أصل مكسيكي، وكتّاباً آخرين. معظمهم نساء ولكن ليس كلهم. ويعتقد أن هذا التنوع قد انبثق من علم التبيؤ، كما تحاول ينيسترا كينج (Ynestra King) أن تثبت:

"يجب على النظام البيئوي السليم المتوازن أن يحتوي سكاناً بشراً وغير بشر. كي يحافظ على التنوع. ومن جهة نظر بيئوية، فإن التبسيط البيئي يدل على وجود مشكلة مثلما يفعل التلوث البيئي. يشبه التبسيط الأحيائي، أي مسح سلالات كاملة، اختزال البشر إلى عمال بلا وجوه، أو مجانسة الذوق والثقافة في الأسواق الاستهلاكية الضخمة. فالحياة الاجتماعية والطبيعية، يتم تبسيطها كلية إلى شكل غير عضوي [غير متماسك] لمصلحة مجتمع الأسواق. لذلك، لا بدّ لنا من حركة عالمية غير ممركزة تتأسس على المصالح المشتركة، وتحفل بالتنوع، وتناهض أشكال السيطرة والعنف كلها. ومن الممكن أن يكون المذهب النسوي البيئوي هو تلك الحركة" (1989:20).

من الممكن أن نشعر أنّ التنوع الأحيائي والثقافي كلاهما قيّمان، ولا بدّ من الدفاع عنهما دون قبول الحركة -التي اتُّخذتْ دون شرح مناسب- بين هذه المفاهيم المتباينة (للتنوع). فلم يتم إعطاء دليل على النظرة المشابهة لنظرة جارد (Gaard) وميرفي (Murphy) في أنّ "التنوع الثقافي ... هو بعدٌ واحد يعزز بقاء النوع البشري" (1998:6). هنا -كما في بعض الأعمال النقدية البيئوية- يتم الاستيلاء على مصطلحات العلوم البيئوية -ببساطة- لأهداف سياسية دون أي اعتراف بالتغير في الاستخدام أو كفاءة المعنى. إضافة إلى ذلك -كما يُظهر الفصل الثالث- فإن فكرة (التوازن balance) في النظم البيئوية، تعدّ من ناحية علمية جدلية كبيرة، فلم يعد علماء التبيؤ يؤكدون أنّ التنوع الأحيائي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالثبات.

يعمل المذهب النسوي البيئوي المتشدد بشكل واضح على بث روح تغيير أساليب الحياة في نفوس كثير من الناس. ولكن بوصفه فلسفة نقدية، فإنّ لا عقلانيتها، وماهيتها تحددانها بشكل

كبير. إلا أن هناك بعض النسويين البيئويين، مثل وارن (Warren) وبلومود (Plumwwod) يبدو أنهم يحملون أفكاراً فلسفية واجتماعية ذات مواقف أكثر عمقاً وأفقاً وصرامة، ويتضح ذلك من الأهمية المتنامية للتقدم الثقافي والأدبي النسوي البيئوي في حقل النقد البيئوي، وفي التحاليل المعقدة التي يمكن للنسويين البيئويين أن يقوموا بها عن المشاكل السكانية –مثلاً- التي تفوق قوتها الإرشادية، والتشخيصية تحاليل علماء التبيؤ المتعمق (الخام) (Cuomo، 1994). وقد قدّم النسويون البيئيون مواقف نقدية حادة عن العولمة، وحرية التجارة و(التطور الدولي) في مقالاتهم. التي ربطت مشروعهم بالمواقف المسيسة التي تلازم علم التبيؤ الاجتماعي، والماركسية البيئوية، وكذلك بعلم التبيؤ ذي النزعة الأخلاقية والروحية (ShiVa، 1989).

علم التبيؤ الاجتماعي والماركسية البيئوية

SOCIAL ECOLOGY AND ECO-MARXIST

على غرار المذهب النسوي البيئوي، فإن المواقف التي تناقش هنا لا تفترض أنّ سبب المشكلات البيئية، هو اتجاهات الفوقية البشرية فقط، ولكنها تفترض أيضاً أنها تنبثق من أنظمة السيطرة، واستغلال البشر للبشر. وبتركيز علماء التبيؤ الاجتماعي والماركسيين البيئويين على هذه العلاقات ضمن النوع الواحد، فإنهم يساهمون في ديمومة دعوى علماء التبيؤ المتعمق، المتمثلة في دعوى الفوقية البشرية، التي يجب أن تكون هدفاً لأية مقالة نقدية ترتكز إلى الأرض. وفي الوقت ذاته، يرثي علماء التبيؤ الاجتماعي والماركسيون البيئيون فردانية علماء التبيؤ المتعمق، ونزعتهم الباطنية (الصوفية) المتغلغلة فيهم. والتي –كما يدللون- تمثل تقهقراً عن الفكر العقلاني، وعن الانخراط السياسي الحقيقي، ويعدّ علم التنبؤ الاجتماعي والماركسية البيئوية نزعتان سياسيتان صريحتان، ولديهما أصولهما في الفكر المتشدد للقرن التاسع عشر، مثل: فوضوية (anarchism)[1] ميخائيل باكونين (Mikhail Bakunin) وبيوتر كروبوتكن (Pyoter Kropotkin 1824-1921)، وشيوعية كارل ماركس (Karl Marx، 1818-83) وفريدريك إنجلز (Friedrich Engels، 1820-95).

يشارك علم التبيؤ الاجتماعي والماركسية البيئوية الاقتصاديين البيئويين الخصبيين

1 مذهب يدعو إلى إلغاء الملكية والدولة والدين جميعاً، وأن يصبح العلم والعقل هما المعوّل عليهما في إرشاد الناس. مما يؤدي إلى تقويض كل أشكال السلطة، لاسيما الحكومية وإقامة مجتمع مرتكز على التعاون الطوعي بين الأفراد والجماعات.

(الوفريين) –الذين يعارضونهم سياسياً كلياً- الرؤية الثقافية ذاتها المتمثلة في أنّ فكرة (الحدود) (Limits) البيئوية، هي شكل من أشكال الغموض. فالخوف من تجاوز حد (Overshoot) إمكانات النظم الطبيعية في توفير المصادر واستيعاب المخلفات يُفيد علم التبيؤ المتعمق، والحركة البيئية على حد سواء، لكن هذا التحليل يزيد الطريقة التي تخلق من خلالها أنماط الإنتاج الرأسمالي إبهاماً، والتي تعتمد على مناورة حيوية العرض والطلب والندرة. وعلاوة على ذلك، تغير التقنية هذه الحيوية عن طريق خلق حاجات جديدة، ومن خلال عمليات الإنتاج والاستخلاص المتغيرة أيضاً، محدثة توازناً أو تفاقماً في الندرة. بعبارة أخرى، "الندرة (scarcity) ليست ببساطة حقيقة موضوعية عن العالم الطبيعي، لكنها أداة لإرادة ووسيلة رأس المال: الغايات التي توجه الإنتاج، والتقنيات التي تسّهله. ويدعو بعضهم إلى تغيير البنية السياسية للمجتمع بطريقة تؤدي إلى أن يحل الإنتاج الذي يتوافق مع الحاجيات الحقيقية محل الإنتاج الذي يقود لتراكم الثروات. وبذلك ستختفي مشكلة الحدود البيئوية، التي تنتج عن حاجة رأسمال البنيوية للنمو بشكل دائم. ومن الجدير ذكره، أنه على الرغم من أنّ هذه الفرضية تبدو مقنعة فيما يتعلق بالمصادر المعدنية، فإنها لا تبدو كذلك عند تطبيقها على مصادر لا يمكن استبدالها، أو مصادر مخفية اقتصادياً، مثل: الطبقات الصخرية التي تحوي الماء العذب والتنوع الأحيائي (Biodiversity).

كما يشارك علماء التبيؤ الاجتماعي –الذي يَعدُّ معظمهم الفيلسوف السياسي ميوري بوكشن (Murray Bookchin) أباً روحياً لهم –الماركسيين البيئويين نظرة متميزة لمكانة البشر والطبيعة. ويدّعون أنّ الأَحدية البيئوية المركزية التي يتشاطرها علماء التبيؤ المتعمق هي مخادعة: لأن - على الرغم من فرضية كون البشر (جزءا من الطبيعة) - فهناك كثير من الأشياء التي يفعلها البشر ما زالت تُصوَّر أنها (غير طبيعية)، وبذلك يعيد الماركسيون البيئيون تقديم الازدواجية التي يحاولون التغلب عليها. ومعارضة هذه الأحدية الخاطئة يعدّ منظوراً جدلياً يتخيّل نشوء وتطور الثقافة الإنسانية، أو تطور (الطبيعة الثانية) من (الطبيعة الأولى) في عملية مستمرة يعرّف الواحد فيها الآخر ويحّوله:

"ماركس ... ميّز أقدمية (priorness) الطبيعة (الخارجية)، أو (الأولى) والتي ولدت البشرية. ولكن البشر بعد ذلك عملوا على هذه الطبيعة (الأولى) لينتجوا طبيعة (ثانية): الإبداعات المادية للمجتمع، إضافة لدساتيرها، وأفكارها وقيمها، وكما أكّد بوكشن ... أن هذه العملية هي جزء من عملية نشوء طبيعية للمجتمع" (Pepper، 1993:108).

إذاً فالماركسيون البيئيون وعلماء التبيؤ الاجتماعي ليسوا أحاديين، ولا ازدواجيين. ومن أحد نتائج هذه النظرة: أن المشاكل البيئية لا يمكن فصلها تماماً عن أمور عادة ما تعرَّف أنها مشاكل اجتماعية، مثل: السكن الوضيع، أو نقص الماء النظيف. وتمنح هذه النظرة هذه المواقف صلة واضحة مع حركات العدالة البيئية التي تقف ضد الربط الشائع بين الانحطاط البيئي الحاد والتلوث وبين الفقر.

وبموازاة الفكر الماركسي التقليدي، يدلل الماركسيون البيئيون على وجود صراع بنيوي بين العمال وأصحاب وسائل الإنتاج، حيث حصد أرباب العمل فائض القيمة التي ينتجها عمال البوليتاريا. وهذا الاستغلال الموضوعي يقع في صميم أشكال الاستغلال والظلم الأخرى، كما يدلل بيبر (Papper): "سيكون المجتمع الشيوعي الحقيقي الذي سيخلف مرحلة الثورة مجتمعاً بلا طبقات، وعندما تتحقق الدولة سوف تتدثر أشكال التمزق البيئي كلها، والاستغلال الاقتصادي، والحرب، وسلطة الحاكم المطلقة، لأنه لم يعد هناك حاجة لها" (1993: 8-207) وفي مقابل هذه الرؤيا لاقتصاد منظم يرتكز على الحاجة لا الجشع، يروّج علم التبيؤ الاجتماعي لمجتمع غير متمركز، يخلو من أية انتماءات طبقية مستمدة بوضوح من الإرث السياسي الفوضوي:

"الكوميّون[1] (Commune) هو الوحدة الأساسية، لمجتمع صغير مترابط جداً، مبني على الحب والصداقة، والقيم المشتركة، والالتزام تجاه الحياة العامة ... وسيشكل الكوميّون مؤسسات تعاونية في كل مناحي الحياة الاجتماعية مثل: جمعيات منفعة متبادلة للعناية بالطفل والتعليم، وللإنتاج والتوزيع، وللإبداع الثقافي، وللعب واللهو، وللتأمل والتجديد الروحي. ولن يرتكز التنظيم على متطلبات القوة، بل على تحقيق ذاتية الأشخاص بوصفهم كائنات اجتماعية حرة" (Clark, 1990: 9).

إذا حدد الماركسيون البيئيون صراع الطبقات أنه القضية السياسية المركزية، فإنّ علماء التبيؤ الاجتماعي يعارضون علاقات القوة، والطبقية التي تسبب البؤس لأنواع المجتمعات كلها، سواء أكانت هذه العلاقات والطبقية رأسمالية، أم اشتراكية مركزية ممنهجة. وعوضاً عن ثورة العمال، يروّج علماء التبيؤ الاجتماعي لأساليب حياة مثالية، ومجتمعات تكتشف مسبقاً تحول اجتماعي أكثر عمومية، وتمنح الناس تمريناً في حياة مستدامة، وديمقراطية تشاركية.

تظهر الماركسية البيئوية حالياً قوة هامشية في السياسات الخضراء للدول الغنية - رغم أنّ دورها في حركات العدالة البيئية في العالم الثالث قد يكون أكثر أهمية. ومع ذلك، فإنها تعاني من

---

1 الكوميون: أصغر وحدات التقسيم الإدارية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا.

ربطها بالرعب البيئي الذي خلّفه الاتحاد السوفياتي السابق، ودول أوروبا الشرقية التابعة له. من ناحية أخرى، يبدو أن علم التبيؤ الاجتماعي، والفوضوية –بشمولية أوسع- يشهدان انبعاثاً جديداً في الحركات المناهضة للعولمة، والحركات الإقليمية الحيوية. وللفوضوية أفضلية في عدم حاجتها لثورة عمالية (Proletariat) مضللة لتحقيق وجودها، كما أنها عرضة بشكل واضح لطيف من الحركات المناهضة للثقافة. ومع ذلك، فالماركسيون محقون في التأكيد على القوة المتخللة؛ والوصول إلى رأسمال عالمي، وعدم جدوى الأفعال الثورية التي يقوم بها الأفراد، أو الجماعات الصغيرة ضعيفة الانتماء ضد حفنة من رموز القوة، وليس ضد أي من بناها الرئيسية. رغم هذه الاختلافات، سوف يسمى حاملو هذين الموقفين (بعلماء التبيؤ الاجتماعي) (Social Ecologist).

الفلسفة البيئوية الهيدجرية (HEIDEGGERIAN ECOPHILSOPHY)

على الرغم من أهمية فلسفة مارتن هيدجر (Martin Heidegger، 1889-1976) الهامشية للفكر السياسي الأخضر، فقد ألهمت هذه الفلسفة عدداً من النقاد البيئويين. لا شكّ أنها تستعصي على المبتدئين، إلا أن بعض النقاد يعدّون فكر هيدجر إحدى أعمق المقالات النقدية للحداثة الصناعية؛ لأنه يعكس ورعاً مثالياً قبل أن تقع الأرض في القبضة الوحشية الهدامة لمشروع سيادة العالم المنكر للموت الذي عُلّمنا أن ندعوه تقدم (Progress) (انظر: Flotz 1995، Garrad، 1998، Zimmremand 1990، and 1933).

إن نقطة بداية هيدجر تتمحور حول الفرق الجوهري بين الوجود المادي المحض، وبين وعي الكينونة (being) والكشف عنها، أو شيئية الأشياء (thingness of things). أي أن (تكون) ليس فقط، أن توجد، لكن أن تظهر (show up)، أو تكون ظاهراً للعيان (disclosed)، وهذا يتطلب وعياً إنسانياً مثل الفضاء أو التصفية (lichtung). في وخلال الفضاء الذي يظهر فيه: في القاع، لا يكون العادي عادياً، إنه استثنائي (Heidegger 1993: 179). عوداً على بدء، فإنّ مشكلة الازدواجية لم يتم معالجتها بقدر ما تمّ إزاحتها، أو تغيير مكانها؛ لأن الكينونة تظهر فقط من خلال هذه التصفية [تصفية المواقف من الازدواجية]، أو بالمقابل يحتمل أن يتحقق الوجود الإنساني من خلال السماح للكينونات أن توجد في فضاء الوعي الإنساني. للتصفية وما سيلوح بالأفق، هناك حاجة متبادلة، لأن الأرض الملجأ توفر الأشياء التي يؤسس بها الإنسان العالم "الحجر بلا عالم، كذلك الحيوانات والنباتات، ولكنهم ينتمون إلى حشد سري لمحيط يتصلون به. والفلاحة –من جهة ثانية- لها عالم؛ لأنها تسكن في علانية الكينونات"، (P. 170).

إنّ العلاقة بين الوجود والتصفية، أو الأرض والعالم، ليست علاقة سطحية. ورغم ذلك، فإنّ الاستجابة والتناغم ربما تكون أكثر أو أقل مسؤولية والكينونات يمكن أن تكون أو لا تكون. (ليكون) (let be)، بمعنى (يكون ظاهراً للعيان، أو يظهر، أو يبزغ). لذلك فعلى البشر المسؤولين واجب خفي (غير علني) يتمثل في أن يدعوا الأشياء تُظهر أنفسها بطريقتها التي لا تحاكى، وليس إجبارهم على معاني وهويات تناسب قيم الناس الوسائلية. وأحد الصيغ الحاسمة للسماح أن يكون أو إظهار الكينونة دون معوقات، هو الشعر: اللغة، لاسيما اللغة الشعرية القديمة، غير المباشرة، المفهومة بشكل صحيح، التي تظهر لنا فعل الإظهار ذاته، أي: أن تساعد الظهور نفسه كي يظهر. ومن ناحية أخرى نبذ هيدجر الدردشات اليومية؛ لأنها تظهر اللغة والكينونات على حد سواء أدوات محضة (مجردة) لإرادتنا. فالكلمات التي تطرح بعد استخدامها تتوافق مع عالم الأشياء التي تطرح بعد استعمالها. بل الأسوأ من ذلك، أنه يمكن للأشياء أن تظهر بوصفها مجرد مصادر تحضر عند حاجتنا لاستدعائها. لذلك فقد تظهر غابة تنبض بالحياة على أنها مجرد (احتياطي جاهز) للأخشاب (كن جاهزاً) (Bestand). فلم تعد أشجاراً، بل أخشاباً في الانتظار فقط. ونهر الراين العظيم يمكن أن يظهر للعيان مجرد مصدر للطاقة المائية الكهربائية. ورغم ذلك، فإذا تأملنا الكلمة الشعرية فإننا سنكتشف أنّ "اللغة بيت الكينونة الذي يوجد به الإنسان ساكناً له" (Heidegger 1993:237). أما دعاوى هيدجر أن جوهر الكينونات –استقلالهم ومقاومتهم لغاياتنا- فيظهر للعيان عن طريق لغة مقاومة مشابهة. من خلال الشعر –إذاً- نتعلم أن "الإنسان ليس سيد الكينونات، ولكنه راعي الكينونة" (P.245). ونتعلم مقاومة الوسائلية أو القولبة (Ge-Stell) أو المشكلة التي تظهر الكينونات دائماً وفقاً لاصطلاحاتها الضيقة المختزلة. فنسعى لتناغم حاجة الكينونات الملقاة علينا: لإظهارهم دون شروط، ونتعلم، أي: أن ندع الكائنات تكون.

شكراً للدور المحوري الذي أناطه هيدجر بالفن فيما سماه (إنقاذ الأرض)، لذلك تحظى فلسفة هيدجر بانجذاب النقاد البيئويين لها، إلا أن كثيراً من الفلاسفة يدللون أن كتابات هيدجر مضادة للعقلانية بشكل خبيث وسام، إضافة إلى صعوبة قراءتها المغيضة. إضافة إلى ذلك، فقد كان هيدجر نازياً متحمساً خلال الفترة من 1945-1934، معتقداً أن بوسع هتلر قيادة ألمانيا نحو إنقاذ العالم. ويعتقد بعض الفلاسفة أن هذا لم يُلقِ أية ظلال على فكره، إلا أنّ آخرين يرون انسجاماً عميقاً بين فلسفته ومواقفه السياسية. ويزيد الأمر تعقيداً أن بعض المؤرخين ادعوا أنّ النازية المبكرة ضمّت عناصر لدعاة بيئيين. وسوف يُنظر في مكانة هيدجر في النقد البيئوي تفصيلاً في الفصل السابع.

الفصل الثالث

الرعوية[1]

PASTORAL

منذ الردود التي ساقتها الحركة الشعرية الرومانسية على الثورة الصناعية، عملت الرعوية بشكل حاسم على تشكيل رؤانا للطبيعة. فمن المحتمل أن يكون علم التبيؤ قد تشكل بفعل الرعوية في مرحلتها التطورية المبكرة. وقد رأينا أن النص المؤسس للنقد البيئوي -(الربيع الصامت)- قد ارتكز على الرعوية. فما من مجاز آخر تخندق بهذا العمق في الثقافة الغربية، أو شكل إشكالية عميقة للحركة البيئية مثل مجاز الرؤية. فمن خلال جذورها الممتدة في عمق الحقبة الكلاسيكية، أبدت الرعوية مرونة لا متناهية لغايات سياسية متباينة. مع احتمالية أن تكون مؤذيةً في مقاصدها ومراوغاتها، ومع ذلك، فتاريخها الطويل وحضورها الثقافي الطاغي يعني أن الرعوية يجب أن تكون وستبقى الهمّ الأساسي للنقاد البيئويين.

ما هي هذه (الرعوية)، وما أهميتها للحركة البيئة؟ يميّز تيري جيفورد (Terry Gifford) بين ثلاثة أشكالٍ للرعوية: التراث الأدبي تحديداً، والذي يتضمن انسحاباً من المدينة إلى الريف، وقد نشأ في الإسكندرية القديمة، ومن ثم أضحى نمطاً شعرياً مفتاحياً في أوروبا خلال عصر النهضة (Renaissance)؛ وبشكل أعم، "هو أي أدب يصف الريف

1 الرعوية هي نوع من الآثار الأدبية انتشر في أوروبا منذ أوائل القرن السادس عشر، وهو مستوحى من الشعر الرعوي القديم الذي كان يكتبه ثيوكوتيس باليونانية، وفرجيل باللاتينية. (انظر: مجدي وهبه. معجم مصطلحات الأدب. بيروت، مكتبة لبنان. 1974).

عن طريق تباينه بشكل مضمر وعلني عن المدينة" (1999:2). والمعنى الازدرائي، الذي توحي الرعوية من خلاله بمثالية الحياة الريفية التي تحجب حقائق الجهد والمشقة. سوف يستكشف هذا الفصل هذه التجليات الثلاثة للمجاز.

أول الأنواع التي وصفها جيفورد والتي سأسميها "الرعوية الكلاسيكية (Classical Pastoral). قد تحتمل- في رأيي- والتي قد تشتمل كل الأدب الرعوي حتى القرن الثامن عشر. وقد سبقت الرعوية إدراك وجود أزمة عامة في علم التبيؤ الإنساني بآلاف السنين، إلا أنها توفر مجموعة الاصطلاحات الأدبية الموجودة مسبقاً والفرضيات الثقافية التي تحولت بشكل جذري لتوفر طريقة للأوروبيين والأمريكيين -الأوروبيين لبناء مناظرهم الطبيعية. تحتل مفارقة جيفورد بين المدينة والقرية المقدمة في الأدب الرومانسي الرعوي، في وقت جعل التمدن الشامل هذه المفارقات وثيقة الصلة مع عدد أكبر من الناس عن ذي قبل. حيث وفر الانتشار اللاحق للشعر الرومانسي اللغة، والصور، وحتى الأماكن، للتعميم التالي للرعوية في أشكال ثقافية متشعبة مثل الرواية، والتلفاز أو المواد الدعائية لمنظمات الحماية. فمثلاً يمكن أن تطرح الإعلانات الحديثة لخبز القمح الكامل التي تصور حقول الحبوب بأناشيد الرعوية، والمتمايلة تحت أشعة الشمس، ويقطنها مزارعون متوردو البشرة، وتدعمها أنغام الموسيقى الكلاسيكية. أما النوع الثالث الذي طرحه جيفورد -المعنى الازدرائي للكلمة الذي ظهر بشكل خاص في المقالات النقدية الماركسية للحركة الرومانسية- والذي هيأ أرضية جيدة لمبيانة هذا التراث الذي يحفل به النقد الثقافي مع النقد البيئوي. ويدعي بعض النقاد البيئويين -على سبيل المثال- أن الحس البيئي الناشئ للأثر الرعوي الرومانسي يقدم نوعاً من التشدد لم يعرفه النقاد السياسيون الذين يؤمنون بفوقية البشر. تعتمد الاشتقاقات المستمدة من النموذج الرومانسي على السياقات التي تطورت فيها، وقد اختطت الرعوية الأمريكية مساراً منحنياً مستقلاً استجابة لتاريخها البيئي والاجتماعي الذي يختلف كثيراً عن التاريخ البريطاني. وسأناقش في نهاية الفصل كيف روّج "علم التبيؤ الرعوي" أفكاراً عن انسجام الطبيعة الحتمي الذي ما زال سائداً في الخطاب البيئي حتى يومنا هذا.

الرعوية الكلاسيكية Classical Pastoral

ظهرت الرعوية الكلاسيكية جنساً أدبياً من شعر الحقبة الهلّينية (Hellenistic Period). حيث ارتبطت الأهازيج الرعوية للشاعر الإسكندري ثيوقريطس (316؟260-[ق.م]) والمراجعات التي تلتها -إضافة إلى المقالات النقدية والترجمات التي تولدت عنها- على الدوام

بثلاثة مصطلحات: الأهزوجة الرعوية (idyll) والتي كانت بالأصل صورة صغيرة أو وصف شعري موجز وثم تحوّلت لتعني الوضع الممثّل في الهروب إلى الريف أو الراحة الأبدية نفسها. أما المصطلح الثاني فهو القصيدة الرعوية (bucolic) والمشتقة من (boukolos) وتعني راعي البقر، وهو اسم لأحد المغنين النمطيين للأهازيج الرعوية. وأخيراً الرعوية (pastoral) هو مصطلح لاتيني ينطبق بأثر رجعي على أعمال ثيوقريطس. والفضل يعود للرعاة (الراعي اللاتيني Latin Pastor) الذين انخرطوا في مسابقات غنائية مع رعاة البقر والماعز الآخرين في ذلك المكان. يتلازم نشوء أغاني القصائد الرعوية تلازماً وثيقاً مع ظاهرة التمدن الكبيرة التي شهدتها الفترة الهيلينية. وهناك فرقان مهمان من هذه الفترة اخترقت الإرث الرعوي: الفرق المكاني بين المدينة (شديدة الاهتياج والفاسدة، وغير الشخصية) والقرية (آمنة، وافرة) والفرق المؤقت للماضي (الأهزوجي الرعوي)، والحاضر (الهابط).

في الحقيقة تبدو كثير من أهازيج ثيوقريطس الرعوية مماسّه للمنحنى المتأخر للشعر الرعوي، إلا أن قليلاً منها لم يفلح في رفدنا بتأثيرات أولية. من البدء تستخدم الرعوية الطبيعة مكاناً أو انعكاساً لما فيه رزق البشر، وليس دعم الاهتمام بالطبيعة في ذاتها ولذاتها. والمدهش ربما- إذا ما سلمنا أن (الرعوية) و(الأهزوجة الرعوية) قد اكتسبا نفس المعاني الموحية بالمثالية. أن الأهازيج الرعوية ضمت كل من العمل الشاق والسخرية الفظة على حد سواء. تطرقت الأهزوجة الخامسة للشذوذ الجنسي بين الإنسان والحيوان واشتهاء الجنس المتغاير والمثلي، بينما عارض ميلتون سيد الحصاد (Reapmaster Milton) في الأهزوجة العاشرة أغنية باوكايوس (Boucaeus) عن الحرمان من الحبيب، ببعض أبيات أكثر نفعية، وضعها بنفسه: "دع الحصّاد يستيقظوا مع القبّرة الناهضة، ويستريحوا بالدفء، ولا يغادروا حتى حلول الظلام (1978:100) وفي الوقت ذاته، تأتي البهجة والكثير من الحصاد الوافر من خلال الأهزوجة السابقة بفورية غالبة. ولقد أظهر وصف كريس فيتر (Chris Fitter) التاريخي الرائع لجماليات (المنظر الطبيعي) (كذا) (Landskip) كيف جمع ثيوقريطس بين الإشارات الأدبية المتعلّمة والملاحظة الدقيقة:

"على مدى فترة العصور القديمة (antiquity)، لم تفلح المناظر الطبيعية من تحاشي حالة المشهد المسرحي (Scaena)، والستارة الخلفية المفصّلة. إلا أنه مع ثيوقريطس اكتسبت الحالة زخماً أكبر، وذلك بولادة (شعر المكان) (Poetry of Place). استعارت أهزوجة وطن الحصاد (الأهزوجة السابعة)، الصورة البلاغية لتصنيف الطيور bird-catalogue من

كالبسو (Calypso) هوميروس، وغناء القبرة من الأجمة وهي مأخوذة مباشرة من هوميروس أيضاً: أما النزوع الطبيعي المواظب -وضع علامات بدقة على طول مسافة الثماني كيلومترات الموصلة لمزرعة فريسيديمس (Phrasidimus)- والتاريخ الطبيعي الصحيح (القبرة النادرة ذات العرف الضريحي، وبقية الطيور التي أشير لها، والتي يبدو أنها كانت تقطن كوز (Cos) على الدوام)، فقد ضمّنت الصيغة الفردوسية في العالم المألوف المرتب عن قرب». (1-40:1991). لذلك فالأهازيج الرعوية قدمت لنا أول مثال على حنكة الشعر المتمدّن، و"النزوح للطبيعة" الذي تعارضه تقليدياً.

ألمح فيرجل (70-19 ق.م، Virgil) مراراً إلى ثيوقريطس في زجله الرعوي (Eclogues)، ولكن بجوانب معينة يعد منهجه أكثر انتظاماً ووعياً لذاته، حيث دمج به متباينة موجهةً بين الانسحاب للريف، والأذى الذي يحلق بالمدينة. إضافة إلى ذلك -وفي مواضع عديدة- يشير فيرجل إلى المشاكل البيئية المرتبطة بالحضارة الرومانية، وقد حمل بعض المؤرخين البيئيين هذه المشاكل المسؤولية عن أفول هذه الحضارة (Hughes، 1996a). هناك شبه إجماع أن أحد أهم هذه العوامل هو إزالة الغابات deforestation. وينّوه راعي فيرجل -مينالكوس- (Menalcas) أنه "من أجل السرور حتى الجبال التي لم يجز شجرها [intonsi] تقذف أصواتها بقوة/ تجاه النجوم" (1984:65). عادة ما تقترح الرعوية أن الطبيعة تستجيب لعواطف البشر، وهذا خيال شعري يسمى "التشخيص" (Pathetic Fallacy) لأنه يضع خطأ الشعور (pathos) في -قل-، الجبال، والأشجار؛ وفي هذا المقام، يعتبر خط مينالكوس نمطياً إلى حد معتدل. ورغم ذلك، فإنه يستدعي اهتمامنا إلى حالة جوانب تلال المتوسط (المجزوزة الأشجار) في زمنه. يمكن عقد مقارنة مع الملاحظات في كتاب أفلاطون (1920:75) (Critias) عن حالة جوانب تلال أتيكا Attica. فيتجلى الارتباط بين إزالة الغابات، وانجراف التربة، وقلة الخصوبة بشكل صريح. يمكن تتبع هذه العملية حتى بلاد سومر (Sumeria)، أقدم حضارة في المنطقة، والتي تركت لنا ملحمة جلجامش (Epic of Gilgamesh)، أقدم عمل أدبي معروف. وقد درس كثير من المؤرخين والنقاد البيئويين هذا العمل، وكما ينوّه هاريسون Harrison: "ما يثير اهتمامانا بالملحمة أكثر من غيره هو حقيقة أن أول خصم لجلجامش هو الغابة" (Harrison، 1999:14؛ قارن Hugles، 1996a; Oelschlager، 1991; Westlingl 1996; Fitter، 1996).

تتجلى أهمية عمل فيرجل بوضوح بوصفه سلفاً للشعر الرعوي اللاحق، ومن الجدير أيضاً

دراسة أهميته لعملين سابقين رئيسيين للنقد البيئوي -عُني كلاهما بالتراث الرعوي- أولهما عمل ليوماركس (Leo Marx). (الآلة في الحديقة) (The Machine in the Garden). (نشر للمرة الأولى عام 1964)، وهو تحليل للأثر الرعوي في الأدب الأمريكي. لم يشر هذا النص المفتاحي إلى علم التبيؤ أو الحركة البيئية مباشرة. ولكنه ناقشها بارتباط واضح مع إشكالية مكانة التقنية المتزايدة في المناظر الطبيعية الأمريكية. وقدم فيرجل طرازاً أصيلاً مهماً في قصيدته الزجلية الأولى:

"محظوظ أنت أيها الإنسان السيد. فستبقى اليابسة ملكاً لك. رحبة بما يكفيك، وبالرغم من الصخور الصلدة والمستنقعات التي تغطي فوراتها الطينية كل الكلأ. فلن تجرب نعجاتك الولادة طعاماً لم تعتده من قبل، ولن تؤذيهم عدوى من قطيع مجاور" (1984:33).

وفقاً لماركس، هذا هو (المنظر الطبيعي المتوسط) والذي أخيراً شكّل الأنموذج الأمريكي المثالي: "هذا الكلأ المثالي له حدّان ضعيفان: الأول يفصله عن روما والآخر يفصله عن السبخات المستمرة في التعدّي. إنه مكان يُجنّب به تيتروس (Tityrus) الحرمان والقلق المصاحب للمدينة والبرية (1964:22).

سنعود لدعوى ماركس لاحقاً، وفقاً للنقد البيئوي البريطاني. فقد ترك عمل ريموند ويليامز (Raymond Williams) الريف والمدينة (The Country and the City) (صدرت الطبعة الأولى عام 1973م) أثراً بالغاً في كلاً من القراءات الماركسية للأثر الرعوي وردود النقد البيئوي التي جاءت مؤخراً لتقيّد أو تنقض هذه القراءات. أحد أهم تبصيرات ويليامز أن الرعوية وُسِمت دائماً بصفة الحنين إلى الماضي. فكلما نظرنا في تاريخه رأينا (سلماً متحركاً) يأخذنا للخلف بعيداً إلى الماضي الأفضل. في الوقت ذاته. يدلل ويليامز أن «ما ظهر أنه سلماً متحركاً واحدا، وارتداداً سرمدياً نحو التاريخ. انقلب -بعد التفكير- إلى حركة معقدة بشكل أكبر: فبريطانيا القديمة، والمستعمَرَة. والفضائل الريفية. كلها -في الواقع- تشير إلى أشياء مختلفة في أوقات مختلفة، وقد شملت المساءلة فضائل أخرى» (1993:12) إضافة إلى المرثية والأهزوجة عند فيرجل، يمكن أن نجد لحظة نبوئية في قصيدة الزجل الرعوية الرابعة التي تقترح احتمالات مثالية:

«ستعود المعزات التي بلا راعي بدِرَر ممتلئة
بالحليب، ولن تفزع الماشية من قوة الأسد.
مهدك عينه سوف يصب من الآن وصاعداً زهوراً مهدهِدة» (1984:57)

يدلل ولهامز أن هذا «يتضمن في احتفاليته وعياً للحاضر المختلف ذاته الذي يعدُّ العودة للوضع السابق انعتاقاً» (1993:18). فالرعوية -إذاً-، يجب أن لا تكون على الدوام توقاً للماضي، ولكن يمكن أن تكون مثاليةً أو ناسيةً للواقع لفترة سابقة لتاريخها. عرَّف ليو ماركس ووليباز هذه الاحتمالية الآخذة في التقدم، وربطاها فيما بعد بنشوء السياسة البيئية (انظر Williams, 1989).

يمكننا أن نعِّين ثلاثة توجهات للرعوية وفقاً للزمن: المرثاة (elegy) التي تحنُّ للماضي المندثر بحس الحنين للوطن: والأهزوجة الرعوية idyll التي تحتفل بالحاضر المليء بالنعم، والمثالية utopia، التي تتطلع إلى مستقبل مخلِّص. ما أن تخطط على هذا النحو، حتى تتجلي لنا العلاقة بين الرعوية والمفهوم اليهودي-المسيحي للزمن بشكل واضح. فقصة هبوط الإنسان -سفر التكوين، الإصحاح الثالث- هي بالضرورة مرثاة لفقدان النعمة الرعوية والبراءة.

في الفردوس المفقود لميلتون (Milton) - وهي شرح لمواد إنجيلية- تتأثر جنة عدن (Eden) الرعوية بالنماذج الإغريقية-الرومانية. حيث يتقاسم هبوط الإنسان المزاج الرثائي المشترك: "أيتها النوبة القلبية غير المتوقعة، التي هي أسوء من الموت!/هل يجب أن أرحل عنك يا فردوس؟" (XI.268-9). وفي الوقت نفسه، تقدم سلسلة المواثيق بين الله والإنسان إمكانية النعيم الحاضر، مثل ما وعد الله، بعد الطوفان، باستمرارية الطبيعة كجزء من ميثاق مجدَّد. يجب أن يدرس هذا إلى جانب دعوى لين وايت جر. (Lynn White Jr.) -المبنية بشكل أساسي على سفر التكوين- أن المسيحية -في تباين مطلق- عن الوثنية القديمة والديانات الأسيوية (باستثناء -ربما- الزردشتية) لم تؤسس فقط لازدواجية الإنسان والطبيعة، ولكنها أصرَّت أن مشيئة الله تتمثَّل في أن يستغل الإنسان الطبيعة لغاياته الخاصة، وقد استنتج أنه "سوف يستمر تعرُّضنا لأزمة بيئوية أسوأ حتى نرفض المسلَّمة المسيحية أن ليس للطبيعة مبرر في الوجود ما عدا خدمة الإنسان (1996:10،14). وسنتناول هذه الدعاوى في فصول لاحقة.

كما يقول ويليامز، تتباين المعاني والقيم المستوحاة من المرثاة والأهزوجة الرعوية وفقاً للسياق التاريخي التي توجد فيه، إلا أننا -رغم ذلك- يمكن أن نحدد نزعةً واضحةً للآثار الرعوية الإنجليزية الكلاسيكية التي تأثرت بثيوقرايطس من أجل تقديم رؤية للحياة الريفية خالية تماماً من عمليات الجهد والنمو الطبيعي التي تؤسس لإرباك متواصل لعلم التبيؤ الإنساني. نلحظ في عمل ويليامز -وأعمال نقاد لاحقين مثل جون بارل وجون بول (John Barrel and John Bull،1982) نشوء مفهوم جيفورد (للرعوية) مصطلحاً ازدرائياً لوصف مراوغ كذوب

للحياة الريفية. فقراءة بيت الشعر الذي يناقشانه يجعل من الصعب الجدال حول ذلك، لأنه -مع استثناءات قليلة- يخذل مدعاتين للاستحواذ: الاهتمام في أعراف الشعر الرعوي ذاتها، و- بقدر كبير من الاهتمام بالمصلحة الشخصية وأحياناً تملقاً مذلاً أيضاً- الاحتفال بملكية الأراضي أو بالريف المُنتج المنظم بشكل عام. يمتدح عمل توماس كاريو (Thomas Carew) (إلى ساكسهام) (To Saxham, 1640) عطايا السيِّد إلى حد متطرف يجعل حتى الحيوانات تأتي للذبح مبتهجةً، كما في بعض جِنان الجزّار:

"طائر التَدرُّج، والحجل والقبرة

يطيرون لبيتك، كأنما ذاهبون لفُلك نوح

الثور الراغب، يعود من تلقاء نفسه للبيت للذبح، مع الحَمَل

وكل بهيمة تحضر بنفسها، لتكون قرباناً

والقطيع المحرشف، سيستمتع، إذا

استحم في طبقك، أكثر من الجدول" (Barrell and Bull, 1982, 173)

يتعمق هذا الغلو الواضح بمبالغة أكثر بالإشارة إلى سفينة نوح: بعد الطوفان، تقرّب نوح بقربان طائر محروق راجياً من الله أن يبطل اللعنة النازلة على زراعة آدم للأرض. هنا، لا يمثل ساكسهام الفلك فقط، لكن القربان يقدّم لمالكها وليس لله. يبدو أن قاعدته النفعية تمثل عناية علمانية لا تحتاج كثيراً لمساندة إلهية. هذه الخدمة الوفرية لحيوانات تضحي بأنفسها هي من جهة قطعة من النفاق الصافي التي تنكر حقائق كلاً من الجهد الريفي ومعاناة الحيوانات. ومن جهة ثانية -على الرغم من ذلك- يمثل كيريو (Carew) المسافة الحقيقية بين سيده والأشياء التي تمده بأسباب الحياة، ذلك أن يقدّم الثور نفسه قرباناً هو جل ما يعلمه السيد. ومن زاوية أخرى أيضاً، فإن الخدعة تافهة لدرجة أن النص يظهر على أنه تعليق بارع على المثالية الرعوية. وقد أصبح الشعر الرعوي في القرن التالي لـ (إلى ساكسهام) أكثر انهماكاً في الشؤون الذاتية -ولن أناقش هذا هنا- لكن ويليامز، وهالبيرن (Haplerin) وجيفورد، وألبرز (Aplers (1996) قد قاموا بعروض مسحية مفيدة.

كانت الرعوية الكلاسيكية ميالةً -بعد ذلك- إلى تشويه وإرباك التاريخ الاجتماعي والبيئي، بينما توفر -في الوقت نفسه- مكانةً -شرعها التراث-، لمشاعر الفقد والاغتراب عن الطبيعة التي ستنتجها الثورة الصناعية.

الرعوية الرومنسية: ووردزورث مقابل كلير

ROMANTIC PASTORAL: WORDSWORTH VERSUS CLARE

بالنسبة لوليامز، فقد جلب التفاعل بين الرومانسية والثورة الصناعية تحولاً حاسماً في علاقات الخيال بين المدينة والريف. فهو يحدد معنى جديد للتداخل العاطفي للعقل الإنساني المبدع والطبيعة المبدعة التي هو جزء منها، والذي يبدو أنه منفصل عنها انفصالاً غريب الأطوار مؤلم. (127: 1993). وفقاً لكيث توماس Keith Thomos، خلال بداية الحقبة الحديثة والقرن الثامن عشر:

"فقد نشأت اتجاهات في العالم الطبيعي بشكل تدريجي لم تتوافق بالضرورة مع الاتجاه الذي كان يسلكه المجتمع الإنجليزي. فازدياد السكان في المدينة خلق توقاً للريف، وتقدم الزراعة قوّى اشتهاء الأعشاب، والجبال، والطبيعة غير الخاضعة. فالحراسة التي تأسست حديثاً ضد الحيوانات البرية قد ولّدت اكتراثاً لحماية الطيور وحماية المخلوقات البرية في الطبيعة. فالاستقلال الاقتصادي عن قوة الحيوانات، والانعزال المدني عن تربيتها، قد غذى اتجاهات عاطفية كانت صعبة -إن لم تكن مستحيلة- على التصالح مع استغلال الحيوانات التي يعتاش عليه معظم الناس". (301 :1984).

الرعوية -التي هي جزء من التحول الطويل الذي تتبّعه توماس- قد تدرَّجت في الحقبة الرومانسية من منطق بسيط للتعويض عن التقدم إلى حد احتمالية مواجهته.

لم ينتج عمل وليامز بذاته مفهوم جيفورد الازدرائي للرعوية، لكنه شكل قوة دافعة لسلسلة متتابعة من النقاد الذين حددوا أشكالاً متنوعة ومواضع للإرباك الرعوي الذي يعرض له بطريقة لاذعة جداً. لقد جُمعت العديد من الأمثلة المهمة في كتاب مقتطفات عن نقد وردزورث، والذي مثّل المناهج التي شرع النقاد البيئويون ابتداءً في إثبات خطأها (J. Williams 1993). فمثلاً، يدلل روجر سيلز (Roger Sales) في (مايكل، قصيدة رعوية) أن تصوير الصعوبات التي يعانيها الراعي مايكل وزوجته دون إشارة محددة للمسؤول عن هذه الصعوبات، أو تشخيص اجتماعي-سياسي مفصّل، سيثمر مثالاً صارخاً لما يمكن أن نسميه (عمل أدبي رعوي ساقط). فهو يشبه قصيدة وردزورث لـ (أولاد الدعاية) الساخر مستخدماً صوراً لامرأة المزارع المبتهجة، بالعمل على مغزلها العجلي القديم». لتبيعنا «جوارب قديمة الموضة، ومحاكة يدوياً» ثم يسأل ما الذي يحاول وردزوورث نشره في قصيدة (مايكل)؟،

(1993:97-98). أما الجواب لهذا السؤال البلاغي هو: رؤية انسجامية للاستقلال الريفي والثبات الذي يخفي عالماً قاسياً يباع الناس فيه ويشترون في أسواق التشغيل. فيبقى الامتلاك الإقطاعي العرفي (لرجال ولاية) أرض الإرهاق (Cumberland) من مثل مايكل في حالة عبودية إقطاعية للارستقراطيين المحليين الذين هم بالمقابل يتمتعون بالخبرة نفسها في أشكال الاستغلال الرأسمالية المبنية على الأجور. أما دليل سيلز الرئيس- بغض النظر عن الشكوى من أن قصيدة وردزورث ليست بحثاً اقتصادياً- هو أن الأشياء تصيب مايكل أو بيئته دون أن يتجلّى المسؤول عنها بوضوح:

"الكوخ الذي يدعى نجمة المساء
قد رحل، مرّت شفرة الحراث بالأرض
التي كان يقبع عليها؛ تغييرات كبيرة طالت
المنطقة المجاورة برمتها، إلا أن شجرة البلوط قد تُركت
تلك التي نمت بجانب بابهم، وبقايا
زريبة الغنم غير الكاملة يمكن أن تُرى
جانب غدير السمكة خضراء الرأس الهادرة" (Wordswoth, 1969:110)

يريدنا سيلز أن نسأل عمَّن أدار المحراث، وعمل التغيرات، ومن أجل ماذا؟ بعزوه "التغيير" لقوى غامضة، أو لـ (غرباء)- لا شك أنهم من (المدينة الفاسقة)- يتعمد وردزورث أن يغض الطرف عن الاستغلال الذي يجري على محبوبته أرض البحيرة.

من المدهش في مقالة سيلز غياب أي اعتبار جدي سواء لتناغم مايكل العميق مع بيئته الطبيعية أو لإعجاب الشاعر بصموده الضروري. اشتغل الاعتبار الثاني كتوبيخ في بداية القصيدة وكمذكر لأهمية (قلب الإنسان والحياة الإنسانية). إضافة (إلى قوة الطبيعة). يعدُ نقد سيلز خاطئاً، كما يمكن أن نرى من تفصيل الشاعر لحساسية مايكل للطقس، والتي اكتسبها بالممارسة:

"لقد تعلّم معاني الرياح أكملها،
الهبات وكل النغمات، ومرات عديدة
حين لا يلقى الآخرون بالاً، يسمع ريح الجنوب
تعزف موسيقى خفية، مثل صوت
عازفي القِرَب على التلال العالية البعيدة،

الراعي، عند هذا التحذير، بقطيعه
يفكر، ويقول لنفسه
(الرياح تقرر الآن عملاً لي!)" (Wordsworh, 1969: 104)

هذا أكثر من أن يكون مادة أدبية رعوية هابطة مصاغة ببراعة. فالتشبيه الذي جمع الريح والقرية مع بعضها في (موسيقى خفية) يقدم لحناً جهيراً للآلة والريح الهوجاء بحيوية لم تتخيلها دراسة سيلز. إضافة لذلك، فمقدرة الراعي في أن يتلمس التحذير من (المعنى) الذي يستنبطه من (موسيقي) الطقس تقدّم استجابة معقدة بقدر ما هي ضرورية لبقاء قطيعه.

بهذا النوع من الاعتراض روّج جوناثان بيت (Jonathan Bate) في كتابه علم التبيؤ الرومانسي (Romantic Ecology, 1991) لعودة إلى الاعتقاد الذي ساد في القرن التاسع عشر من أن وردزورث هو (شاعر الطبيعة)، رافضاً الارتكاسة التي دعت سيلز لربط (الطبيعة) بالغموض السياسي. بدأ بيت مع نهاية الشيوعية السوفيتية، مؤكداً على المشاكل البيئية الهائلة التي ساهمت في زوال الشيوعية مقترحاً -في هذا العهد الجديد- أنه لم يعد من المجدي بقاء النماذج السياسية القديمة التي ترتكز إلى فكرة اليسار ضد اليمين. لهذه النقطة الابتدائية وظيفتان. أولاً، أنها تؤسس لاهتمام بالطبيعة ليس -كما افترض النقاد الماركسيون باستثناء ويليامز- ملاذاً من السياسة، ولكن بوصفه شكلاً محتملاً للانخراط السياسي. ثانياً، أنها تقترح، أنه في حين برز النقاد والمؤرخون الماركسيون في كتب المقتطفات التي تتناول قراءات متشددة لوردزورث، ظهر هؤلاء النقاد والمؤرخون بدور هامشي في السياسة الحديثة، وربما بدور رجعي فيما يخص علم السياسة البيئي الآخذ في التقدم. بينما يرى النقاد الماركسيون الاهتمام في الطبيعة تشويشاً وتضليلاً "للواقع" الذي يعرّفونه وفقاً لمعطيات اجتماعية-اقتصادية، يشير النقاد البيئويون إلى أن الاقتصاد يرتكز كلياً على علم التبيؤ -لذلك- يعدُّ المذهب الماركسي جدلياً هو من يضلل الواقع برفضه الإصغاء للإنتاجية الأولية للطبيعة.

يدلل بيت أنّ شعر وردزورث يمكن أن يشكل استهلالاً للوعد المثالي وتأبيناً رثائياً على حد سواء، مثل (مايكل). بالنسبة للشاعر -والقرّاء المثقفين والمغتربين والمدنيين بشكل أساسي- فإن ارتباط مايكل غير المصرح به وغير الواعي مع الأرض يجب أن يُستقصى استقصاءً واعياً، وقد تحقق هذا -وفقاً لبيت- في (قصائد عن تسمية الأماكن)، (Poems on the Naming of Places) في نهاية (القصائد الغنائية) (Lyrical Ballads). لقد أفصح عن فهم وردزورث لمعنى أن تكون في (البيت) في مقاطعة البحيرة في هذه القصائد، منتجةً (شعراً بيئوياً حقيقياً).

كلمة (علم التبيؤ) (ecology) مستمدة أساساً من اليونانية (Oikos) وتعني منزل و(logos) وتعني دراسة. ما أنتجه وردزورث هنا هو دراسة المنزل، البيت. لقد عاد الإنسان إلى الطبيعة وقد اتخذ المكان شكل الكلية، الوحدة الكاملة (Bate 1991:103). وبالأهمية ذاتها، يؤكد بيت -كما يقترح عنوان الكتاب الثامن من (المقدمة) (The Prelude): "أن حب الطبيعة [يفضي] إلى محبة الإنسان"، وليس معاداة الطبيعة، كما كان يدعي النقاد الماركسيون عادةً-: إنّ رؤية وردزورث (لمقاطعة البحيرة) أنها جنة تشغيلية للجمهورية الريفية. إضافة إلى ذلك، أدّى تأييده المتقد- بعد انقضاء مدة طويلة من موته- إلى تشييد المتنزه القومي هناك.

ومع ذلك، فدعواه (لقداسة بيئوية) يحتاج إلى كثير من التعديل. يمكن لمحاولة بيت في استخدام السياسية الخضراء لإنقاذ قراءة معينة لوردزورث أن يشكك بجدواها على مستوى سياسي ونقد بيئوي. فهناك اختلافات بيّنة في طيف الحركة البيئة الواسع التي تتعلق بمتصلة اليسار-اليمين المعهودة، وحتى لو لم تُختزل هذه الفروقات ببساطة على هذه المتصلة، وعلى أي حال يبدو جلياً أن حماسة وردزورث «للطبيعة» لا ترتبط بالهم البيئوي المعاصر. فوردزورث -بالمجمل- معني بشكل أكبر بعلاقة الطبيعة بالعقل البشري أكثر من اهتمامه في الطبيعة وللطبيعة ذاتها. فأقصى ما في (مايكل) -على سبيل المثال- يُعنى بالروابط الأسرية والمواطف المحلية للأبطال الروائيين البشريين؛ فقد كرّس وردزورث وقتاً قصيراً جداً لوصف الطبيعة، وكرَس جلَ وقته لمدح استجاباته واستجابات أناس آخرين لها. يثني بيت (Bate) في كتابه الرئيسي الثاني. (أغنية الأرض) (The Song of the Earth. 2000) على هذا الطرح، ولكنه يظهر فضيلة وليس رذيلة: في الانعكاس الملتف لـ (أبيات كتبت على بعد أميال من أبرشية تينترن)، حيث يتقوّض الفصل بين الذات البشرية الملاحِظة، وبين الأشياء الطبيعية الملاحَظة على نحو ممنهج، مما يؤدي إلى "ذوبان النفس من حالة العين الواعية إلى كائن حي متصل بيئوياً (Bate. 2000:145). يمكن أن نلحظ معنى أكثر حدية للتباين بين القراءة البيئوية والقراءات الأخرى إذا قارنا قراءة بيت لهذه القصيدة بقراءات منافسة ذات قوة معينة، مثل مقالة جون بارل (استخدامات دورثي) (The Uses of Dorothy) (J. Williams. 1993)، وقراءة مارجوري ليفنسون (Marjorie LeVinson) في (قصائد وردزورث في الحقبة العظيمة) (Wordworth>s Great Period Poems. 1986).

إضافة لذلك، فإن الطبيعة التي يثبتها وردزورث ليست هي ذات الطبيعة التي يحاول البيئيون أن يحموها. فلم تتعرض الطبيعة الرومانسية للخطر الحقيقي، ويمكن بوضعها العادي

أن تفتقر إلى التنوع الأحيائي –بالأحرى- إنها تُعشق لأجل رحابتها. وجمالها وصمودها بتسليطها الضوء على المناظر الطبيعية السامية -خاصة الجبلية منها- يمكن أن تكون رومانسية وردزورث قد حولتها من أن تكون أماكن ذات أهمية بيئوية تتعرض لضغوط قاسية. ولكنها ليست "منظرانية فاتنة"، مثل المستنقعات، والأوحال والسبخات. في الواقع، كما يبين رود جبليت (Rod Giblett) في (الأراضي الرطبة ما بعد الحداثة (Postmodern Wetlands، 1996). فطالما نظر للمستنقعات نظرة مليئة بالخوف وليس الإعجاب في الثقافة الغربية. يتوجب ملؤها أو تجفيفها إن أمكن. على المستوى العملي، فعملية التجفيف من أجل الزراعة أو التنقيب عن الخث[1] قد خفضت هذه الأراضي الرطبة لدرجة أنه لم يعد هناك إلا أعداد قليلة لم تمس. في عمل الشاعر الإيرلندي سيمس هيني (Seamus Heaney)، يبدو أن المستنقع قد حظي على الأقل بشاعر يتحدث باسمه. ولكن ربما تكون أكثر التغيرات كارثية في الريف البريطاني التي طالت المناظر الطبيعية الزراعية العادية في المراعي، ومروج التبن، والحقول المخصصة للزراعة، كما وُصفت في (قتل الريف) (The Killing of the Countryside (1997)) لجراهم هارفي (Graham HarVey). هذه المناظر الطبيعية المبتذلة (العادية) -حيث تتصادف أو تتصادم القيم الاقتصادية والبيئوية على نطاق واسع وبعواقب عظمية- يبدو أنها تدنّت إلى رتبة أقل وفقاً للمعيار الجمالي لوردزورث إلى مجرد كونها منطقة جميلة فقط، وبذلك تفتقر إلى الصفات التي تفضي إلى الجمال والخوف. يمكن أن يشكل المنظر الطبيعي القاحل نسبياً لمنطقة البحيرة إلهاماً وتعليماً، خلافاً للأراضي الرطبة الفنية القائمة بذاتها ولكن المتنوعة أحيائياً.

بالمقارنة مع وردزورث، فإن جون كلير (John Clare، 1793-1864) لديه دعوى أقوى بكثير كي يحمل لقب شاعر الطبيعة عن جدارة. فقد صرح جون ميدلتون موري (John Middleton Murry)، إن شدة ولهه بالريف الذي عايشه لم يُعرف له نظير في الأدب الإنجليزي؛ وقد بدى له بالكاد استعارة أن يقول إنه كان جزءاً حقيقياً من الريف (Coupe، 2000:42). بقوله هذا، كان موري يوظف تمييزاً طرحه ابتداءً فريدريك شيلر (Friedrich Schiller 1759-1805) في مقالته: (عن الشعر الساذج والعاطفي [أو التأملي]، وهي نموذج لنظرية النقد البيئوي. يدلل شيلر أن القدماء كانوا مغتربين كثيراً عن الطبيعة لدرجة أنهم تعاملوا معها بوصفها امتداداً للعالم البشري- المليء بالصراعات المماثلة، والحب والغيرة. لقد كتبوا بفضول ساذج وبهجة لم تفرّق يوماً بين (مشاهد وشخوص الطبيعة).

---

1 نسيج نباتي نصف متفحم يتكون بتحليل النباتات تحللاً جزئياً في الماء ويتخذ وقوداً.

وبين (وصف لصدرية الجندي الواقية، أو الترس، أو الدرع، أو أي أداة محلية، أو أي شيء آلي) (Shciller, 1985:189). كونه على شاكلة الراعي مايكل –منغمساً في الطبيعة- فلم يحتج الشاعر البسيط إلى أن يحتفل أو يرثي الطبيعة بشكل خاص، ولكن بالنسبة للشاعر العصري (العاطفي)، فيجب أن تتلون مفاهيمه عن الطبيعة بصبغة السخرية (irony) أو الندم (regret): «إحساسنا بالطبيعة يشبه إحساس العليل للصحة» (P.190). فارتباطنا بالطبيعة بعلاقة اغترابية أو "انعكاسية" يعدُّ حالة غامضة، لأننا نحظى من خلالها بالحرية والرؤية التي فقدناها بفعل المباشرة والشعور المباشرين. - إضافة إلى ذلك- في حين أنه يمكن للشاعر البسيط أن يغدو أو أن يضطر لأن يصبح انعكاسي، فالمنحنى الانعكاسي يمكن أن يكون مجرد تصنع. عندما يدعي شيلر أن "الشعراء إما أن يكونوا على سجيتهم الطبيعية، أو أن يبحثوا عن الطبيعة المفقودة (P.190)، فهو يظهر بذلك مقدار ما يدين به النقد البيئوي للرومانسية: يمكن إعادة تعريف حالة الشاعر البسيط على أنها حالة الفوقية الأحيائية، بينما يمكن أن يُنظر إلى كل التوترات التي يمكن أن تلازم حالة الفوقية البشرية أنها مشاعر حنين عاطفية مميِّزة. تعدُّ دعوى شيلر بمثابة (مشاعر جياشة للأصالة) ذلك أنه يقترح أن علاقة القدماء بالطبيعة كانت أكثر أصالة، لأنها كانت فطرية، وغير اغترابية وغير معلنة. ما زال الكثير من النقاد البيئويين الذين يشايعون بشكل غير معلن ازدواجية شيلر، ويسعون إلى شعر بسيط حتى في الوقت الذي يرثون به استحالته.

استمر النقاد بالنظر إلى شعر كلير (Clare) أنه "بسيط" إلا أن كل واحد منهم قيّم هذا بطريقة مختلفة. والسبب الرئيسي في هذا هو تميُّز صوته الشعري:

(مرج أيمونسيلز في الشتاء) (EMMONALILS HEATH IN WINTER)

أعشق رؤية أجمة المروج القديمة الذابلة

تمزج أوراقها المتجعدة مع الوزّال[1] والخلنج[2]

بينما مالك الحزين العجوز القادم من البحيرة المهجورة

يبدأ ببطء رفرفة جناحه الحزين

والغراب المنعزل يتأرجح بحركات بليدة

على أعلى أملود لشجرة الدردار نصف المتعفن

بجانب جذعها يضطجع غجري

---

1 الوزّال أو الرتم: نبات صحراوي كثير التفرع عديم الأوراق له زهر أصفر وثماره قرنية بها بذور تشبه العدس.

2 نبات ذو أهداب مرتفعة، يكثر في الأراضي المهملة.

في الأعلى تطير دجاجة الأرض السمينة عن الجسر
حيث يهتز مستنقع أسود تحت وطأة المشي
يزقزق طائر السمنة في الشوك الصفيري
ويجول الحقل والحقلة بحثاً عن الزعرور البري
وتطوف العصفورات الخجلة ذات الذيول الطويلة عشرين مرة
وتمر كالبرق من الوشيع في السهل المتجمد
وتتعلق على أغصانٍ صغيرة وتبدأ من جديد (Clare 1986:136)

تطبع هذه النسخة قصيدة كلير في قالبها البسيط الخالي من أية علامة ترقيم، وتوحي بخصوصية متفردة في الإملاء (brig) (جسر) بدلاً من (bridge)، حيث تحوي في الغالب تركيبات خاطئة نحوياً، وتعج بمفردات دارجة لهجوية مثل oddling (منعزل)، أو bumbarrel (عصفورة ذات ذيل طويل، وawe (زعرور بري)، وclosen (حلقة صغيرة)، ومع ذلك يمكن لنا أن نلحظ أنّ هذه سوناته، تذكرنا أنه ليس "الشاعر الفلاح" البسيط قليل الثقافة والعلم التي يمكن أن توحي به أبياتها الشعرية غير المرتبة، ونقاده الأوائل. في الواقع أنه ماهر في صنعة البراءة إضافة لمرفته -المبنية على عمله الزراعي ودراسته للتاريخ الطبيعي- في محيطه الطبيعي غير المتوازن مع الشعر الإنجليزي. لذلك، فالطاقة التواقة للعصافير، التي تمشط الوشائع (السياجات الشجرية) في طاقة حيوية ودقيقة. يمكن لنا أن نلحظ أيضاً الحضور غير المتطفل للغجري، هذا الحضور غير الساحر وغير الشيطاني، إنما هو مجرد حضور في هذا المنظر الطبيعي المقزز، والمجمّد، وغير الرومانسي. ونهاية، يمكن أن نلحظ كيف ابتدأ الشاعر قصيدته بحب يخلو من العاطفة لمكانٍ يعامله المحسنون الزراعيون على أنه فضاء خالٍ، وبرّي أو شموص، حب يتمّمه الحنق في قصائد من مثل (القفار) (The Mores)، و(حجر المعونة) (Helpstone) و(إلى شجرة الدردار الساقطة) (To a Fallen Elm) على تدمير هذه المناظر الطبيعية المعروفة. ويدلل ريموند ويليامز (Raymond Williams) أنه:

"يتفق كلير مع كثير من أفكار (الحركة الخضراء) الحديثة، وهو اسم يمكن أن يكون قد أشعره بالرضا، فهو مثلهم، يؤكد على أن الإنسان لا يملك الأرض وليس مخولاً أن يفعل بها ما يشاء. بل يجب أن يعاملها كوصي مسؤول عن رعايتها، وذلك من أجله ومن أجل الأنواع الأخرى (الأرانب، أشجار، الدردار، الماشية) والتي تمتلك أيضاً حقاً في الوجود". (Clare 1986:212)

في ضوء الفصل الأول الذي تم فيه مباينة نهج الفوقية البيئوية، ونهج الفوقية البشرية،

تبدو دعوى ويليامز مضطربة. فبلاغة "الوصاية" تنتمي للمنهج الضحل، أو البيئي، الذي تنتمي إليه مناشدة المصلحة الذاتية الإنسانية -ومع ذلك، في وسط هذا- هناك التماسه أكثر تشدداً إلى (حقوق) الطبيعة. على سبيل المثال، (مرثاة بئر سوردي) (The Lament of Swordy Well) التي تخرج من باطنها صوت ليس إنساني تحديداً:

"مع أنني لست إنساناً إلا أن أي خطأ
لا بد أن يبحث عن أي نوع للصح
وسأُسَر إذا أي أغنية
أعطتني مجالاً لأتكلم" (Clare 1986: 94)

هنا لا بد أن نتخيل مكاناً حقيقياً -بئر سوردي- يتكلم: في مكان آخر نسمع (مرثاة مياه البلوط الدائري) (Lamentation of Round-Oak Waters). والتي يتساءل بها كلير في (أغنية الأرض) (The Song of the Earth):

"هل يجب أنْ يُفهم صوت مياه البلوط الدائري فقط على أنه استعارة، أو تصويراً شعرياً تقليدياً للأماكن العبقرية، أو، استخداماً مفرطاً للتشخيص؟ أو هل يمكن أن نعي أنه يمكن لجدول أن يتكلم حقاً، وأن قطعة من الأرض يمكن أن تحس بالألم حقاً؟" (Bate, 2000:165)

تُلقي هذه الأسئلة بشيء من التأنق البياني، ذلك أن بيت يعي بوضوح الأجوبة التشككية التي صاغها معظم القراء.

تبنينا للنهج الهيديجري -المشار إليه آنفاً- يشكل أحد طرائق مراوغة إشكالية الصوت الشعري ما بعد الرومانسي والذي هو بالضرورة إنساني و"انعكاسي" إلا أنه منفتح ببساطة تقريباً "للآخر" الطبيعي بالطريقة ذاتها التي ينتهجها كلير دائماً و وردزورث أحياناً. في حين ادعى تراث (عاشق-الطبيعة) الذي خلفه نقد كلير أنه نطق كلمة (logos) تعبيراً عن بيتنا الطبيعي (oikos)، وجدت بعض الأعمال النقدية المتأخرة في شعره تحقيقاً لمتطلبات فكرة هيدجر في أنه يجب علينا أن "ندع الكينونات تكون" بدقة في اللغة ومن خلالها. وهذا يعكس الصيغة المعتادة بشكل غير معلن، حيث يدلل روبرت بوج هاريسون (Robert Pogue Harrison) أن "الكلمة [اللغة] هي التي تفتح مسكن البشر [oikos]، على الأرض" (200: 1992). مقدماً شكلاً من الخلاف مع التأكيد الاعتيادي للنقد البيئوي على الطرائق التي تحيل بها اللغة إلى العالم، حيث يقول هاريسون أننا نسكن ليس على الأرض ولكن في اللغة.

على الرغم من عدم الإشارة إلى الفيلسوف إلا في الملاحظات النهائية فقط، كانت (الغابات) (Forests) بشكل ثابت هيدجرية. وقد ظهر أن كتاب هاريسون شكلّ عاملاً حاسماً في تحويل بيت من الإنسانية الخضراء لعلم التبيؤ الرومانسي إلى جدلية هيدجر وأندورنو (Andorno) التي تعزف عبر صفحات (أغنية الأرض) The Song of the Earth. في قصائد كلير الرائعة الغزيرة عن أعشاش الطيور، يجد بيت «تجريداً للأشجار» (Lichtung) حيث يُسمع –شعرياً– لهذه الأشياء الهشة بأن "تكون". هنا يفكر كلير بحسم إلى الأمام أكثر من زملائه الرومانسيين؛ في وضع اجتماعي وعقلي هش، كان قادراً أن "يفكر بالهشاشة" بقدر أقل من الاضطرابات والارتباكات التي كانت لم تلمّ بالآخرين بفعل "الطبيعة" المجردة.

الحديث عن مفهوم كلير للهشاشة هو نوع من المقاومة السياسية التي ما زالت تتملص من التصنيف البسيط. ويرى ويليامزفي كلير في أنه رجل بيئي مع بعض النزعات اليسارية، فبيت بوصفه بيئوياً متعمقاً يتحدث باسم طبيعة غير مطوّقة، إلا أنه لا يقدم دليلاً مباشراً على إن إغلاق الأرض المشاع –الذي احتج عليه كلير– له آثاراً بيئوية مدمرة. في الواقع، يمكن أن يكون الإغلاق مفيداً بوضعه حداً لإفراط هذا النمو السكاني المطرد في استغلال المشاعات. أنها بالتأكيد تواصل عملية التعقل الاقتصادي الذي عمل بشكل مستمر على تحويل العالم الطبيعي إلى "احتياطي جاهز"، وهي ذات العملية التي أراد كلير أن يقاومها. هناك يأس في بعض كتابات كلير؛ عادة ما يلقى صدى في الكتابات البيئية الحديثة، حيث ينعكس غضبه اليائس العرضي (انظر: Bate 2000: 172) في نشاط غير مهادن تقوم به الحركات المتشددة مثل منظمة (راعي البقر). رغم ذلك، يبدو أن هذا يحدث تماماً في النقطة التي ذهبت فيها الرعوية أبعد من المواجهة الصدامية للجهد الريفي، إلى اتحاد مع الطبيعة غير الإنسانية التي لم تعد مريحة، ووافرة، وجميلة، ومعلمّة، وصامدة. بمجرد أن تقترب من كونها "بيئوية"، وتجيب على جُلّ الاعتراضات التي أُشهرت آنفاً، ستبدأ الرعوية الرومانسية بالظهور بزي غير رومانسي وشكل ما بعد الرعوي. بالطبع، يذهب الشعر الرعوي والظاهرة الأكثر عمومية أبعد من هذا، إلا أن الرعوية نزعت في النماذج الشعرية والشعبية على حد سواء إلى العمل في الثقافة البريطانية بطرق مضللة بيئوياً، إلى درجة حققت الحركات البيئية فيها النجاح– وذلك نتيجة لامتزاجها مع المنظر الطبيعي الرومانسي المثالي في نظر الملاحظات العلمية التي– بمعنى ضيق– ليست جمالية إطلاقاً. إن البناء الجمالي الذي– كما في الرعوية الإنجليزية– يمكن أن يكون جيداً بالمقدار الذي يحض الرجال أن يذهبوا ويقاتلوا في خنادق الحرب العالمية الأولى بدعوى أنهم ينقذون مواطن حيوانات مهددة، يجدر أن

يَتعاطى معه النقاد البيئويون بعناية شديدة. ويمكن أن يتحول ليكون مذعناً في يومنا هذا للترويج للمنتجات (الريفية) فقط، كما انحدرت الرعوية الرومانسية المعقدة المتنازعة خلال عقدين إلى وضعية شعار عام للأعمال الأدبية الرعوية الهابطة.

الرعوية الأمريكية AMERICAN PASTORAL

على الرغم من هيمنة النماذج البريطانية الرومانسية على بدايات الأدب الأنجلو -أمريكي، إلا أن الرعوية تحتفظ بمكانة مختلفة في الأدب، والنقد، والثقافة الأمريكية. كلا الاختلافات والتماثلات تعدُ منوِّرة: ففي حين ركز النقد البريطاني على وردزورث في بداياته دراساته، حدد النقد الأمريكي هنري ديفيد ثورو (Henry David Thoreau) شخصية مفتاحية له. وكما أعاد جوناثان بيت (Jonathan Bate) افتتاح قضية الرعوية كما طرحها -بتميّز- ريموند ويليامز (Raymond Williams)، كذلك استجوب لورنس بويل (Lawrence Buell) مكانة الطبيعة في النصوص المعيارية (canon) الأمريكية التي شكلتها جزئياً أعمال ليوماركس (Leo Marx) النقد- بيئوية الريادية. ومع ذلك. اضطر النقاد البيؤيون الأمريكون أن يواجهوا التحدي الماركسي، بينما ردت القراءات الأمريكية للرعوية على المقالات النقدية التي كتبها بشكل رئيسي نقاد نسويين ونقاد متعددوا الثقافة. ولم يكن الإقرار بنظام اجتماعي ظالم- الذي حُدِّد بارستقراطية مالكي الأراضي- هو من يقدم حافة ازدرائية (للرعوية) للأمريكيين. بل مماثلتها مع العنف الاستعماري الذكوري الموجه ضد النساء، والحيوانات والنباتات المحلية والأرض. ضمنت اختلافات كبيرة على مستوى التاريخ والسمات السطحية المكانية معانٍ مميزّة للرعوية على جانبي الأطلنطي.

بقيت الرعوية هامة للنقد البيئوي الأمريكي الموجه نحو إعادة تقييم كتابات الطبيعة غير الخيالية، ذلك أنها استمرت في تزويد البنية السردية العميقة التي يغادر بها البطل المدينة لمواجهة مع طبيعة غير إنسانية، ثم يعود صاحب خبرةً عند الظهور والتجدد. إضافة إلى ذلك، تظهر النماذج الرعوية الأكثر محلية في الأدب والثقافة الأمريكية مؤكدة على الزراعة، وهي ايدولوجيا سياسية ارتبطت بتوماس جيفرسون الذي روّج لفكرة مواطنين مالكين للأراضي الزراعية كوسيلة لضمان ديمقراطية صحية. كما يقترح الفصل السادس، تؤكد الكتابات الأمريكية عن الريف على علاقة عملية وليست جمالية مع الأرض.وفي الوقت ذاته، فقد شُذِبت نسخ الرعوية الرومانسية السامية لتوافق عالم جديد يمكن تميزه مسكون بالبرية.

ومع ذلك فقد نشأت فهذه الفروقات حديثاً. ففي حين يرى النقد البيئوي المعاصر- المدفوع بسياسة حماة الطبيعة- البرية أنها الغاية القصوى للرعوية الأمريكية، يدلل ليو ماركس أنها تقصد «منظراً طبيعياً وسطاً- كلاسيكي محدث- بين المدنية وبين البرية الحقيقية. هنا يمكن للأدب الأمريكي – الذي نشأ في القرن التاسع عشر وسط الثورة الصناعية الشاملة- أن يحاول أن يتوسط بين القيم المتنافسة' «التناقض بين الأسطورة الريفية والحقيقة التقنية». (354: 1964). حيث يركز ماركس على اللحظات التي تقطع بها الآلة الرمزية أو الحقيقية السلام الرعوي، تماماً مثلما اعتدت السكة الحديدية على انسحاب ثورو في (وولدن) (Walden).

«تخترق صافرة القطر صيف غابتي وشتاءها، صوته يشبه صراخ نسرٍ يحلق فوق بعض ساحة المزارع، يخبرني أن كثيراً من تجار المدينة الخالية من الراحة سيصلون إلى محيط البلدة، أو عن وصول تجار ريفين مغامرين من الجانب الآخر». (Thoreau، 1992: 91)

عندما يعبر قطار الماشية، يعلق ثورو مشمئزاً، «هكذا حياتكم البرية تسير في دوامة متجاوزة ومتجه بعيداً». (p.97) ويمكن لاستعارة الاختراق الآنفة أن تعبر عن رفضه لمثل هذا العزو. فهذه الإقامة المؤقتة في بحيرة (وولدن) قد صُمِّمت بدقة لتفسح المجال لإعادة تقييم الحداثة، إن لم يكن رفضها كلياً. كما يقترح تركيز ثورو الشديد على فضائل صمت الطبيعة وتأملها -وهي نماذج تركزت عليها كتابات الطبيعة لاحقاً بشكل كبير- أيضاً أنّ العبور المزعج للقطار غير مرّحب به كليةً. ورغم ذلك -كما يشير ماركس- فإن الاقتباس السابق يطبّع صوت القطار، بمقارنته بنداء النسر، وخلال تأمله يضلل ثورو التضارب العميق تجاه التقنية:

"تكشف صورة سكة الحديد على ضفاف البحيرة الغموض في قلب (وولدن). فالقوة التي صنعتها أكف البشر -الآلة بنيرانها ودخانها وأصواتها الرعدية- توضع بجوار مياه (وولدن) -التي تشتهر بعمقها وعذوبتها، ولونها منقطع النظير الذي لا يوصف- مرة أزرق سماوي، ومرة أخضر، وشفافةً بشكل شبه دائم. يتحرك الجواد الحديدي [قاطرة] عبر سطح الأرض: تجتذب البحيرة العين تحت السطح. يجسد هذا التناقض الأمل والخوف من الذروة الوشيكة لمواجهة أمريكا مع الطبيعة البرية". (Marx: 1992:251)

في الواقع، يضلل ثورو بهجة رائعة معينة في حضور سكة الحديد، وحتى أنه يضلل الفكرة العالمية التي تختلف مع الشخوص التي تشكلت في معظم (وولدين)، يضلل بهجة الحكيم المشاكس الذي انسحب من صخب الحياة المتمدنة ليعيد اكتشاف الحقائق الأساسية للوجود البشري: "أشعر

بالانتعاش والاسترخاء عندما يقعقع قطار الخوف متجاوزني، وأشم رائحة المتاجر التي تمضي في تركيب وتوزيع روائحها طول طريق (لونج ورف) (Long Wharf) إلى بحيرة (تشامبلين) (Lake Champlain)، فتذكرني بالأجزاء الأجنبية، وبالحدود البحرية المرجانية، والمحيطات الهندية، (P.97)، (انظر Garrard: 2000). يفسر ماركس هذا التناقض الواضح بتدليله أن حله يجب أن لا يقصد بمصالحة الطبيعة مع الثقافة من خلال تغيير اجتماعي أو سياسي، ولكن من خلال الأدب- خصوصاً في صفحات (وولدن) نفسها. بالمحصلة، يعيد ثورو الأمل الرعوي إلى جذوره الكلاسيكية لعبةً أدبيةً، وذكيةً، ومتعلمةً- لا يمكن أن تكون أكثر من ذلك، من وجه نظر ماركس – "لمجتمع منظم بشكل معقد، ومدني، وصناعي، ومتسلّح بأسلحة نووية". (P.354). حيث تشكل الآلة الواقع والمستقبل، ولا تعدو الرعوية عن كونها أسطورة عن التاريخ. يمكن للنقاد البيئويين المتأخرين أن يجدوا قراءة ثورو والتبسيط الواثق للتقسيم التحليلي الذي جرى عليها كلاهما خاطئان.

تعدُّ دراسة آنيت كولودني (Annette Koloddny) النفسية التاريخية (موقع الأرض) (The Lay of the Land) أول من كشفت النقاب عن إيحاءات الجنس (gender) الرئيسية للرعوية، والتي تدلل أن الأدب الرعوي كان أكثر من مجرد مفهوم تخيُّلي للروّاد الأمريكيين لأنه «على المستوى النفسي الأعمق، فقد اختبرت النقلة إلى أمريكا واقعاً يومياً لما أصبح فيما بعد استعارتها المهيمنة الوحيدة: الانسحاب من هموم حياة الرشد والعودة إلى الدفء الأولي للرحم، والثدي في منظر طبيعي أنثوي. وعندما أنتجت أمريكا –في النهاية- أدباً رعوياً خاصاً بها، احتفى ذلك الأدب بالأنوثة الجوهرية للمناطق الجغرافية بطريقة لم يشهد الأدب الرعوي الأوروبي مثيلاً لها ... و ... وتعامل مع مجازاتها بوصفها حقائق حرفية» (1975:6).

ولِّد المنظر الطبيعي المصنف حسب الجنس الذي بدى عليه أنه استجابة لمتطلبات خيالات العالم القديم الجامحة لوفرة مطلقة تضارباً أساسياً، ولكن، مع نواة إثم غير قابل للشفاء. يمكن للأرض- بحضورها التنشوي الأمومي- أن تكون موضوعاً لخيالات صبيانية ولكن بالضرورة خيالات ارتدادية غير مؤذية. ومع ذلك، يمكن للأرض بوصفها (آخر) مرغوب فيه لمجتمع متاخم ذكوري واعٍ لذاته، أن تكون عاشقاً يخضعه العنف. في الصراع الدائر بين هاتين النسختين للمجاز الرعوي- بين العالم المثالي الذي وجدوه وبين العمل الصعب والوحشي اللازم للفوز به وتشكيله- وجد الكتاب الأمريكيون مصدراً غنياً بالتوتر بين «الحلم وخيانته ... [لل] الإثم والحنق» (p.8). إضافة إلى ذلك، كانت الحرفية الظاهرية للمصطلح الرعوي للعالم القديم البالي وعداً متموضعاً

على الدوام، تماماً على الجانب الآخر لحد كان يتقهقر دائماً إلى ناحية الغرب. فإغلاق الحد لم يكن بالمحصلة نهاية للحافز، بل كان إحباطه النهائي، غير القابل للتحفيز: "ما يظهر اليوم أنه تدمير موطّد العزم وتلويث للقارة ما هو إلا واحد من الطرائق التي واصلناها للتعبير عن ذلك الحنق" (p.137). دونما تغير جوهري، سيُحكم على مفاهيم الفوقية الذكورية بالتردد بشكل مطلق بين قطبي الانكفاء والافتئات لنظام رمزي ذكوري مراهق بالضرورة.

ربما يكون (الخيال البيئي) (The EnVironmental Imagination. 1995) للورنس بويل (Lawrence Buell) هو العمل الأكثر تأثيراً في النقد البيئوي الأمريكي إلى يومنا هذا، حيث قدم دراسة نقدية شاملة للإيدلوجيا الرعوية في الأدب القصصي الأمريكي، مع معالجة مستفيضة لثورو انتقلت من تقييم "مشاريع" (وولدن) "البيئية"، عبر تحليل إسهامات المؤلف بنصوص معيارية في التاريخ الأدبي الأمريكي، وبعد ذلك في النقد البيئوي، إلى إعادة دراسة لدور ومغزى الكتابة عن الطبيعة في النصوص الأدبية المعيارية. يعد (وولدن) جوهرياً لحجة بويل: لأنه عمل انتقالي، يقع في النقطة الوسط للانتقال من فلسفة الفوقية البشرية المتعالية[1] transcendentalism اليانعة إلى منظور الفوقية الأحيائية الرشيد، والذي كشف عن نفسه في المقالات المتأخرة عن البرية، وتشتيت البذور وتوال أشجار الغابة. فقد خلق مسار ثورو المنحني وتعددية المحاور المتكافئة في كتابته عن الطبيعة تحت تمحيص نقدي مطوَّل، منه مثالاً يحتذى، فسيرته البحثية التي رأت النور بعد وفاته تكشف الكثير عن المكانة المتغيّرة للبيئة الثقافية الأمريكية والمجمع الأدبي؟ "فالقديس البيئوي" (ecological saint) ما هو إلا واحداً من استنساخاته:

"خلال عقد واحد من الزمن- من منتصف الستينات إلى منتصف السبعينيات.. نودي بثورو بالهبي (hippie) الأول في مجلة عراة، وقد أوصى به كقدوة للمراهقين المشوشين، ويستشهد به فيت كونغ (Viet Cong) في الإذاعات محرضاً الجنود الأمريكيين على الفرار من الخدمة، ويحتفي به نشطاء البيئية واحداً من أوائل حماة الطبيعة، «ويعانقه مساهم لمجلة [جناح اليمين المتطرف]، جمعية جون بيرتش ك «رجعيِّنا الأعظم». [Thoreau 1992:314].

يتناقض هذا الموقف كبطل ثقافي بشدة مع الولاء الغامض وعدم الاكتراث العام الذي يحيط بوردزورث في بريطانيا، ويضيف حاجة ملحة معينة، لطرح بويل. إضافة إلى ذلك، فعلى

---

1 الفلسفة المتعالية: كل فلسفة تقول بان اكتشاف الحقيقة يتم بدراسة عمليات الفكر لا عن طريق الخبرة أو التجربة.

الرغم من معاناة مقاطعة البحيرة من التدفق السنوي الهائل للسياح الرومانسيين المعاصرين لهذا المكان الفاتن، ينضوي هذا على نزر يسير من الشخصية المميزة لـ "الحج الثوروي" إلى (بحيرة وولدن) "المقدسة". والأكثر دهشةً- وإن يكن معارضاً لتحذير ثورو- أنه "لن يكون هناك أحد يتبنى طريق [ته] في العيش تحت أي اعتبار" هو تقليد "التجارب المسكنية" بشكل انفرادي أو اشتراكي، والتي تُعزى عادة بشكل صريح إلى الهام (وولدن).

ولو كان بالإمكان إعادة قراءة رائعة ثورو المتصدعة دون إحداث تشويش للأعمال الأدبية الأمريكية المعيارية الموافق عليها، فإن بويل يحتج أبعد من ذلك أن الأزمة البيئية يجب أن تحض على إعادة تقييم للمعايير عينها التي ارتكزت عليها هذه الأعمال المعيارية. خصوصاً، الكتابة عن الطبيعة -التي تتمتع بحضور طاغي في الولايات المتحدة الأمريكية- حيث أصبحت تنزح نحو الانحدار على يد الأهواء الأكاديمية التي تفضل النثر القصصي على النثر غير القصصي، والدراما الإنسانية على حكايا التفاعل بين الإنسانية والطبيعة. يحذر بويل معايير النقد البيئوي تميل لأن تظهر إما واسعة جداً، بحيث تضم أياً من المنظومة الواسعة للأعمال الأدبية التي تظهر بها "الطبيعة" إجمالاً، أو ضيقة جداً، فتستثنى الكل عدا العمل الموجه بيئوياً بشكل صريح جداً. إلا أنه يقترح المعايير الأربعة التالية:

أن تكون البيئة غير الإنسانية حاضرة ليست بوصفها مجرد أداة زراعية ولكن حضوراً يبدأ بفرضية أن التاريخ الإنساني مستوحى في التاريخ الطبيعي.

أن لا يُفهم أن مصلحة البشر هي المصلحة الشرعية الوحيدة.

أن يكون اكتراث البشر بالبيئة جزءاً من التوجه الأخلاقي للنص.

يجب أن يوحي النص بشيء من فهم البيئة بوصفها عملية وليس شيئا ثابتا أو مفترضا (Buell، 1995: 7-8).

من الواضح أن الأدب الرعوي سيصارع ليقابل العديد من هذه المعايير، ولكن -جدلياً- من الممكن أن يخفق في الاختبارات التي طرحها النقاد البيئويون النسويون إلى ساحة المناقشة. يعطي بويل شيئاً من البروز للطروحات النسوية البيئوية ولكن تُعدُّ "نهد العالم الجديد الأخضر" (The Green Breast of the New World، 1996) للويس ويستلنج (Louise Westling) العمل الذي مُنحت فيه أطروحات النسويين البيئويين إطاراً نظرياً أساسياً. مقتدية بكولودني في بعض النواحي ، تحلل ويستلنج "التركيبة الغريبة للإثارة الجنسية وبغض النساء

التي صاحبت نظرات الرجال للمناظر الطبيعية والطبيعة لآلاف السنين (1996:5). انطلاقاً من تفسير تخميني للمواقف تجاه الطبيعة منذ فن العصر الحجري الأول. يتحرك النقاش مسرعاً مروراً بالسرود السومرية والتوراتية إلى القضية المركزية. حيث توافق ويستلنج إن إيميرسون وثورو "عملوا على ترسيخ الحنين الاستعماري الذي كان دائماً في قلب الأدب الرعوي الأمريكي -تحديق ذكوري عاطفي في منظر طبيعي أنثوي ومخلوقاته قنّع الغزو والدمار للقارة "البرية" (52p.). وبعد ذلك تسبر عدداً من روائيي القرن العشرين. منهم أرنست همنجواي (Ernest Hemingway)، أدورا ويلتي (Eudora Welty)، وويليم فوكنر (William Falkner) لترى إذا ما، وجدوا طريقة يسقطوا فيها فهماً أكثر واقعية ومسؤولية لدى الأمريكيين عن أرضهم» (p.53).

على سبيل المثال لا الحصر. يؤسس همنجواي -المعروف بافتتانه بمثل هذه المطاردات الرجولية مثل صيد الحيوانات الكبيرة وصراع الثيران- قصصه عن الاستهلال الذكوري واكتشاف الذات بحزم شديد في تضاد مدمّر بين المنظر الطبيعي المؤنث وبين أبطاله الروائيين الذكور (الضّيقين والبدائيين). ومن جهة أخرى. طعّمت ويللا كاثر (Willa Cather) في باكورة أعمالها (الأمازون) (Amazon) ببطلات باسلات في ساق الفوقية الذكورية هنا. كما في قصتها عن المزارعين الأوائل في مروج نبراسكا. (يا للرّوادا) (Oh Pioneer!، 2000). حيث تتحوّل نظرات الكسندرا بيرجسون Alexandra Bergson عن المناظر الطبيعية التي أحبتها واستغلتها وتتناقض. تُجري كاثر هنا غموضاً رعوياً جدير بكيرو (Carew).

«لم تعِ قطّ من قبل كم عنى الريف لها. فسقسقة الحشرات هناك في العشب الطويل كان يشبه أعذب موسيقى. لقد شعرت كأن قلبها مختبئ هناك. في مكان ما. مع طائر السمان وطائر الزقزاق، وكل الأشياء الصغيرة البرية التي تدندن أو تطن تحت أشعة الشمس. تحت سلسلة التلال الشعثاء. شعرت بالمستقبل يتحرك حركة خفيفة». (2000:71)

من ناحية أولى. يعكس هذا نزوحاً جذرياً من تراث الفوقية الذكورية. حيث تماثل الكساندرا نفسها مع الأرض. مع أنها تحس (بالمستقبل) أنه حالٌ فهناك -في الواقع- التدمير الكارثي لمروج النظام البيئوي الذي يحدث تحت إشرافها النفعي القادر. تدلل ويستلنغ أن كاثر خلقت "حيوية أنثوية خاصة للجذب الجنسي، وهوية تضم منظر نبراسكا الطبيعي والكساندرا بيرجسون بوصفهما بطلين روائيين ثنائيين في تفاعل عاطفي انتقل من النزاع إلى الحنين إلى التوحد الوجدي". (1996 :65). هذه الشهوة الجنسية المثلية الأنثوية. -رغم ذلك- تفقد توازنها

بفعل مشاركة الرواية في تراث الفوقية الذكورية الرعوية والذي "يرمز إلى نسخة حميدة من غزو السهول، ماحياً عنفه" (p.81).

تُعدُّ التضادات المدمرة الجنسية (gender) الطبقية، والمنفصلة على نحو مفرط، أساسية للرؤية الرعوية، ولكنها تنضوي على بعد عنصري إشكالي بدرجة كبيرة. إذ يتشكل المنظور المحلي الأمريكي من حقيقة أنه –سواءً أكانوا (وحوشا نبيلة) نموذجية أم وحوشا نقية وبسيطة- قد اختُزل الهنود على مر التاريخ ليضحوا مجرد بصمة في المنظر الطبيعي الرعوي أو حتى أنهم أُزيلوا منه نهائياً. وكما يشير بويل، فالشعوب المستعمرة في استراليا أو جنوب أفريقيا يمكن أن يملكوا نفس التضارب تجاه الأدب الرعوي المستوطن، في حين طور الكتاب الأفريقيون الفرنكوفونيون (الأدب الرعوي الأهلي) لحركة نيجروتود Nigritude. بالنسبة للأمريكيين من أصل أفريقي، يختلف معنى الرعوي مرة أخرى، فهو يعكس التجربة التاريخية لعبودية المزارع، و-بعد ذلك- الإعدامات الريفية التي كانت تجري دون محاكمة. وكما يبين مايكل بينيت (Michael Bennet) في دراسته عن سيرة حياة فريدريك دوغلاس (Frederick Douglass) أنَّ:

"أنواع الأمكنة التي يجيزها معظم الدعاة البيئيين والنقاد البيئويون السائدون- الرعوي منها والبري- لم تكن لتقدَّر من قبل دوغلاس وعبيد آخرون كان أقصى آمالهم أن يتفاوضوا مع الأرض المدنية. غيرت العبودية طبيعة الطبيعة في الثقافة الأمريكية الأفريقية. مستلزمة وقفة مع التراث الرعوي الذي تطور في الأدب الأمريكي الأوروبي". (2001:205).

لذا يظهر علم التبيؤ الاجتماعي-مع تحليله للمظالم البيئية والاجتماعية التي عاقبت الأقليات العرقية- نموذجاً نظرياً واعداً أكثر من علم التبيؤ المتعمق للنقاد متعددو الثقافات.

إذاً -على الرغم من دفاع بيت عن وردزورث- فقد نزع النقاد البيئويون إلى جانب التشكيك الصارخ بالرعوية، مع أنهم لا يرغبون أن ينكروا كلياً النقد المضمر الذي تقدمه للمجتمع المعاصر. في حين تطور النقد البيئوي من خلال تأليف مجاميع عن كتاب معينين مثل جون رسكن (John Ruskin) وهنري ثورو، بقي الأدب الرعوي أحد المجازات المستكشف بالضرورة (Wheeler 1995; Schneider. 2000). فالتضارب في الأدب الرعوي سوف لن يُزال، ولكن على العكس سوف يتعزز بالقراءات النقد–بيئوية.

ما زال النقد الثقافي الكامل للمعاني المعاصرة للرعوية في الأفلام، والتلفاز، والأدب الشعبي، والإعلانات، في طور الكتابة لمَّا يكتمل بعد، إلا أن الكسندر ويلسون

(Alexander Wilson, 1992) يحلل أثر الرعوية في تطور السكن في الضواحي، مع مروجه الشاسعة التي تتطلب كميات هائلة من الصيانة عالية التقنية، في حين يبيّن مايكل بيونس (Michael Bunce) كيف حوّل المنظر الطبيعي الرعوي النموذج إلى سلعة وبُدّلت البيئات الريفية التي أسقط عليها:

،أحدث أهل الريف، وسكان الضواحي الخارجية، وساكني الأكواخ الذين يحضرون في عطلة نهاية كل أسبوع، وحتى أولئك الذين عادوا إلى الريف بعد أن سئموا نهاية الأسبوع، وحتى أولئك الذين عادوا حياة المدن تغييراً جذرياً في شخصية ومعنى المنظر الطبيعي الريفي. فقد ابتدعوا منظراً طبيعياً حوّل كلاً من البيئات الطبيعية، والمناطق المنتجة على حد سواء، إلى مناطق تتطابق مع مثالية الريف مكاناً للترفيه، ملاذاً، وحياة بديلة. في مجمله، يُعدُّ المنظر الطبيعي مكاناً يدعو للراحة، صمّم ليوفر البهجة وليس الإعانة الاقتصادية. إنه –علاوة على ذلك- منظراً طبيعياً وأهلياً على الأغلب، يسيطر عليه النفوذ، وهو ملكية خاصة تحديداً، (110: 1994).

وسوف تشغل الطرائق التي يمكن من خلالها أن تتحرك ثقافاتنا عن الطبيعة وراء هذا الانعطاف المحوري الرعوي ما تبقى من هذا الكتاب.

علم التبيؤ الرعوي PASTORAL ECOLOGY

يمكن أن يتموضع أحد ملاذات الأدب الرعوي المعاصر في خطاب علم التبيؤ نفسه. ففي جذور الأدب الرعوي، هناك فكرة أن الطبيعة وجهة معاكسة مستقرة وباقية للطاقة الممزِّقة وللتغيير في المجتمعات البشرية. إذ يتخيل الإرث اليهودي المسيحي والإرث الإغريقي الروماني نظاماً للطبيعة مرسوم إلهياً، مثبتين ذلك بملائمة الأرض الملحوظة موطناً لأنواعها المتعددة. على سبيل المثال، يلحظ سيسيرو (Cicero 106-43 ق.م) كيف يتلاءم خرطوم الفيل بدرجة هائلة مع حاجاته الغذائية، وكيف يحمي اللحاء الشجر من العوامل الجوية. تقبلت الثورة العلمية في القرن السابع عشر والثامن عشر مفهوم الأدب الرعوي للطبيعة، ولكنها كسرته من خلال نظرة جديدة للكون بوصفه آليةً عظيمة صممها الله. مجاز الطبيعة هذا، الذي يصورها آلة متناسقة ومستقرة بقي في قلب علم التبيؤ منذ أن ظهر في أوائل القرن العشرين، وشكلت بلاغة الحركات البيئية اللاحقة حتى عندما أصبح علماء التبيؤ العلميين. أكثر تشككاً في (توازن الطبيعة). في هذا المثال، يجب أن نستخدم علم التبيؤ المعاصر في نقد ما يفترض أن يكون بلاغة (بيئوية) تعتمد على نماذج علمية مهجورة الاستخدام ويصعب فهمها.

عرض عالم النبات البيئوي فريدريك كلمنتس (Frederick Clements 1847-1995) -على سبيل المثال- أن (ترابطات) الأنواع النباتية سوف تتطور مع بعضها بعضاً حتماً في موطن معين اتجاه مرحلة الـ (ذورة). وقد طور كليمنتس فكرة الخلافة (Succession)، حيث تستعمر سلالات (رائدة) قوية، وذات نمو مطرد النظم البيئوية المفسَدَة بسرعة كبيرة، لتخلفها أنواع بطيئة النمو ذات معدلات عمرية أطول وأكثر ديمومة، وقدرة على احتمال الظروف التي ولّدها الرّواد (انظر Brewer 1994:373-405). ودلل أن الخلافة تميل إلى أن تنبثق من حالة غير مكتملة النمو، تحتمل أعداداً كبيرةً من أنواع قليلة رائدة، إلى حالة من التوازن والاستقرار معقدة، وغاية في التنظيم، تحتمل الأنواع متنوعة أكثر. فالحالة الانتقالية الطويلة من أراضي المحاصيل المهجورة مروراً بغابات شجر البتولا المتكاثفة إلى الغابة متساقطة الأوراق التي تكون في ذروتها، ومكتملة النمو، يمكن أن تكون نمطيةً. يدلل المؤرخ بيتر كوتس (Peter Coates) على أن «علم التبيؤ الأمريكي اعتقد في بداية القرن العشرين اعتقاداً جازماً في هوية الطبيعة الأصيلة والجوهرية» (143: 1998). حيث كانت هذه الهوية بالضرورة نسخة من الرعوية، إذ إنها سلّمت بحالة الطبيعة المستقرة والمتناغمة في غياب (التدخل) الإنساني.

رفض علماء التبيؤ نظرية كلمنتس في الأربعينيات من القرن الماضي. لكن بلاغتها استمرت في تشكيل الخطاب البيئي. إن التلازم بين التنوع الحيوي، وتوازن النظام البيئوي، وحالة الطبيعة المثالية مكتملة النمو، هو بند من بنود معتقدات معظم النقاد البيئيين والفلاسفة، وليس أقل من ذلك: لأنه يوفر أرضية موضوعية لنقد النظم البيئوية مسلوبة الخصوبة المتضمنة نوعاً واحداً في الزراعة الحديثة. ورغم ذلك، ترفض كولين كلمنتس هذا «النموذج المثالي القصصي الخرافي عن نظام بيئوي ذي تناغم ثابت متحقق (215: 1995). مدعيةً أن الركود ظاهرة غير معهودة في النظم الطبيعية. وتشير أن الخلافة عملية مستمرة على مر الزمن، لا يمكن من خلالها أن يُشتق أي نمط ثابت أو نقطة نهاية مثالية للترابطات النباتية. إذ تحتفظ النظم البيئوية حقاً بنوع من التوازن، ولكنها تتصف أكثر بالتغيُّر وليس بالثبات. «التوازن أو الاتزان أو الركود ليس ... نظاماً حيكت خيوطه بإتقان، مشغول بسلاسة، وهادئ، لكنه نظام يظهر سقطات ركودية كثيرة يعوِّض عنها بإدخالات جديدة تحافظ على التذبذب بمقادير حرجة معينة» (p.128). يظهر ريتشارد بروير (Richard Brewer) رفضاً أقل حدةً، إلا أنه يشير أن الدليل على التلازم بين الاستقرار والتنوع الأحيائي متفاوت، فـ "هناك كثير من المجتمعات البسيطة التي تظهر استقراراً كبيراً واضحاً، مثل مجتمعات الينابيع الحارة" (404: 1994) زيادة على ذلك، تظهر بعض

النظم البيئوية غير المستقرة، مثل السبخات التي تتميز بمستويات مياه زئبقية، أنها تولّد تنوعاً دقيقاً بسبب تغيُّرها.

وبما أن النقد البيئوي يأخذ على عاتقه نشر ونقد المفاهيم العلمية، فسوف يتم توظيف عدد من الفصول اللاحقة لدراسة التباين بين علم التبيؤ الرعوي الشعبي المشدود بإحكام لنماذج كليمنتس مهجورة الاستخدام عن الانسجام والاتزان، وبين علم التبيؤ الجديد ما بعد الحداثي الذي يمثله عمل دانييل بوتكن (Daniel Botkin)، الذي يؤكد أن الطبيعة العذراء ليست ثابتة في الشكل، والبنية، أو النسبة، ولكنها تتغير في كل نطاق زمني ومكاني (62: 1992). ومن الواضح أن كل التغيرات ليست مرغوبة، ولكن خلافاً لمفهوم الذروة عند كليمنتس يَنظر علم التبيؤ ما بعد الحديث إلى القيم الإنسانية كي يميّز بينهم، وليس من أجل نشر موضوعية وهمية لحالة الطبيعة الأصيلة، والبكر المفترضة.

الفصل الرابع

البرية[1]

WILDERNESS

فكرة البرية- التي تشير إلى الطبيعة التي لم تلطخها يد المدنية- هي أكثر صورة ذهنية مقنعة للطبيعة، متوفرة لدى الحركة البيئية في العالم الجديد. إنها صورة حُشدت لحماية مَواطن وأنواع معينة، وينظر لها أنها المكان الملائم لإنعاش أولئك الذين تعبوا من تلويث المدينة المعنوي والمادي. فالبرية تحتفظ بحظ من القيمة الروحية القدسية: إنها تحمل وعداً بعلاقة مجددّة، وأصيلة بين البشرية والأرض. تحمل ميثاق ما بعد الحقبة المسيحية. الموجود في مكان طاهر، والمؤسَّس على الاحترام والتذلل. كما وتعدُّ مسألة البرية قضية محورية لتحدي النقد البيئوي للوضع الراهن للدراسات الأدبية والثقافية. ذلك أنها لا تشترك في الهموم الاجتماعية التي تشغل الدراسات الإنسانية التقليدية. وخلافاً للرعوية. لم يبدأ مفهوم البرية بالظهور في الثقافة إلا بعد القرن الثامن عشر. حيث كانت (النصوص البرية) التي ناقشها النقاد البيئويون كتابات عن الطبيعة غير أدبية في مجملها. تمّ إهمالها على الأغلب من جانب النقاد الآخرين. الحظ الأوفر من الأعمال في هذا الحقل يمكن أن يحسب على التاريخ أو الفلسفة الفكريه. وبذلك تتوسع حدود النقد الأدبي التقليدي.

تتشارك السرود البرية موضوع الفرار والعودة مع القصص الرعوية النمطية، ولكن

---

1 أية مساحة من الأرض الطبيعية لم تستوطن أو تزرع بعد من قبل الإنسان. المترجم. انظر: حميد مجيد البياني: المعجم الجامع لعلوم البيئة والموارد والطبيعية: 2008، مؤسسة الوراق، عمان.

الصورة الذهنية التي تطرحها وتحاول ترسيخها عن الطبيعة تختلف اختلافاً جوهرياً. فإذا كانت الرعوية هي المفهوم المميز للعالم القديم عن الطبيعة، والمناسب للمناظر الطبيعية، التي استوطنت ودجّنت منذ القدم، فالبرية تناسب تجربة الاستيطان في العوالم الجديدة -وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وأستراليا- مع مناظرهم الطبيعية التي يتضح عدم ترويضها، والفروقات الحادة بين قوى الثقافة وقوى الطبيعة. مع أن الثقافات المستوطنة تعبر المحيطات حاملة مفاهيمها المسبقة التي لم تمس، كذلك شُكّلت (الطبيعة) التي يقابلونها حتماً بفعل التواريخ التي سعوا لتركها وراء ظهورهم. فمن أجل إدراك المفاهيم المعاصرة للبرية فلا بد لنا -إذاً- من سبر تاريخ (البرية) في العالم القديم. فلا نملك أن نسلّم بالسياسة المتعلقة بالبرية: فبالنسبة لكثير من النقاد، (فالبرية) التي يجب ننشدها- في النهاية- تتلخص في الغرب الأمريكي، والذي أُفترض أنه عالم بلا معوّقات يملك فيه الأمريكيون والأوروبيون حقاً جلياً.

برية العالم القديم OLD WORLD WILDERNESS

إذا ما كان للرعوية أصل مزدوج في الثقافة اليهودية-المسيحية والثقافة الإغريقية-الرومانية، فالمعاني التي حظيت بها البرية في بدايات القرن الثامن عشر يبدو أنها ترتكز ارتكازاً كاملاً تقريباً على التاريخ والثقافة الإغريقية/الرومانية. فكلمة (البرية) مشتقة من الكلمة الإنجلوسكسونية الوحوش البرية (Wilddeoren)، حيث وجدت الوحوش خارج نطاق الزراعة. كم تفيد كلمة (بري) في إظهار عوالم الوحوش (deoren) الكلمة التي لم يّتغير إملاؤها ولا معناها على مر ألفية ونصف من الزمن، على الرغم من اكتساب الكلمة لظلال دلالية جديدة مع تقهقر الغابات واستعمار البراري.

فالبرية- في تاريخ نوعنا البشري- تعدُّ فكرةً حديثةً، تمثّل مكاناً -بصرف النظر عن، وخلافاً للثقافة البشرية- يعتمد على مجموعة من الفروقات التي يجب أن تركز أساساً على الاقتصاد الزراعي: فبالنسبة للصياد والحصّاد، فلا يوجد ببساطة مفاهيم من مثل الحقول والمحاصيل، في المقابل الأعشاب والبرية. (انظر Oelschlaeger, 991: 28). فإذا ما عرَّف المزارعون المنزل (home) مقابلاً للبرية. ونزحوا لرؤية ثمار جهدهم نتيجة للصراع ضد الطبيعة وليس نعمةً من أنعمها، فالانتقال من حالة الصياد والحصّاد في العصر الحجري القديم (Paleolithic) إلى حالة المزارِع في العصر الحجري الحديث (Neolithic)، يعدّ لكثير من مناصري البرية نقطة تحوّل جوهرية، تؤرخ لِـ (السقوط) من النعيم البيئوي البدائي. أصبحت

الزراعة العلة والمَرَض على حد سواء للاغتراب القديم عن الأرض الذي أتمه الدين الموحد والعلم الحديث فيما بعد. فمن المؤكد أن أساليب الحياة التي سادت العصر الحجري القديم لأوروسيا (Eurasia) تستحق الاحترام لقدرتها على إدامة الشعوب البشرية تحت ظروف مناخية غاية في القسوة لمرحلة لا يمكن تصورها قريباً، والتي شهدت تطورات روحية، وتقنية، وفنية خارقة. حيث يتكلم سنايدر Snyder عن "25 ألف عام من التراث الفني والثقافي المتواصل" (391 :1999). ورغم ذلك، يجدر التنويه إلى بعض الصعوبات الحتمية لاعتماد أنصار البرية على فكرة (العقل البدائي) (Primal Mind)، التي يفرقونها عن (العقل المتمدن) (Civilized Mind) المغترب. ففي غياب السجلات المكتوبة، يعتمد مفهوم اولتسشليجر (Oelschlaeger) الواثق عن (العقل الحجري القديم) مثلاً، على تفسير إشكالي إلى حد كبير لفن الكهوف الأوروبي.

وبغض النظر عمّا يمكن طرحه عن العقل الحجري القديم. فالوثائق القديمة جداً عن الحضارة الأوراسية الغربية مثل ملحمة جلجامش، تصور البرية كتهديد، وقد نُظر لها في الوقت الذي كتبت فيه النصوص اليهودية المقدسة- نظرة تضارب وازدواجية في أحسن الأحوال-. بعد الطرد من جنة عدن، كانت البرية هي موطن النفي. ورغم ذلك، وكما قاد إبراهيم شعبه إلى البرية كي يؤسس أمّة، فقد قاد موسى شعب إسرائيل عبرها ليعود إلى وطنه، حيث وجدها مكاناً مضيافاً أكثر من مصر المتحضرة، لكنها مستعبدة. لقد رُبطت البرية بالشيطان؛ ثم أُصعد يسوع إلى البّرية من الرّوح ليُجرّبَ من إبليس، (إنجيل متى 1:4). لكنها ارتبطت أيضاً بالتقاليد الرهبانية الأولى: فمن أجل النجاة من اضطهاد السلطات الرومانية ومن إغراءات العالم توجه الرهبان المسيحيون الأوائل إلى الصحراء. فالمفهوم اليهودي-المسيحي للبرية، إذاً، يجمع بين إيحاءات المحاولة والخطر وبين الحرية، والخلاص والطهارة، وهذه معانٍ ما زالت تحملها، بدرجات متفاوتة.

بالنسبة لكثير من النقاد البيئويين، يُعدُّ حلول الثورة الصناعية النقطة الأساسية التالية في سقوط الأوروبيين الغربيين من الجنة. فالبيئيون المتعمقون والبيئيون النسويون على حد سواء، ينظرون إلى رؤية الكون بوصفه آلة عظيمةً، والتي وضعها مع آخرين فرانسيس بيكون (Francis Bakon، 1561-1626)، ورينى ديسكارتز (René Descartea، 1596-1650)، واسحق نيوتن (Isaac Newton، 1648-1727)، أنها تمثل الضربة الحاسمة للكون العضوي الذي عمره أسلافنا، إذا ما كما يدعي ويستلنغ، بجّل شعب العصر الحجري القديم الأم العظيمة الولود

(Magna Mater)، أو شخصية الأم العظيمة، فقد قُدِّر لهؤلاء الرجال إتمام عملية إبادتها التي ابتدأت بسيطرة إله السماء اليهودي-المسيحي الذكوري. بدلاً من مكانة الأرض أماً مربيةً، افترض الفلاسفة الطبيعيون كوناً اختزل إلى مجموعة من الأجزاء تعمل وفقاً لقوانين منتظمة يمكن للرجال-مبدئياً- أن يعرفونها كلية. وسعى ديسكيرتز -كما فعل بيكون- وراء وضع أساس لفلسفة جديدة وعملية. فلسفةً «إذا ما عَلِم [هو] قوة وفعل النار، والماء، والهواء، والنجوم، والسماوات، وكل الأجسام الأخرى التي تحيط بنا». يمكن أن يصبح ومعاصروه «أسيادا وملاكي الطبيعية» (Descartes, 1986: 49). فقد أضحى العقل وسيلة تحقيق السيادة الكاملة على الطبيعة، والتي أصبحت تعني في يومنا هذا آلية هائلة بلا روح، تعمل وفقاً لقوانين طبيعية معروفة.

يهاجم النقاد البيئويون هذه النظرة لأنها نظرة (اختزالية). فيحتجون أنها تستبدل منظر العالم المتشظي والآلي بالمنظر الكلّي والعضوي. يشير بلومود (Plumwood) أنه في الوقت الذي يُنظر للعقل البشري أنه المصدر والمكان الأوحد للقيم إلى جانب الإله، لن يعود هناك أية قيمة أو معنى للطبيعة أكثر من تلك التي منحها إياه العقل. ويدلل أن "ليست مصادفة أن هذه النظرة للطبيعة قد ترسخت مع ظهور الرأسمالية التي رغبت في تحويل الطبيعة إلى سوق سلع ومصادر دون ضوابط أخلاقية أو اجتماعية هامة على توفرها" (Plumwood, 1993:111). علاوة على ذلك، فالنقد الذي وُجِّه للثورة العلمية قد ولَّد إيحاءات. حيث ترى كارولين ميرتشنت (Carolyn Merchant) في القرنين السادس والسابع عشر. أن الأم العظيمة الأنثى فقدت فتنتها بالنهاية وتعرَّضت لهجوم عنيف على يد العقل الذكوري المتعقل، وقد اقتُلعت جذور آخر اتباعها ربما —ساحرات» أوروبا- بوحشية» (Merchant 1990: 172).

يتوافق هذا النقد أيضاً مع هجوم هيدجر على الزرعنة (en-farming)، أو الوسيلية، حيث يُراد للكينونات أن تظهر أنها مجرد وسائل لتحقيق مشيئتنا. أما الاستعارة التي يستخدمها هيدجر لوصف العالم المختزل لمجرد مصادر، فهي مصطلحٌ حَرَجي: الاحتياطي (Bestand)، أو (الأشجار الاحتياطية)، مع أن الثورة العلمية أثرت على علم الحراجة حرفياً- كما بينت هاريسون. ففي حين انصب اهتمام علم الحراجة تقليدياً على حماية النطاقات القانونية التي تدعى (الغابات) بوصفها مواقع للإنتاج ومواطن حيوانات ونباتات على حد سواء، شكل مجيء المبادئ العلمية نفياً لقيمة الغابات التقليدية وصداها الرمزي:

"من وجهة نظر هذا النوع من الإنسانية المتنورة ... لن يكون هناك أية إمكانية للغابة بوصفها مكاناً مكرّساً لغاية نبيلة ذات كشوفات نبوئية؛ أو مكاناً لأعياد القطاس الغريبة،

الشاذة، والساخرة: أوموقعاً خيالياً لأغاني الحنين للوطن والانحراف الجنسي؛ أو محميةً طبيعية تمكن الحيوانات البرية من العيش فيها بأمان بمنأى (عن دمار الإنسانية المنشغلة بالاعتناء بمصالحها). لن يتبقى سوى دعاوى سيادة البشرية للطبيعة وامتلاكها لها – أي: اختزال الغابات لى منفعة". (Harrison: 1992: 121).

يعدّ الألماني فورستجيومتر (Forstgeometer) أو مهندس الغابات، هو الامتداد النهائي علم الحراجة، الذي (أطّر) الغابات بالرياضيات، مختصراً إياها إلى (أشجار احتياطية محسوبة، فقد أزال الغابة (Wald) القديمة، والغامضة من التاريخ والخرافة الألمانية. لذلك يعدّ علماء التبيؤ المتعمق، أوالنسويون البيئويون، والنقاد البيئويون الهيدجريون الثورة العلمية كارثة بيئوية افتُقدت فيها وبها أصالة بدائية.

ورغم ذلك، فمن المشكوك فيه كثيراً أن الرؤية الآلية للعالم كانت يوماً طاغية أو مهلكة بالقدر الذي يقترحونه. حيث أظهر كيث توماس (Keith Thomas) وسيمون شاما (Simon Schama) أن الاتجاهات المتضاربة، وأحياناً المتصارعة قد هيمنت على العصر الحديث –حتى أن بيكون أوصى بتضمين قليلاً من البرية في الحديقة المنزلية الخاصة– ويجب أن لا نقلل من قدر جذب المنافع العملية التي أحدثها العلم للبشر في أية رؤية للعالم. في أية حالة، وحتى عندما نُظمت الأماكن البرية على يد العقل، فقد كان هناك حس رومانسي ناشيء يحث على إعادة التقييم، وقد حظيت البرية في القرن الثامن عشر بتصور جديد مع شيوع فكرة السامي.

السامي THE SUBLIME

لقد تمّ حل التضارب في التراث اليهودي-المسيحي تجاه البرية في الفلسفة والأدب الحديث المبكر إلى شيء يقارب العدائية الكاملة. فلقد فسرت (النظرية المقدسة للأرض) (Sacred Theory of the Earth، 1884) لتوماس بيرنت (Thomas Burnet) السلاسل الجبلية أنها نتيجة مادية لغضب الله من البشر، ندباً أُصيب بها ما كان سابقاً كوكباً بلا تجاعيد بفعل (الطوفان العظيم) الذي نجا منه نوح وعائلته. انشقت القشرة الأرضية -كما دلل- مطلقةً طوفان مدمر من داخل الكوكب تاركاً جنة عدن الأرضية مضروبة ومحطمة. ورغم ذلك، وجد قُرّاء بيرنت الرعب الرؤيوي لهذا العالم مغرٍ على نحو غريب، ومن بينهم شاب يافع عُرف فيما بعد بكتابه (تأملات عن الثورة في فرنسا)، يدعي أديموند بيرك (Edmund Burke، 1729-97). فكتابه (مساءلة فلسفية عن أصل أفكارنا عن السامي والجميل) يمثّل، كما يوضح شاما، تياراً

معاكساً في فلسفة (التنوير)، مع تنصيب بيرك نفسه (كاهن الغموض). بالنسبة لشاما، فقد وُجد سمو بيرك في «الخيال والظلمة والخوف والارتداد، وفي كهف وشقوق، وعلى شفا جرف، وتحت غطاء سحابي، وفي أخاديد الأرض» (Schama 1995: 450). بينما يثير الجميل مشاعر البهجة حسب، يدعي بيرك أن "العاطفة التي يثيرها العظيم والسامي في الطبيعة... هي اندهاش: والاندهاش هو تلك الهالة للروح، التي تتعلّق فيها كل حركاتها، مع شيء من الرعب" (Burke, 1990: 53). يمشق الجميل لصغره، ونعومته، ورقته: أما السامي فيُعجب به لاتساعه، وقوته الغالبة. وقد أظهر النقاد النسويون أن الصفات المرتبطة بالسامي والجميل تصنف حسب الجنس، واستنتجوا -ربما بقليل من العدالة- أن "اللحظة السامية هي على الأخص ذكرية" (Day 1996: 188). تماماً مثلما تُشوِّه الأنثى والجميل، بمقارنتهما بالسامي المذكر في تعريفات بيرك -كما يُدّعى- كذلك تستثنى النساء من اللقاء بالبرية.

لقد نُشرت (مساءلة) (Enquiry) بيرك (Burke) في 1757، إلا أن الشعر الرومنسي حينذاك هو من وجدت فيه البرية السامية تمجيدها الأدبي. فالمناظر الطبيعية الأكثر حميمية للشعر الرومانسي مثل المرتفعات الإسكتلندية ومقاطعة البحيرة، قد اكتسبت شهرتها من خلال تشبيههم بالمكان الذي يتسم بالطراز البدائي للسامي الأوروبي -(جبال الألب). يجعل ويليام وردزورث- على سبيل المثال -من تسلق الجبال الإنجليزية دورةً تدريبية في الورع، على الرغم من أن من يوّجه لها الخطاب في: "إلى- في صعودها الأول إلى قمة هيلفيلين Helvellyn" أنثى تحديداً.

انظر! إلى الغابات والمروج المتضائلة:
كم واسعة تلك الهاوية هناك!
انظر! إلى الغيوم، إلى الظلال الجليلة!
وإلى التلألآت، وهذا المعرض السماوي!
واسطوانة الاضطراب
التي أنتجت آلاف السلاسل
سلسلة، وخليج، ومحيط ناء
يلمع مثل درع فضي!
سيدتي! حلقي الآن -تورثي
جبال الألب أو الآنديز-فهما لك!" (Wordsworth 1987:173)

لا يتخلى هذا الورع عن أبعاده الدينية، على الرغم من أن إله وردزورث لم يكن -في باكورة أعماله على الأقل- مسيحياً عُرفاً. تجد "أبياتا كتبت فوق أبرشية تهنترن بأميال قليلة) الشاعر مدفوعاً بـ (حضور):

"... إحساس سام بشيء يتخلل بعمق كبير،
مسكنه ضوء الشموس الغاربات،
والمحيط المدور والهواء الحي،
والسماء الزرقاء، وعقل الإنسان:
حركةً وروحاً، يُكرِهُ
كل الأشياء المفكرة، كل الأشياء ذات العقول" (164: 1987)

أسهمت أخته -دوروثي (Dorothy)- بتوصيفات السامي لـ (دليل إلى البحيرات) (Guide to the Lakes)، لويليامز (Williams) وقد تعلمّ وردزورث الأخ والأخت على حد سواء، تقديرهما جزئياً من (إقامة قصيرة في السويد) (.A Short Residence in Sweden 1796) للداعية النسوية المتشددة ميرى وولستونكراف (-Mary woll Stonecraft، 1759 97). وهي تبدو وكأنها مدفوعة (بالجماليات البرية) للسويد مثل معاصريها الذكور:

«ولّد الاندفاع الأرعن للسيل المرتد من التجاويف المظلمة التي تسخر من العين الفاحصة نشاطاً متساوياً في عقلي: تندفع أفكاري من الأرض إلى السماء كالسهم، وأسأل نفسي لمَ أنا مكبّل بقيود الحياة وبؤسها؟ ومع ذلك فالعواطف الجياشة التي أثارها ذلك الشيء السامي كانت مبهجة ...» (Wollstonecraft and Godwin 1987:153).

يمكن أن تكون الفئات قد تأثرت بالجَنْوَسة (gendered). إلا أن التجربة لم تتعرض للتقيد سواءً عن طريق الجنس الثقافي (gender) أو المكان. ففي قصيدة بيرسي شيلي(Percy Shelly) (جبل بلانك) (Mount Blanc)، يلهب الأصل الألبي الخيال. فقد رأى الناقد البيئوي كارل كروبير (Karl Kroeber) أن «قصيدة شيلي تكشف التفاعل الحرفي الووردزورثي بين العقل والمناظر الطبيعية» (Kroeber 1994: 127). حيث تستغل القصيدة الإرداف الخُلفي (للصوت الصامت) للجبل، عاكسةً بتناقضها عقل الشاعر (الذي يترجم ويستقبل بشكل سلبي/ الآن تأثيرات سريعة. والعالم السياسي الأكبر الذي تواجه تفاهاته وخداعه على حد سواء: "إن لك صوتاً أيها الجبل العظيم، كي يبطل/رموزاً هائلة من الخداع والبلاء".

ولذلك، فإذا احتاج السامي درجة من الرعب؛ كي يستحث الحيرة الروحية، أو حتى السياسية المطلوبة، فسوف يكون دائماً ضعيفاً في وجه التغيير التقني والثقافي. فلقد أحكمت الحضارة الأوروبية سيادتها على جبالها بالقطارات، والطرق ومصاعد التزلج، بينما جلب استكشاف الغرب الأمريكي أخباراً عن منطقة الجراند كانيون (Grand Canyon) وجبال روكي (Rocky Mountains) وهذا ما جعل براري العالم القديم تبدو مدجّنة بلا جدل.

برية العالم الجديد NEW WORLD WILDERNESS

يمكن عدّ (وولدن) ثورو آخر محطة في رعوية العالم القديم في الأدب الأمريكي، لأنها تصادم مع التقنية والثقة الثقافية المستقلة للجمهورية الشابة على حد سواء. كما يمكن لـ (غابات ماين) (Maine Woods) الذي وضعه في (1964). بقدر مماثل من المبالغة في التبسيط، أن يوضح أنه مثال مبكر لتراث البرية الذي يستعير بلاغة الانسحاب القديمة ويطبقها على أميال لا نهاية لها من المناظر الطبيعية السامية في أمريكا. بعد تسلقه جبل كتادن (Mount Ktaadn)، يكتب ثورو:

«من الصعب أن نفكر بمنطقة لم يأهلها الإنسان. فنحن نفترض عادةً حضوره وتأثيره في كل مكان. ومع أننا لا نرى طبيعة نقية، ما لم نرها رحبة، وموحشة، وبلا بشر ... كانت الطبيعة هنا شيئاً وحشياً ومرعباً، إلا أنها جميلة. كانت تلك هي ذات الأرض التي سمعنا عنها، مصنوعة من العدم والليل العتيق» (71 :1983).

تحققت بصيرته بينما كان واقفاً على ذروة ترتفع 5.300 قدم فوق سطح البحر. إلا أنها تركته في خشية من جسده، وكذلك من البرية التي تضمه:

«هذا الأمر الذي أنشدُّ إليه أضحى غريباً جداً عنّي. أنا لا أخاف من الأرواح، أو الأشباح، التي أنا واحد منها، -التي يمكن أن يخاف جسدي منها،- لكنني أخشى الأجساد، أرتعد عند مقابلتهم. ما هو هذا التيتان[1] (Titan) الذي تملكني؟ يتحدث بالأسرار! أفكّر في حياتنا في الطبيعة،- يومياً لنصبح مادة ظاهرة، لكي نتصل بها، -بالصخور، والأشجار، والريح على وجناتنا! والأرض الجامدة! والعالم الحقيقي! والفطرة السليمة! الاتصال! الاتصال! من نحن؟ وأين نحن؟»

---

1 هو واحد من أسرة الجبابرة التي حكمت العالم قبل آلهة الأولمب.

يميل التحريض السامي لمشهد الجبل، وشبه الهستيريا التي تخولها عند لحظة (الاتصال)، إلى نقض المقاربة المهدّدة الدائمة لتلك البرية الأخرى، الجسد البشري. أما الانفعالات التي تلازم حدود الذكاء البشري وقضية الحيوانات فسوف يناقش في الفصل الثامن.

أسهم أحد تابعي ثورو المتحمسين، المهاجر الاسكتلندي جون موير (John Muir, 1838-1914) أكثر من أي كاتب آخر في تأسيس البرية محكاً للهوية الثقافية الأمريكية، وأساساً لنشاطات الحماية. فأكثر ما يشتهر به ترنمه بفضائل جبال سيرا نيفادا (Sierra NeVada) في كليفورنيا وبحملاته السياسية التي كان يقودها نيابة عن البرية. في (صيفي الأول في سيرا) (My first Summer in Sierra). تسرد افتتاحية مجلة موير الصادرة في 15 تموز من عام 1869 وصف مشهد لـ «قباب وأودية ضيقة سامية، وغابات مظلمة متصعدة، ومجموعة قمم خلابة تطاول السماء، كل معلمة تشع، عاكسة الجمال الذي ينسكب في لحمنا وعظامنا تماماً مثل أشعة الدفء المتصاعدة من النار» (Muir 1992: 232). ينصّب بول بروكس(Paul Brooks) - (التحدث باسم الطبيعة) (Speaking for nature) - موير إضافة إلى جون بوروغز John Burroughs واحداً من آباء الحماية الأمريكية. شارحاً كيف يتحرّ مسؤولياته المحلية، ويتعجب قائلاً "لكم تختلف نبرات صوته عندما يقفل عائداً إلى جباله المحبوبة! (Brooks 1980: 21-22). يعدّ نثرموير المُحكَم علامة أنه واحد من المتحدثين باسم الطبيعة من وجهة نظر بروكس، الذي يشارف منهجه النقدي حدّ العبادة. فقد أصبح (وادي يوزمايت) (Yosemite Valley) بالفعل أول مكان في أمريكيا محمي بموجب مرسوم للكونجرس صدر في 1864. وربما أفضت كتابات موير ونشاطه الشخصي إلى خلق منتزه يوزيمايت القومي في عام 1890، وإلى تشكيل منظمة حماية البرية في عام 1892. ونادي سيرا، الذي يسميه بروكس «أقوى منظمة حماية في القُص الغربي» (Brooks 1980: 23).

تدعي دانييل باين (Daniel Payne) أنه «من الصعب المغالاة في أهمية مساهمة جون ميور في (حركة حماية البرية)» (1996: 85). مستشهدةً بمحاولاته التي لا تعرف الكلل، للتأثير على أعضاء الكونجرس، ومشاركته لجان ونقاشات الكونجرس، وكتاباته المثمرة وحتى رحلة التخييم التي قام بها برفقة الرئيس ثيودور رزوفلت. بالنسبة لماكس أويلستشليجر(Max Oelschlager). فقد لعب موير (Muir) أيضاً دوراً معاصراً يعيننا في تطوير (وعي زمن حجري قديم) جديد سوف ينسخ النظرة العالمية الآلية": نظريته اللاهوتية البرية- وهي وحدة وجود ثورية تبصُرية معمّقة- هي تطور معاصر يبعث الحياة بالحس القديم بقدسية كل الكينونات"

(p.173). قد يبدو هذا منتقضاً بفعل التقوى المرفهية الواضحة لتجربة موير للسامي على (القبة الشمالية)، فقد يقدّمُ نفسه "ساجداً بتذلل أمام الاستعراض الهائل لقوة الله" (p.238). وفي موضع آخر، يؤكد موير -على الرغم من ذلك- أنه "عندما نحاول أن نلتقط أي شيء بذاته، نراه ملتصقاً مع كل الأشياء الأخرى في الكون. الواحد الذي يسحر قلباً مثل قلبنا لا بد أن يدق في كل بلورة وخلية، ونشعر كأننا نتوقف عن التحدث إلى النباتات والحيوانات كسكان جبال زملاء لنا وودودين، (p.248). إنه ناقد حاد وساخر، للفوقية البشرية، ففي افتتاحية مذكرات يسخر من "طبقة الرجال العديدة"، الذين "يندهلون بشكل مؤلم أينما وجدوا شيئاً- حياً أو ميتاً، في أرجاء كون الله- لا يستطيعون أكله أو تطويعه بطريقة معينة يسمونها مفيدة لأنفسهم" (p.106). ويدلل موير أن التماسيح، والأسود، والسموم، والأمراض تشكّل كلها دليلاً قاطعاً أن الخلق لم يصطنع ابتداءً للاستخدام والرغد البشري، وأن كل شيء حي ابتداءً من "المخلوق متناهي الصغر الذي لا يرى إلا عبر المجهر، له قيمة جوهرية [في ذاته]. حتى أنه يثبت قائلاً "إذا ما تحتم اندلاع حرب بين وحوش البراري والإنسان السيد، فسوف أميل للتعاطف مع الدببة" (p.155). ورع الفوقية البيئوية هذا، قد وُجِدَ جنباً إلى جنب- مع ذلك- مع المعرفة العلمية المعمَّقة لعلم النبات وعلم طبقات الأرض.

المشاكل مع البرية THE TROUBLE WITH WILDERNESS

على الرغم من أن أولسيتشليجر جذب الانتباه إلى الطرائق التي من خلالها يهاجم موير عجرفة (الإنسان السيد)، ويعتنق روحانية أكثر شمولية، فمن الممكن التدليل أنه لم يفلح في إظهار الجدوى من وراء مثل هذه النظرية اللاهوتية القائلة بوحدة الوجود. فهو ينتقد (حقبة ما بعد الحداثة) العابثة، والمشكّكة، والمتشظية، لأنها تُفهم عادةً أنها امتدادٌ متساهلٌ للحداثة المهلكة بيئوياً، والآلية، ويطرح أن البديل الوحيد للهاجس الأناني المسكون بأنظمة الإشارة الإنسانية، هو فكرته عن فوقية بيئوية ما بعد حداثية أصيلة سوف تعيد تقديس الطبيعة، وتوحد العلم (الكلّي) مع ديانة البرية. وعلى غرار كثير من نقاد علم التبيؤ المتعمق، يفترض أن المشاكل البيئوية تتجذر من مصدر أخلاقي أو روحي واحد، وأن اعتناق مذهب وحدة الوجود سوف -يؤدي- لحل هذه المشاكل. ولكن إذا تطابق الله مع الكون، فهذا يمسح- جدلياً- التمايز الذي يعد أساساً للاهوت التقليدي -بين ماهية حالة الأشياء، وبين إرادة المشيئة الإلهية لهذه الأشياء أن تكون عليه: فعلى النظرية اللاهوتية لوحدة الوجود أن تعبد الجداول العذبة في وادي يوزمايت مكبات النفايات

أيضاً، وهذا ما سيتناقض مع خطاب موير البليغ عن نقاوة البرية ومعارضتها الأساسية للعوالم القذرة (للإنسان السيد). وبالنسبة للناقد الأدبي، هنالك اعتراض آخر، ذلك أن نثر موير يبادل بين التعداد المضجر للأنواع، والاغراق السامي المتكرر الذي يحوي صيغة تعجبية بعد كل شبهي جملة. هناك لحظات لفكرة (مربكة) فلسفياً وتكثيف حالم، ولكن إجمالاً تُعدُّ كتاباته مسفهة.

وفقاً للعرض الذي تناول البرية في سيرا، فقد كتب موير الكتاب، والتقط آنسل آدمز (Ansel Adams, 1902-84) الصور. حيث كان يعود إلى يوزيمايت مرة في السنة على الأقل منذ طفولته، متعلماً كيف يلتقط ويعالج الصور الفوتوغرافية، في مستجم نادي سيرا هناك، ويقوم بنشرهم في نشرة النادي. وبعد وفاته، خصّصت ولاية كاليفورنيا أكثر من 100.000 فدان من أراضي سيرا (منطقة آنسل أدامز البرية). على الرغم أن آدمز قد التقط ما يزيد على 40.000 صورة فوتوغرافية، للحياة الساكنة، والمواضيع التوثيقية، والكهوف والأودية الضيّقة، فقد كانت أفضل صوره المعروفة، هي تلك التي التقطتها بالأبيض والأسود للجبال والأودية، حيث بلغت البرية فيها حالة شبيهة بالأيقونة. تلخص صوره نقاء البرية من خلال اختزالها للمناظر الطبيعية لمناطق ظاهرة تماماً من السماء، والصخر، والماء، والغابة، في حين يلتحم تدرجها الملحمي وسكونها الغريب ليقدم اعتماداً على الذات رواقي[1]. بلغ آدمز حد الكمال تقنياً، وقد طور أسلوب ناضج ومستدام رسّخ عمق الحقل وسلسلة الجبال المتناغمة الممتدة. فعادة ما كان يلتقط صوراً في الشتاء أو بواكير الربيع حينما يكون الجو في أصفى حالاته، وكان يستخدم مرشحات حمراء أو خضراء ليعزز التباين بين الصخر والثلج، والسماء والغيم. كانت النتيجة النهائية هي إعطاء الجبال قيمة قوية وخالدة، مفسحاً المجال أمامهم ليحتفظوا بأخرية سامية لا نظير لها، طالما امتدحها موير في سلسلة جبال سيرا: "من رؤى عامة ليس هناك أية علامة للإنسان ظاهرة عليها: ولا أي شيء يقترح العمق الرائع وعظمة نحتها" (Muir, 1992: 614).

ومع ذلك فإنّ ويليام كرونون (William Cronon) حدّد هذه (الأخرية) أنها جزءٌ من (المشاكل مع البرية). ففي سعيه لترويج منظور نقدي أكثر تشكيكية وأقل تحيّزاً، يدلل كرنون أن البرية «تعبر حقاً عن وتنتج القيم ذاتها التي يسعى من يكرسون أنفسهم لها إلى رفضها» (80 :1996). تقدّم هذه الصورة المتشكلة عن سكان المدن المتغربين، والذين يشترون أعمال موير وأتباعه ولكن نادراً ما يحاولون أن يحاكوه، مثالاً مقدساً:

---

1 [1] مذهب فلسفي يقول أن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح والسرور.

«تعدُّ البرية النقيض الطبيعي غير المتردي لمدنية غير طبيعية فقدت روحها. إنها موئل الحرية التي نتمكن فيها من شفاء أنفسنا الحقيقية التي ضيعناها في التأثيرات المفسدة لحياواتنا الاصطناعية. وأهم من ذلك كله، أنها المنظر الطبيعي المطلق للأصالة» (Cronon 1996:80).

هذه الرؤية لها آثار مهلكة لمفاهيمنا عن الطبيعة، وعن أنفسنا، فهي تقترح أن الطبيعة أصيلةٌ فقط إذا كنا غائبين عنها غياباً كاملاً. يتحقق هذا (النقاء) عادةً على حساب إزالة التاريخ البشري بكل أجزائه منه بالتفاصيل نفسها التي أجراها الأدب الرعوي. في حالة يوزمايت، هذه الأسطورة عن (البرية غير المأهولة) عنت أن هنود اهواهنيتشي (Ahwahneechee Indians)، وعاملوا المناجم البيض الذين عاشوا وعملوا هناك قد طُردوا.

يمثل (نهاية الطبيعة) (The End of Nature, 1990) لبيل مكيبن (Bill Mckibben) أسطورة كرونر عن نقاء البرية. في الماضي، يدلل قائلاً، كان التلوث والخراب ظواهر محلية، وحتى أن التلويث المنتشر بفعل ال د.د.ت أو الغبار الذري المنطلق من تجارب الأسلحة النووية إلى الغلاف الجوي يمكن أن يختفي. ولكن حلول التغيُّر المناخي في تاريخ الإنسان، أو (الانحباس الحراري)، قد غيّر الوضع، ولوّث بشكل أساسي الكوكب كله:

«لقد غيرنا الغلاف الجوي، وبذلك فإننا نغيّر الطقس. وبتغيرنا للطقس، فإننا نجعل من كل بقعة على وجه البسيطة صناعة إنسانية مصطنعة. لقد حرمنا الطبيعة من استقلاليتها، وهذا يعد فتاكاً لمعناها. استقلالية الطبيعة هو معناها: بدونه ليس هناك شيء سوانا». (Mckibben, 1990:54) من الآن فصاعداً، لن يكون هناك شيء بري بصدق، و"الطفل الذي يولد اليوم لن يعرف البتة صيفاً طبيعياً، أو خريفاً طبيعياً أو شتاءً، أو ربيعاً (1990: 55). رعب مكيبن يبرره الدليل العلمي سالف الذكر، إنه يتشكل بفعل تصوّر (للطبيعة)، عالمي أو حتمي على الإطلاق. ويمكن الإشارة –على سبيل المثال- أن غاز الميثان المنبعث من ركامات النمل الأبيض كاف بالضرورة لعمل مساهمة يمكن حسابها للتراكيز الكونية لغازات الدفيئة[1]، ولكن هذه الحشرات لم (تقضِ على الطبيعة). ومع ذلك، يعزز فهم مكيبن عن الطبيعة فكرةً عن البرية، تقتضي أن أي تعديل على البيئة هو شكل من أشكال التلويث.

---

1 زيادة حرارة الجو في أعقاب ارتفاع في تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون وتراكيز ملوثات أخرى تبتلع الأشعة ذات الموجات الطويلة المنطلقة من الكرة الأرضية. انظر: حميد محمد البياتي، ص 242.

تبدو المشكلة اللاحقة واضحةً: فضاء البرية المثالي هو نقي كلياً بفضل استقلالها عن البشر، ولكن السرود البرية المثالية تفترض وجود رعية بشرية، تعدّ البرية المكان الأكثر أصالة لوجودها. مثل هذا النموذج لا يخفق في تمثيل البرية فقط، ولكنه يعفينا من اتخاذ منهج مسؤول في حياتنا اليومية: فأعمالنا وحياتنا الأهلية، لا يجب التكفير عنها في إطار هذا النموذج، لذا فالنشاطات التي نقوم بها تفلت من التمحيص (انظر: Cronon, 1996:81). فالبرية -إذاً- هي إيديولوجية بمعنى أنها تمحو التاريخ الاجتماعي والسياسي الذي أبرزها، ممتدة إلى السياسة الرجعية، وكذلك إلى بغض الجنس البشري الذي يرتبط عادة مع ثورو. وفي أفضل الحالات، تغامر الخبرة البرية وفلسفتها البيئوية المتعمقة بمماثلتها مع مساعي الأثرياء للاستجمام التي تبيع الأصالة. بينما تُغطي على الاستهلاكية الصناعية التي تمكنهم من الوجود. إذا ربطنا الوعي بالبرية بالأنماط الاجتماعية للحياة، أو الطبقات الاجتماعية، التي أخذت البرية بها زمام المبادرة، فإننا بذلك نملك أساسات تتعرض من خلالها لبعضٍ من سخرية تيموثي ليوك Timothy Luke:

"من المنطق أن يَدين علماء التبيؤ المتعمق الزيادة المفرطة في عدد السكان، أو يعيدوا تقديس المنطقة الأحيائية التي يتمنون التمتع بها. لكن لسوء الحظ، ليس بوسع البدو آكلوا الدويدات إنتاج ألواح ركوب الأمواج عالية-الدقة المولّفة، أو درّاجات هوائية بثماني عشرة سرعة، أو طائرات شراعية معلقة بالغة التعقيد. من سيصنع مثل هذه البضائع أو ينتج الطعام بينما يسعى الآخرون وراء تقدير الذات والمساواة المركزية بين الأحياء؟ فالإدانة البدائية المناهضة للحداثة ولمستقبل المدنية الإنسانية الصناعية التي يصرح بها الكثير من نقاد علم التبيؤ المتعمق ليست في الواقع جامعة، بل إنّ جزيئاتها المتناقضة يتم تعتيمها في الأنماط الاجتماعية للحياة التي تولّد هذا الوعي" (Luke, 1997:21). فالنقد البيئوي بتمجيده فكرة البرية والكتّاب الذين سبروها، يجازف بالتعرض للتعقيد مع هذه الإيدولوجيا. فالعلم البيئوي المتعمق -يمكن الاحتجاج- أنه قد تآمر مع بعض النقاد البيئويين الأمريكيين للترويج لمشاعر الأصالة الجياشة التي تعدّ البرية محكها. لا يتوجب التدليل لهجر البرية إلى الرحمات الرقيقة لأرباب المزارع الكبيرة والمطورون من أجل نقد هذا الطرح، ولكن ينبغي بدلاً من ذلك الترويج لمشاعر المسؤولية التي تتخذ من العلم البيئوي، وليس وحدة الوجود مرشداً لها. فالخيار بين الحداثة المتراصة والفتاكة بيئوياً، وبين الورع التقديسي، هو تقسيم زائف، يمكن للنقد البيئوي أن يطوّقه من خلال توجيه نفعي وسياسي. فمشكلة المسؤولية الأساسية ليست ما نحن البشر عليه، أو كيف يمكن أن (نكون) أفضل، وأكثر طبيعية، وبدائية أو أصالة. ولكن المشكلة فيما نفعل. ويمكن أن يتوقف النقد البيئوي بعد ذلك عن

السعي وراء خطاب خاص بالطبيعة أكثر صدقية وتنويراً. شريطة أن يسعى وراء بيانٍ أكثر فاعلية في التحويل والتلطيف.

أوستين، وليوبولد، وأبيي: الكتابة التي تناولت الطبيعة فــي القرن العشرين

AUSTIN. LEOPOLD. AND ABBEY: TWENTIETH CENTURY. NATURE WRITING

لائحة النصوص المعيارية التي تناولت البرية الأمريكية هي لائحة ممتدة إلى حد كبير، ولكن يعدّ ثورو وموير الرمزين الأساسيين في القرن التاسع عشر. وماري أوستين (Mary Austin. 1886-1934). وآلدو ليوبولد (Aldo Leopold. 1887-1948) وأدوارد أبيي (Edward Abbey. 1927-89) هم الأساسيون أو مجمل من كتب في القرن العشرين. ومن بين هؤلاء، يعدّ ليوبارد الأقل ضعفاً في مواجهة حجة كرونون: ذلك أنه يتعامل مع اللغة الدينية والخيال بحذر شديد. مفضلاً على ذلك أن يوصل ملاحظاته حول التاريخ الطبيعي وحججه الفلسفية من خلال لغة ذاتي موضوعية، وغير انفعالية. شكلت صياغته لـ (أرض أخلاق) حيوية مركزية في خاتمة (مقاطعة آلمناك الرملية) (A Sand Country Almanak. 1949) كبرى إنجازاته التي قدمها للفلاسفة والمؤرخين، حيث دفعته دراسته للأسباب الترفيهية، والاقتصادية، والعلمية، أو أية أسباب تعد مركزية للإنسان كي يصون البرية. إلى الاستنتاج أنه على غرار أهمية هذه الأشياء، فإننا بحاجة وبالدرجة نفسها من الإلحاح إلى حصن أخلاقي لا يعيقه الغلو البشري في الوطنية :» تغير أرض الأخلاق الدور الذي يقوم به الجنس البشري(Homo Sapiens) من دور الغازي لأعضاء مجتمع الأرض، إلى عنصر من السواد ومواطن في هذه الأرض. إنها تفترض الاحترام لرفقائه الأعضاء، كما تستوجب أيضاً احتراماً للمجتمع ذاته (Leopold. 1968:204). تتسم صياغته لأرض الأخلاق بالذكاء والبساطة الواضحة، حيث أنها تجمع بين محكات معيارية جمالية وعلمية على حد سواء: "يكون الشيء صحيحاً عندما ينزح نحو صون التكامل، والاستقرار، والجمال للمجتمع الأحيائي. ويكون خطأ عندما ينزح نحو الاتجاه المعاكس" (pp.224-5). وليس الكائن بمفرده من يجتذب معايير أخلاقية، ولكن كل (المجتمع) الذي تكون فيه الكينونات البشرية ليس أكثر أو أقل من (مواطنين).

ربما يظهر ليوبولد (Leopold) في قوله المضلل كما –يبدو- مشاكل فلسفية وبيئوية

أساسية. فاستعارة المواطنة تروق للنفس إلا أن المجتمعات البشرية تربط المواطنة بحزمة من الحقوق والواجبات المتبادلة، ويبدو هنا أن واجباتنا مقتصرة على البرية، لكننا لا نأخذ شيئاً بالمقابل. إضافة إلى ذلك، تؤكد المعادلة على القيمة الأخلاقية فقط، وليس التدليل -قُل-، لصالح مجتمع أحيائي مستقر. بينما يظهر جلياً أننا يجب أن نفضل بيئة صحية، إلا أن الدوافع الخالية من الغلو والتعصب الوطني للرغبة في بيئة صحية، لا يتم توفيرها. وربما الموضوع الأكثر إشكالية من ذلك، هو أصل فكرة الـ (مجتمع الأحيائي) بوصفه مكاناً معروفاً وثابتاً للقيمة. وهذا يبدو إشكالياً على نحو كبير من منظور علم التبيؤ النظري الحديث. حيث يتم التعامل مع لغة ليوبارد عن التبيؤ في يومنا هذا بشيء من الحذر. فهي تقترح شيئاً من التنبؤية التي نادراً ما تتوفر. فالنظم الطبيعية تفترض فكرة (المجتمع) بوصفها أفضلية للكل البيئوي على مجموع أجزائه. لكن وكما يرى برينان (Brennan) أن «تبقى الاحتمالية عندما نواجه نظام بيئوي مستقر بشكل واضح، ويظهر تنوعاً في الأنواع مع تنظيم ذاتي صريح، إننا ... يمكن أن نواجَه بشيء يكون على ما هو عليه بالمصادفة المحضة» (1995:211). تنتهك بعض الأنواع حدود النظام البيئوي، وتفيد بعض الأنواع من التغير، بينما تتضرر أنواع أخرى أو تُجتث: لا يصمد أو ينهار النظام البيئوي بأكمله. فليس من الصعب فقط تأسيس حدود الأنظمة البيئوية، فالكلمة نفسها تقترح بشكل مضلِّل، «مفهوماً مادياً لاستقرار نظام آلي» (Botkin 1992:42). إذا عجزنا عن شرح المجتمع بشكل لائق، وإذا لم نستطيع تأسيس حالة استقرار نموذجية له، إذاً فليس (التكامل) ولا (الاستقرار) هما المعياران الموضوعيان اللذان نحتاجهما لاتخاذ إجراء أخلاقي. يبدو أن الجمال وحده هو ما يتبقى، علماً أنه يصعب تعريفه أيضاً، ولكنه ذاته ما يسعى ليوبولد لتمثيله عن طريق سلسلة من التشابيه بين فنون البشر والطبيعة.

في الجزء الأول والثاني من (الألمناك) (Almanak)، يستثمر ليوبولد –العالم البيئوي المحترف والأستاذ في إدارة رياضة اصطياد الطرائد – معرفته العلمية لبناء سلسلة رائعة من القصص عن براعة الطبيعة: كيف يلون النهر منظره الطبيعي: وكيف تغلف الشجرة تاريخها الخاص بها، وكيف يقرأ كلب الصيد القصائد الشُميّة «التي كتبتها مخلوقات صامتة، لا يعرفها أحد في ليلة الصيف» (Leopold 1968:43). ويروي قصصاً عن الملحمة المستنقعية لطائر الكركي الناعق، ومأساة الحمامة المسافرة، أو أوديسة الذرَّة (س) خلال نباتات البرية وحيواناتها المعقدة، ونباتات وحيوانات المناطق الزراعية المُبسطة. تبقى فكرة ليوبولد عن البرية –في جوانب معينة- انسحاباً أو أرض اختبار للصيادين الذكور قريبة من الرؤية الازدواجية التي ينتقدها كرونون

(Cronon). ولكن في الوقت نفسه، يُعَدُّ ليوبولد العالم المحترف الوحيد في لائحة الكتّاب المهاريين، علاوةً على أنه يكتب لجمهور متشكك يعمل في ومع البراري. فملحمته المتشددة عن الأرض تعترف بمنافع الحداثة وبحتمية التدخل البشري:

"على العموم، مشكلتنا الحالية هي مشكلة اتجاهات وتطبيقات. فنحن نعيد قولبة الهامبرا (Alhambra) [صحراء] مستخدمين جرافة بخارية، ونشعر بالفخر من مساحة الياردات التي ننقلها. ومن غير المحتمل أن نتخلى عن جرافتنا، التي تتمتع -بالنهاية- بنقاط جيدة كثيرة، لكننا بحاجة إلى حزمة معايير أكثر لطافة وموضوعية: كي نتمكن من استخدام هذه الجرافة بالطريقة المثلى (1968: 225-226).

رغم مشاركة إدوارد أبيي (Edward Abbey) (يوبولد) منظور الفوقية البيئوية، ونيلها إعجاب الكثير من النقاد البيئويين والنشطاء، إلا أن كتاباتها تمثل المشكلة تماماً مع البرية. فزيارته بوصفه (حارس متنزه النصب الوطني في آركس أوتا) (Park Ranger in the Arches National Monument Utah in) يتم تبريرها في (ناسك الصحراء) (Desert Solitaire، 1968). كما يلي:

"انا لست هنا لأتجنب لبرهة من الزمن صخب وقذارة ودوامة الأدوات الثقافية فحسب، ولكن لأواجه أيضاً الآن وبشكل مباشر إن أمكن، العظام العارية للوجود، والعناصري منها والأساسي، والأعماق التي تسندنا ... أن أقابل الإله أو مدوزه[1] (Medusa) وجهاً لوجه، حتى لو كلف هذا الأمر المجازفة بكل ما هو إنساني داخلي. أحلم بروحانية قاسية ووحشية تمتزج بها النفس العارية مع العالم اللاإنساني وتحافظ على نوع من البقاء متصلة به، متفردة ومعزولة. التناقض الظاهري وأعماق الحقيقة (Abbey 1992:6).

جسّد ارتقاء ثورو من كتادن (Ktaadn) تناقضاً مشابهاً. فالرغبة في (الاتصال) وفي (الواقع) تتصارع مع التأطير الثنائي لـ (تيتان) ثورو و(إله ومدوَزة) أبيي. فكلا الكاتبين يظهران فردية صارمة على المستويين السياسي والأسلوبي، على الرغم من أن أبيي ينحرف أحياناً نحو جنون الارتياب الفاسد. ومع ذلك، فعمل آبيي يعج بالتلميحات الأدبية والفلسفية المتعلّمة، و-كما يعلق دانييل بين (Daniel Payne): "على الرغم من أن أبيي يقدم نفسه متحدثاً صريحاً ومباشراً،

1 إحدى الفرغونات الثلاث (gorgons) وميدوزة هي إحدى أخوات ثلاث في الميثولوجيا الإغريقية، مكسوات الرؤوس بالأفاعي بدلاً من الشعر، كان كل من ينظر إليهن يتحول إلى حجر. المترجم. انظر: منير البعلبكي، المورد، ص 364.

إلا أن كثيراً من كتاباته هي في الحقيقة مزيج مركب من القصة الشخصية، والصحافة، والفلسفة، والتاريخ الطبيعي، والتعليق السياسي، وسرد الحكايات ... المليء بالتناقض، والسخرية، والدعابة" (Payne 1996:153).

يصرح دون سشيز (Don Scheese) -الذي يدين لـ (ناسك الصحراء) بالفضل في تغيير حياته –موافقاً أن آبي هو «الشخصية الأكثر تشددية وهجوماً على المعتقدات التقديسية، في لائحة كتّاب البرية الميارية. ويوجهنا أن «نمنح أنفسنا الوقت كي ننخرط طويلاً ونتأمل الطبيعة. ونُدخل البرية ونجرّب الحرية. وأن نكون أحياء من أجل الاحتمالات التعويضية للبرية (1996: 315). يستحثنا أبيي أن نبتهج في المناظر الطبيعية التي من الواضح أنها غير واعدة في الصحراء الرملية التي يسكنها، ويستحضر حنقاً مبرراً لهجماته العنيفة ضد (السياحة الصناعية) ولعنة (Glen Canyon) على نهر كولورادو. أما روايته اللاحقة (عصابة مفتاح الربط) (The Monkey Wrench Gang, 1982) فقد استلهمت تشكيل (الأرض أولاً)، ومجموعات الإجراء المباشر أخرى. وفي الوقت ذاته، فإن حماسه للبنادق. وحمى الارتياب من الحكومة الاتحادية و(الشركات الكبرى)، ومساندته للمقاومة العنيفة للسلطة، يخشى منه أن يظهر حماة البيئة أنهم متحالفين مع الميليشيات التي تعدُّ العدة للحرب. يحذرنا سوالين كامبيل (SueEllen Campbell) من بعض الغيابات المقلقة في برية آبيي، فالهنود المحليون- على سبيل المثال- لم يُذكروا إلا نادراً وبطريقة استخفافية. والأكثر فظاعة، أن أبيي لم يتطرق إلى التجارب النووية التي تجري في نيفادا في هذا الوقت، على الرغم من آركس (Arches) قد تأثر بالسقط الإشعاعي. أسئلة كامبيل تعكس تخوفات كرونون: «أي تصّورٍ للعناصري يتجاهل السقط النووي؟ لماذا نعتقد أنه من الضروري أن نترك المجتمع لكي نعثر على الحقيقة؟ ما الذي نفقده إذا عارضنا البرية والثقافة؟» (Campbell 1998:24).

لا يعارض آبيي البرية والثقافة حسب، فهو يفرق بينهما على أساس من الجنس واضح، ويضفي الشبق على المناظر الطبيعية، رغبة منه في" أن يحتضن المشهد بحميمية، وعمق، وكليّة، تماماً مثلما يرغب رجل بامرأة حسناء" (5 :1992). إلا أن النساء الحقيقيات مغيبات تماماً في الواقع عن هذه البرية، باستثناء كونهم الطرف الآخر (للحبل الدموي) للحضارة التي تساعد البريةُ الرجلَ لقطعه: "(إلهي! أتساءل، ما هذه (القذارة) اللامعقولة التي نتحملها معظم حياتنا –هذه الرتابة العائلية (الزوجة العجوز نفسها (كل) ليلة)، (الوظائف) الغبية ذاتها عديمة الجدوى والمحبطة، هذه العجرفة (التي تخلو من المعاناة) للمسؤولين المنتخبين، [الخ]" (155

1992). هذا على الرغم من أن أبيي قد تزوج خمس مرات. ومع ذلك، ليس بوسعنا أن نفترض أن فكرة البرية تستثني أصلاً النساء، ناهيك عن أن السامي قد حُجز للشعراء الرومنسيين الذكور: ماري أوستن –على وجه الخصوص- قد قدمت معارضة مفيدة لأبيي، وفرصةً لإعادة تشكيل (البرية) أيضا.

مناظر أوستن الطبيمية جنوبية-غربية، قاحلة وقليلة السكان مثل مناظر آبيي، وتشارك أوستن مع أبيي أيضاً وسيلته لنثر وصفي، وشديد الوضوح. في عملها الأشهر (أرض شحيحة الأمطار) (Land of Little Raining, 1903)، تبدو أوستن متناغمة كثيراً مع وجود الطيور:

«في الوقت الذي تخلد حيوانات الجحور، وكل من يقتات عليها إلى النوم، تصب أسراب الطيور أثرها مع تلك الحركة المتلاشية الخاصة للريش المتحرك، تزقزق، وتشق الريح، وتحلق منعطفةً تجاه منكبها، تطشطش في المياه الضحلة، وتشرب بلذة، وترشرش بعض الزخات على معاطفها الرائعة، وتتلاشى من جديد بعيداً نحو الأشجار الخفيضة، وتسوّي ريشها بمناقيرها وتتبرج، محدثة أصواتاً رقيقة قانعة» (Austin 1996:13).

وفقاً لبويل (Buell)، فإن بطل أوستن- خصوصا- جغرافيةُ مجاريها المائية، وأنماط الحياة التي تخلقها ندرة المياه" (Buell 1995: 80). فالتحديات غير المعادية للبيئة تفضي بسكانها إلى مقتضيات غريبة: "كان هناك سياجٌ في ذلك الريف يسدّ مرعى الماشية، وعلى طول سارياتها الممتدة خمسة عشر ميلاً، بوسع المرء أن يجد طائراً أو اثنين تحت كل شريط من الظل لواحد من هذه السّاريات: وأحياناً يمكن أن يجد عصفوراً أو نسراً، بأجنحتها المفرودة ومناقيرها المنشقة، مدلّيةً رؤوسها في هدنة الظهيرة البيضاء" (Austin 1996:7).

ومع ذلك، فإن هذه برية للسكن الدائم، وليست -كما يصور ثورو، وموير، وآبيي- برية للإقامة المؤقتة، و"إن حالة الريف هي من تصنع استخدام الحياة هناك، ولن تسكن الأرض إلا وفقاً لموضتها هي" (Austin 1996:26). يظهر هذا من وجهة نظر الناقدة البيئوية النسوية فيرا نوروود (Vira Norwood) أن «الطبيعة والثقافة هما عمليتان متفاعلتان: حيث تتأثر الثقافة البشرية بالمناظر الطبيعية، كما أنها تؤثر بها أيضاً» (Norwood, 1996: 334). فهي تدلل أن النساء يكتبون عن البرية بطريقة مختلفة، فهنَّ يختبرن الانغماس وليس المواجهة، (الاعتراف) وليس (التحدي). جزء من هذا التبرير يقع في لغة أوستن الموضوعية وبنيتها السردية، التي –كما يلاحظ بويل- "تسمح أن يُقتبس الكتابُ في قصص أناس آخرين، ورؤية محدثها للصحراء كما

تراها عيون الطيور والحيوانات" (Buell, 1995: 176). بينما قد يكون أسلوب أوستن عملاً انحيازياً نحو الفوقية البشرية التي توقفت ببساطة تحفظ أو تكتم الكاتبات النساء، ويمكن أن ينظر إليه أيضاً بوصفه أداةً تقلل من مركزية الموضوع البشري، ليس عن طريق مجرد التأكيد -كما يرى موير- ولكن من خلال التعريض المحّنك على مستوى السرد.

يدعى أحد أكثر أعمال النقد البيئوي الحديث إثارة للتساؤل، والخاطئ في الوقت ذاته أن أوستن قد فكك مفهوم البرية ذاته. يظهر كتاب (البري والدّاجن) (The Wild and the Domestic, 2000) لبارني نيلسون (Barney Nelson) -من خلال جمعه لنماذج سير ذاتية، ونقد أدبي، وانعكاسات فلسفية، ونقاشات حول الصحراء وطرق إدارة الأرض- كيف تشكك أوستن في أسطورة أن البرية (ليست مكاناً للمرأة). مكررة التأكيد على الفصل على أساس الجنس بين البرية الذكر وبين المحلية الأنثى. على سبيل المثال، تنوه أن (الاعتماد على الذات). المتبجح للذكر الغربي البطل يتشكل أساساً في القدرة على تولّي الأعمال المنزلية (الأنثوية) مثل الطبخ وتصليح الثياب. وتنوه أيضاً أن الغرب يقر بمعاناة المرأة البديهية به قبل الشرق بزمن طويل، وأن أوستن قد وجدت الحرية والثقة بالنفس في منزل في ريف الجنوب-الغربي.

الجزء الرئيس في حجة نلسون يتمثل في دراسة مقارنة لأوستن وموير. تدلل فيها أن مفهوم موير عن يوزمايت Yosemite أنها جنة البرية البكر، ليس مغالطة تاريخية فحسب، ولكنه أدى أيضاً إلى إبعاد العمال، البيض، والإسبانيين، والهنود. عن مراعي الأراضي المرتفعة التي كانت تستخدم لقرابة أربعمئة عام. في حين يبدي موير ازدراءً للرعاة والغنم على حد سواء، تحترم أوستن المعرفة العملية وفلسفة الناس، وذكاء وجرأة حيواناتهم. وبما أن موير قد فَقَدَ عدداً كبيراً من الأغنام خلال فترة امتلاكه الإقطاعي القصيرة حينما كان يعمل راعياً في سيراز (200 غنمة، 100 حمل في حادثة واحدة). فمن الممكن أن يصير إلى صنع معروف من المحنة بتأسيسه يوزمايت منظراً طبيعياً سامياً "للترويح، والدراسة، وليس للعمل" في حين أن أوستن "تؤمن أن الأرض يجب أن تثمن غالياً كالوطن، وقد قاتلت لحماية حقوق السكان في مواجهة حاجات المدنية للأرض، والماء ومكان الترويح (Nelson 1996:75). وتدلل نيلسون أن موير قد أشاع (أسطورة) أن أغنام وأبقار المزارع الكبيرة تعمل على تدمير البيئة، مطلقاً عليها اسم "جراد ذو حوافر" وهذا أثر بشكل عدائي على سياسات الولاية الاتحادية حتى يومنا هذا.

قضية نيلسون أبعد من أن تكون مانعة، فأوستن تتعجب أيضاً "كم ستعمل الأغنام المدمّرة بجر النباتات الغضة إلى مأوى الشجيرات الشوكية" (p.40). مع ذلك، فإن ربط إبداعات أوستن

الأدبية بالقضية البيئية المحددة عن أراضي المزارع القاحلة. وليس بالقضايا الفلسفية العامة ذاتها، يدعو إلى قراءة جديدة. ويؤكد الحاجة إلى النقد البيئوي ليساءل حتى المجازات التي تُشيعُها المنظمات البيئية. فعندما يدفع نادي سيرا إلى مزيد من (البرية)، فهم بذلك يمثلون على صعيد الممارسة مصالح سكان الضواحي الأغنياء وليس العمال الريفيين، وصناعات الترويح وليس صناعات الاستخراج والزراعة. هذا التنويه إلى سياسة البرية يعدّ مهماً خاصةً للنقد البيئوي الأمريكي، الذي ظل حتى وقت قريب يميل للتأكيد على الجانب الروحي والأخلاقي، بينما يتجاهل الطرائق التي تكون بها البرية موضعاً للصراع الطبقي والجنسي.

ما وراء البرية BEYOND WILDERNESS

يمكن لقائمة الكتابات المعيارية التي تناولت البرية أن تضم أعمال آني ديلارد (Annie Dillard)، تيري تيمبست ويليامز (Terry Tempset Williams)، وباري لوبز (Bary Lopez)، وبيتر ماتثيسين (Peter Matthiessen) وجاري سنايدر (Gary Snyder)، فقد شكلت كتاباتهم مادة كبيرة للنقد البيئوي الأمريكي، وخصوصاً في مجلة (دراسات متداخلة الحقول في الأدب والبيئة) (Interdisciplinary Studies in Literature and EnVironment (ISLE)). كما تناول أيضاً آداب أخرى للعالم الجديد لاسيما التي أثرت جدلياً في البرية بطرائق محددة ثقافياً وجغرافياً: (المناطق النائية) في أستراليا بوصفها مكاناً برياً داخلياً -على سبيل المثال- و(شمال) كندا بوصفه مؤشراً قوياً على (البرية) غير المختزلة جغرافيا ومناخياً من جهة، وموقعاً مثيراً للجدل للصناعات عالية التقنية والنشاطات العسكرية من جهة أخرى.

في مطلع السبعينيات من القرن العشرين، عملت القومية الثقافة الكندية على نشر البرية على نشر بوصفها علامة فارقة وأداة للإيمان البيئوي. حيث يدعي بروس لتلجون (Bruce Littlejohn)، وجون بيرس (John Pearce) في مقدمة لكتاب مقتطفات «إذا ما كان هناك عامل واحد يفرق الأدب الكندي عن بقية الآداب القومية الأخرى، فإن أثر البرية هو ذلك العامل» (1973: 11). وقد عكست باكورة أعمال مارجريت أتوود (Margaret Atwood) هذا الاستغراق في البرية من جهة و-بفضل موهبتها ونجاحها- عملت على تعزيزه من جهة أخرى. حيث تعود بطلة رواية (الصعود إلى السطح) (Surfacing، 1979) إلى المناظر الطبيعية التي قضت بها طفولتها في كويبك الشمالية (Northern Quebec)، بزعم أنها تود أن تكتشف

ماذا حل بأبيها. فالتهديدات التي تتعرض لها البرية من تحطيب، ومشاريع توليد الكهرباء من القوة المائية، والسياحة التجارية، يُرمز لها كلها أنها (أمريكية)، دافعة البطلة إلى حالة متفاقمة من العزلة وجنون الارتياب. ترى البطلة هذا «البلد الحدودي» (p.20) فيما بعد أنه (منطقة محتلة) (p.111) "في الخليج أظهرت الأشجار المقطوعة والسواري المرقمة أين وُجد المساحون، وشركة الطاقة. بلادي-باعت أو أغرقت- مخزونها، ولقد بيع الناس مع الأرض والحيوانات، كانت مساومة، فتنزيلات، فبيع" (p.126).

فحزنها الذي لا ينقطع على الإجهاض المفروض بالقوة "للأسطح" التحم مع اكتشافها لجثة أبيها الغارقة في بحيرة. وفي النهاية غادرت القمرة برفقة وأصدقائها، منكرة أن لها اسماً من خلال (زعمها) أنها (متحضرة) (p.162). وهي -مع ذلك- تشعر بالحاجة إلى العودة، آملة أن "الأمريكيين" يمكن أن "يُراقبوا، وتُحدَس أفعالهم، ويُوقَفوا دون أن يُقلِّدوا" (p.183).

في سبعينيات القرن العشرين حظيت لوحات (مجموعة سبعة وتوم تومسون) (Group of SeVen and Thom Thomson) -التي رُسمت في أغلب الحالات في النصف الأول من القرن- بتقدير كبير، ليس لتقنيات الرسم المذهلة التي تحتويها فقط، بل بوصفها مناشدات قوية للقومية الكندية الناطقة بالإنجليزية الناشئة. على سبيل المثال، صوّرت (جزيرة الصنوبر) (Pine Island، 1914) لتومسون (Thomson)، غابات وبحيرات أونتاريو (Ontario) نقية على نحو جميل وشديدة بشكل جسور، تتشبث بصخرة الحجاب الواقي الكندي (Canadian Shield). وفي (موت عند المناظر الطبيعية) (Death by Landscape) وهي قصة قصيرة من مجموعة (إرشادات عن البرية) (Wildness Tips، 1991) تخيّم طبقات ذكريات آتوود الطفولية في البرية مع تأملات مرحلة الرشد على مجموعة من سبع لوحات: «إنها صور لجذوع أشجار ملتفة على جزيرة من الأحجار الملساء الوردية، مع وجود المزيد من الجزر بالخلف، صور لبحيرة ذات جروف قاسية، وزاهية، ضئيلة الأشجار: صور لشاطئ نهر ناشط ذي شجيرات متشابكة وزورقان على الشاطئ، أحدهما أحمر والآخر رمادي (p.110). هذا الانجذاب الذي تشعر به البطلة الراشدة لويس (Lois) لهذه اللوحات ينبع من إحساسها قصير النظر أن (هناك شيء ما، أو شخص ما، يلتف إلى الماضي منسحباً)، وقد تبيّن أن صديقتها لوسي (Lucy) اختفت بشكل غير متوقع بينما كانت في رفقتها في مخيم مانيتو (Camp Manitou)، وقد حُمّلت مسؤولية ذلك. رفضت لويس الراشدة العودة إلى الشمال، ولكنها تنظر إلى لوحاتها باستغراق المغرم:

"هذه اللوحات ليست لوحات مناظر طبيعية. لأنه لا يوجد أية مناظر طبيعية هناك في الأعلى، ليس بالمفهوم الأوروبي القديم الرتيب ... بدلاً من ذلك هناك متاهة متشابكة متقهقرة، قد تتعرض فيها للضياع ما أن تضع أول خطواتك على طريقها. لا تحوي هذه اللوحات أية خلفيات، ولا مشاهد ممرات محفوفة بالأشجار، بل مجرد كمية هائلة من أمامية الصورة التي تتراجع وتتراجع، بشكل لا متناه ... " (p.128-9).

النقطة الالتوائية أن "كل واحد منهم هو صورة للوسي، إنها تسكن داخلهم، تُلَمِّحُ فقط على حافة الرؤيا. فمن خلال مراوغتها بين المعاني الفنية والمعاني البيئية (للمنظر الطبيعي)، وسبرها لافتتان دائي، بالطريقة التي تتقهقر بها اللوحات والغابات على حد سواء، وبشكل لا متناه، تظهر أتوود إدراكاً ساخراً لمعنى البرية الذي غاب عن الرواية الأولى.

تظهر قصص آتوود أن البرية يمكن استكشافها بشكل مثمر من خلال علاقتها بأجناس أدبية أخرى غير الكتابة التي تتناول الطبيعة. فقد سعى النقاد البيئويون مؤخراً إلى توسعة الحقل، كما في دراسة آدم سويتنغ (Adam Sweeting) وتوماس كوتشانيس (Thomas Cochunis) التناظرية عن فضاءات (الواقعي) المسرحية والبرية. فعلى سبيل المثال، يلحظ النقاد أن فضاء المسرح التقليدي منفصل تماماً عن فضاء الجمهور بإطار شباك خشبة المسرح، تماماً مثلما تُميّز مناطق البرية ... بيروقراطياً عن الأرض التي اقتطعت منها (p.326). حيث اختبر المسرح الواقعي والبرية على حد سواء بطريقة (مخادعة) طمس الفرضيات الثقافية والبنى التي شكلت إنجازاتنا، مشجعة الجمهور أو زوار البرية على مراقبة الأحداث كما لو أنهم يكتشفونها بأنفسهم. تختزل هذه "الجمالية المُمثّلة" المشتركة المسرح والبرية إلى مشهد عاطفي، حاجبة التعرف على سياقاتهم الاجتماعية والبيئوية الأوسع. ويدلل المؤلفون أن نظرية الدراما الحديثة –التي تتحدى فكرة الفضاء المسرحي الثابت والمعين سلفاً– يمكن أن تساعد في التعاطي مع بعض المشاكل التي تثيرها فضاءات البرية التي تنكر على وجه مشابه تاريخها، وتحرّف القوة الفاعلة "لجمهورها". وقد ساهم نقاد من بينهم آندرو لايت (Andrew Light)، وديفيد تيج (David Teague)، ومايكل بينيت (Michael Bennett) بالتساوي في نشر مقالات مبدعة عن مفهوم «البرية» المدنية في الأفلام، وتخطيط المدن في كتاب مقتطفات طبيعة المدن (The Nature of Cities، 1999).

في سياق الكتابة التي تتناول الطبيعة، أثار عمل ريك باص (Rick Bass) جدلاً واسعاً، خاصة كتابه المقلق (النسيج) (Fiber، 1998). حيث يأخذنا الراوي خلال مراحل حياته الأربعة،

التي توازي افتراضياً حياة باص: فهو عالم جيولوجي في النفط، وفنان أدبي، وناشط بيئي، وأخيراً خشاب من نوع غريب الأطوار. يسكن الراوي في وادي ياك (Yaak Valley) في مونتانا الشمالية (Northern Montana). حيث يعيش باص الذي قاتل باستماتة وعلى الملأ ليحمي غاباتها من القطع. ومع ذلك، فإن الراوي يفتح أيضاً فضاءات بين شخصيته في الرواية وبين باص، مدعياً أنه يملك مذكرة اعتقال ضد واحد من الشخصيات الأولى التي جسّدها. تبدأ الشخصية الرابعة بالظهور تدريجياً، المرتحل المألوف «يغرق أعمق وأعمق في العفن القديم للغابة، حتى -يتنبأ- يصبح متحداً بها. في الوقت نفسه- وخلافاً لكل المرتحلين الذين يمرون بالبرية -يعمل الراوي في الغابة-، وخصوصاً بالتخشيب، حيث يبيع بعض الأخشاب للمطاحن ويجفل كالشبح الخشابين المحليين الآخرين بتركه أخشاباً في شاحناتهم. تنعكس شخصية (جنية الأخشاب) هذه على العمل الشاق للناشط، وينعكس الأكّال على الفنان. وفجأة بعد ذلك -في الجزء السادس- تتفسخ هذه البراعة الواضحة: «ليس هناك -بالطبع- قصة: ولا قانون مُختَرق في لويزيانا، ولا مذكرة، ولا جنية أخشاب، أنا لست هارباً. إلا من نفسي. هنا. تنشق القصة (p.45). تظهر بقية القصة غضباً ساخطاً على الحكومة الاتحادية، ونادي سيرا، وشركات التخشيب، ولكنها تستمر في تغير مسلكها: "إذا كنت تعتقد أنني سوف أتفوّه بكلمة (رجاءً) بعد كل ما فعلوه في هذه المناظر الطبيعية، فعليك أن تعاود التفكير" (p.149). بعد ذلك، "سوف أطلب المساعدة، بالنهاية" (p.50) بعد ذلك: "لن يتمكن الوادي من طلب أي شيء -سيتمكن من العطاء فقط- مثل صدفة أو قشة في الوادي أقوم بالطلب، وأقول، رجاءً في الوقت ذاته الذي أقول فيه بطريقتي البشرية- اذهب لجهنم (p.50). تُختتم القصة: "رجاءً، ليساعد أحد ما"، حيث يقدم الملحق عناوين للقراء ليكتبوا رسائل يطلبون بها حماية الياك بوصفه منطقة برية.

لقد دلل سكوت سلوفيك (Scott SloVic) أنه يمكن وصف النصوص التي تناولت الطبيعة أنها إما احتفاء (عاطفي) بجمال الطبيعة والبرية، أو شكوى، (تحذير أو نقد) يتحدى القارئ لاتخاذ إجراءً سياسياً أو إصلاحاً ذاتياً، (85 :1996). فيعد (الربيع الصامت) لكارسون -على سبيل المثال- أساساً نصاً إشكالياً، بينما يعدُّ (أرض شحيحة الأمطار) بالمجمل في نصاً عاطفياً. تتوافق مساهمة مايكل برانش (Michael Branch) عن باص Bass في كتاب مقتطفات مهم في النقد البيئوي مع هذه الدراسة التصنيفية لما يسميه كتابة باص بوصفه (ناشط لياك -Yaak-tiVist)، ويبين أنها تدفع «القراء إلى النظر في حجم الركون البيئي الغربي الذي يمكن أن يتقبلوه» (224 :2001). فالشكوى بالغة القوة التي تطرحها قصة (النسيج) (Fiber) تتعمد إثارة قلق

القراء الذين لم يعتادوا ثقافياً على مثل هذه التعبيرات عن الغضب العلني، الذين «يهتمون بحسن السلوك أكثر من اهتمامهم بالعدل» (p.231). في حين يعتقد بعض القراء أنه يتم التنازل في جودة العمل الأدبي بموجب هذا، إلا أن إثارات باص للحنق والحزن يتم تعقيدها فنياً وإقرارها على يد الإرث الأدبي الطويل من البيان التصحيحي. ويسمى برانش (Branch) هذه الانشطار للصخب والفقد الذي لا يمكن تعزيته (مرثاةً) (elegaid).

بخلاف كتّاب الطبيعة التقليدين الذين يفترضون قيماً صالحة أو مواقف سياسية، فإن باص يمتلك درجة عالية من الوعي الذاتي لسلطته بوصفه كاتباً. وكما توضح كارلا آرمبرستر (Karla Armbruster)، فحتى العنوان يستحث القارئ ليدرس مادية الكتاب، واعتماده على الصناعة ذاتها التي يهاجمها باص. يستجوب باص بصرامة موقفه البياني الخاص، معترفاً بتواطئه مع النشاطات التي ينتقدها، ومتحاشياً «النسخة المبسطة، إما أبيض أو أسود -للوضع- التي تستثني تقديم أي تنازل تفضي حتماً إلى مأزق بين البيئين الذين ينظرون من زاوية أخلاقية: وبين الخشابين الذين ينظرون إليهم بوصفهم أعداء (Armbuster 2001:208).

عمل (شاعر البلاط لعلم التبيؤ المتعمق) جاري سنايدر (Gary Snyder) لوقت طويل في ظل هذه التوترات. فلقد حصد شهرة في الخمسينات من القرن العشرين كواحد من (جيل بيت) (Beat Generation) إلى جانب جاك كيرواك (Jack Kerouac) وألين جنسبيرغ (Allen Ginsberg)، ثم اتخذ بعد ذلك الطريق الشاق بانضمامه إلى الفرقة الزينية البوذية[1] في اليابان، قبل أن ينتقل إلى كاليفورنيا الشمالية، كاتباً، ومعلماً ومحاضراً. يعبر أولستشليجر عن إعجابه اللامحدود بعمله، مدللاً أن (رؤيته الشامانية)[2]، تبعث الحياة في أمّنا العظيمة في عالم ما بعد الحداثة. ويمكن تفسير عمل سنايدر بشكل خاص أنه سلسلة من الوصايا:

«اصغوا! يقول لنا الشاعر. هذا هو المحور الشرقي لعلم التبيؤ الروحي لسنايدر: بالإصغاء يهدئ الشخص العقل، يسكّن الحواس، ويعيد تأسيس الاتصال بالأرض ... اذهب إلى البرية، وقف على الصخرة ذات الحقيقة الصوّانية. اسمع مقاطع صفير الريح، ومقاطع أصوات البذور، لأمنا الأرض: الريح! الماء المتاوج! والأغصان المتنهدة! فنحن أبناؤها، وهي أمنا، فنحن هي، الأرض الدافقة ... (Oelschlaeger 1991: 274).

---

1 فرقة بوذية تؤمن بأن في ميسور المرء أن ينفذ إلى طبيعة الحقيقة عن طريق التأمل. انظر: منير البعلبكي: المورد.

2 الشامانية دين بدائي من أديان شمال أسية وأوروبا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، وبأن هذا العالم لا يستجيب إلا للشامان. انظر السابق.

بالروح ذاتها، يطري ديفيد روبنسون (DaVid Robinson) على ترويج سنايدر لـ «منظومة أخلاقية ثقافية جديدة خاصة بالبرية»، تتشكل من أربع دعاوى معيارية:

(1) الحاجة إلى الالتزام بإمكانيات ومحدوديات المكان. (2) الإيمان بالبرية وعملياتها أفضل معلم للبشرية، (3) ربط البرية بالمقدّس، و(4) استخدام البرية دليلاً للديمقراطية المتنوعة، والشاملة، والتشاركية. (21: 1999).

يجب أن لا يؤخذ القارئ –مع ذلك- كاملاً بهذا المديح. فكثير من شعر سنايدر قد شوهته الترهيبات البيئوية المتشددة والدعاية المتوعدة في قصائده (إلى الأطفال. الأرض الأم: حيتانها. الخطوط الأمامية. كبح التحريق) لكن ترجماته المتصرفة للقصائد الشرقية تعدُّ مشرقة ورقيقة ولامعة. أما شعره الخاص فقد أنقذ –في أفضل حالاته- بما كان يحويه من إثارة جنسية عابثة. فتجارب سنايدر في مرحلة الشباب –من عمله خشاباً. واتصاله بالاشتراكيين وكذلك البوذيين والأمريكيين الأصليين أضفى على كتاباته سمة في المرجعية والإحساس بحاجات الناس الاجتماعية والمادية التي تعدُّ غير معهودة في وسط كتّاب البرية. فمقالته النقدية عن الشاعر روبنسون جيفرز(Robinson Jeffers). في (المرأة سلة اللفة) يمكن أن يمتد بشكل جيد ليشمل الكثير من الآخرين الذين دُرسوا في هذا الفصل:

روبنسون جيفرز. نظرته الباردة الطويلة
صحيحة تماماً من زاوية، ولكن لم يتلفظ بها
كما لو أنه الوحيد
الذي يقف على أوهامنا. فهو أيضاً
خاف من الموت، والتفاهة
ولم يصل تماماً إلى الجمال اللابشري
للجزء الأبيض أو النسيج الحريري المشجّر. الفخامة
التي لا تموت في جوهر كل الأشياء العادية

يرفض سنايدر صراحة وتكراراً تصور (البرية) أنها مجرد منظر طبيعي للترويح، ومظهراً خطر واحتمالية تحويلها إلى سلعة. فكما تبعث كلمتا (بري وحر) الحياة في «إعلان لهارلي دافيدسون» (Harley DaVidson). تؤدي هاتان الكلمتان الدور ذاته أيضاً في «سباق الأحصنة طويلة الأعراف عبر الأراضي المشبية». بالنسبة لسنايدر، «كلتا الكلمتين بما يحملانه من عمق سياسي وحساسية أصبحتا دمى استهلاكية (168: 1999). أحد طرق الوقاية من

هذا الخطر هو في إسقاط المفهوم الازدواجي للبرية والمدنية الذي ينتقده كرونون، حيث يتبنى سنادير-تقنية مؤثرة لتحقيق هذا عن طريق تقريب (البرية) من البيت. فهو يؤكد -على سبيل المثال- أن أجسادنا برية، مسلطاً الضوء على «الاستجابات الكونية لهذا الجسد الثديي، مثل «أن تبلع القلوب الحناجر في وقت الخطر، والتقاط الأنفس (p.179) في (أغنية الذوق) (Song of the Taste) يعيد لنا حاسة البرية في وجباتنا اليومية:

أكل الجرائيم الحية في الأعشاب

أكل بيوض الطيور الكبيرة

توضيب الفواكه الحلوة اللبّية حول

بذور الأشجار المترنحة

إنّ اللغة البشرية -المفترض أنها علامة القوة للثقافة- هي برية من باب أنها "تعلي غير المطلوب" "وتضِل قدراتنا الذهنية العقلية". فيمكن تطويعها لأهداف تعليمية أو أية أهداف أخرى، لكن اللغة أساساً جاءت من مكان آخر" (p.177).

يدلل سنايدر ببراعة أن المدنية هي موضع الفوضى والعبث، بينما تلخص البرية التنظيم الذاتي الحر للطبيعية. فبدلاً من أن تبقى ببساطة نقيضةً، يمكن للبرية أن تتشعب فيما هو مدني وتنميه. (آداب الحرية)، هذه الإنجاز الذي يفترض أن نشجعه، قد يكون أفضل ما نأمل بالتوصل إليه في منظومة أخلاقيات البرية: قسماً منها للنقد البيئوي المتعمق، وآخر مذهب اللذة (لجيل بيت)، والكل وصية رقيقة إنسانية:

"يمكن أن نستمتع بإنسانيتنا بعقولها المتوهجة وتأججها الجنسي، وتقسيماتها الاجتماعية، وتشنجاتها العنيدة، وأن نعدّ أنفسنا كأي كينونة أخرى في الحوض المائي الكبير -لا أكثر من ذلك ولا أقل-. يمكن أن نتقبل بعضنا بعضا نظائرَ حافية الأقدام ننام على الأرض ذاتها، ويمكن أن نتخلى عن آمالنا في الخلود ونقاوم القذارة كما يجب. يمكن أن نطارد الناموس ونضع السياج لإبعاد المتطفلين اللئيمين دونما أن نكرههم... تتطلب البرية أن نتعلم تضاريس الأرض، وأن ننحني احتراماً لكل النباتات والحيوانات والطيور، وأن نخوض في الجداول ونعبر السلاسل الجبلية، وأن نقصّ حكاية جميلة عندما نعود للبيت" (p.182).

الفصل الخامس

الرؤيا

APOCALYPSE

آمنت نسبة متفاوتة من سكان العالم –منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف عام – أن نهاية العالم أضحت وشيكة. وقد اختلف العلماء في أصل هذا الاعتقاد. ولكن يبدو –من المحتمل– أن البنية المميّزة للقصص الرؤيوية التي تؤثر على كثير من الاتجاهات البيئية في الوقت الراهن، قد ابتدأت عام 1200 ق. م.، في فكر النبي الإيراني زوروآستر (Zoroaster) أو زاراثوسترا (Zarathustra). حيث سادت الأفكار التي تُنبئ بالانحدار التدريجي للعالم في حضارات العالم القديم. إلا أن زوروآستر ورّثَ اليهودية، ثم المسيحية وبعد ذلك الأنماط العلمانية للتاريخ الإحساس بحالة زوال العام الطارئة. فمنذ زيلتيون الإمبراطورية الرومانية (Zealots) اليهودية، إلى فرع الدافيديين (Branch DaVidians) الذين هلكوا في واكو، تكساس (Waco. Texas) من عام 1993، قاتل المؤمنون اليهود/النصارى وماتوا من خوفهم ورجائهم في الرؤيا الموعودة، بينما تبنّى النازيون، والشيوعيون، وطوائف رقصة الأرواح[1] الأمريكيين الأصليين، ودعاة المهدي المسلمين، والأتباع اليابانين لطائفة أوم شينريكيو (Aum Shinrikyo)، تأقلموا مع البيان الرؤيوي، ثانيةً مع النتائج الكارثية بوصفها نبوءات أزمة وصراع لا محالة قادم. رغم ذلك وفّرت –جدلياً– استراتيجيات بيانية مشابهة إلى حد بعيد للحركة الخضراء بعضاً من أكثر نجاحاتها إطلاقاً. بإدراكنا لهذا، يتوجب أن ننظر في الدور الماضي والمستقبلي للسرد الرؤيوي في الخطاب البيئي والبيئوي المتشدد.

---

1 رقص جماعي يراد به الاتصال بأرواح الموتى عند الهنود الحمر. انظر البعلبكي: المورد.

الرؤيا والذكرى الألفـيـة APOCALYPSE AND MILLINNIUM

لم يؤمن الأورو-أسيويون دوماً أن عالمهم سوف يزول يوماً. فتوقع آخرة وشيكة (eschaton) أو نهاية الزمن قد انكشف لليهودية-المسيحية في قرني الزمن اللذين يسبقان سنة الصفر المسيحية:

«لقد فَصّل في جنس أدبي جديد يدعى الرؤيا، والمأخوذة من الإغريقية (Apo-calyptein) وتمني (يكشف الحجب). حيث يتخذ الأدب الرؤيوي شكل الوحي عن نهاية التاريخ. فيتم مجاورة صور عنيفة وبشعة مع لمحات لعالم متحوّل، فالمغزى الباطني هو عادة صراع هائل بين الخير والشر .... وقد وُصفت الرؤيوية أنها جنس أدبي وُلد من الأزمة، وصمّمَ ليصلّب عزيمة مجتمع محصّن عن طريق تدلية رؤية انعتاق مفاجئ ودائم من أسرة أمامه. إنه أدب سفلي، يواسي المضطهدين». (Thompson 1997: 13-14).

يقدم هذا التعريف الصفات التالية: علم النفس الاجتماعي للرؤيوية الذي استمال تاريخياً مثل هذه الحركات (المحصنة) نحو جنون الارتياب والعنف -الازدواجية الأخلاقية المتطرفة التي تقسم العالم بحدة إلى صديق وعدو- التأكيد على الحقيقة (الكاشفة) عبر التاريخ والدور الموافق للمؤمنين الذي لهم ومن أجلهم يُشقُ الحجاب. والأكثر أهمية -من أجل أهدافنا- أن الرؤية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالخيال- ذلك أنها لم تتحقق بعد. وإذا ما استخدمنا المصطلح السردي، فهي دائماً ما تكون (خطأ تسبيقيا تأريخيا). أما إذا استخدمنا لغة علم الاجتماع، فهي (جنسٌ أدبيٌ وُلد من الأزمة)، فإنها أيضاً بالضرورة بيانٌ يجب أن يثير مثل هذه الأزمات بنسب تتناسب مع نهاية الزمن. هذه الجدلية التي بها تستجيب الرؤية، للأزمة وتولّدها على حد سواء ستكون مهمة في تقييمنا لها مجازاً نقداً - بيئوياً.

بالنسبة للقارئ المعاصر، قد تبدو المعتقدات الألفية والرؤيوية غريبة. ولكن حتى التنبؤات الأكثر فظاعة، التي توافق متطلبات النبوءة الكتابية، ترتكز على تفسيرات تملك منطقها الجدلي الخاص. إنّ الارتكاز إلى التفريق الذي عرضه ابتداءً كينيث بيرك (Kenneth Burke)، وعالم البلاغة ستيفين أوليري (Stephen O>Leary) يقترح أن دراما الرؤيا قد تشكلت (بإطار من القبول)، إما أن يكون (هزلي)، أو (مأسوي). فاختيار الإطار سيحدد الطريقة التي تُصوَّر فيها قضايا الزمن، والوكالة، والسلطة والأزمة مسرحياً:

«تتصوَّر المأساة الشر بلغة الذنب؛ حيث ترتكز آليتها للتفكير على فكرة الضحية، فتتحرك

عقدتها بلا هوادة تجاه التضحية و(مذهب القتل). في حين لا تفكر الملهاة بالشر بلغة الذنب، ولكن بوصفه خطأ، فآليتها للتفكير تتمثل في الاغتراب وليس بالتضحية، وتتحرك عقدتها ليس تجاه التضحية ولكن نحو التعرض إلى قابلية الخطأ، (O>Leary 1994: 68).

إذا ما أطرت المأساة الزمن أنّه مقدّر سلفاً ومقسّمٌ إلى حقب، يهرع دائماً نحو خاتمة نهائية، وكارثية معينة، فزمن الملهاة مفتوح النهاية ودائري. وكالة البشر حقيقة، ولكنها تتدفق ضمن الإطار الهزلي، يتسمُ الممثلون المنفردون به بالغموض والتجاذب الأخلاقي عادةً. أما الممثل المأساتي -بالمقابل- فليس لديه الكثير لفعله غير اختيار جانب في الصراع الدائر المخطط له بين الخير والشر. فالإجراء ربما يبدو مجرد إيمائي في وجه التاريخ والمعتقدات الأخروية.

التباين بين الأنماط الملهاتية والمأساتية، يمكن أن يتضح من خلال الجدل الدائر بين المسيحيين المؤمنين بالعصر الألفي السعيد الأوائل، وبين القديس أوغستين (St. Augustine) من هيبو (Hippo). عادةً ما يميل علماء رياضيات (العصور الأخيرة) من مثل هيبولايتوس (Hippolytus) من الإمبراطورية الرومانية، إلى فكرة (الأسبوع العظيم)، حيث يدوم كل (يوم) فيه ألف عام. فالعودة الثانية للمسيح سوف تحدث على قرن السبت من الأسبوع العظيم (6000 عام بعد خلق العالم) (Anno Mundi. 6000)، معلناً عن مضي ألف عام على حكمه الأرض المصرح بها في رؤيا القديس يوحنا (سفر الرؤيا. إصحاح 6-1:20). لقد سعى الرياضيون في الماضي للعمل من خلال تتبع سلالات الإنجيل لحساب العام الأول للعالم -بعد الميلاد- والذي منه يمكن استقراء نهاية العالم. كان الحل الذي عرضه أوجستين لتفادي الآثار المخلخلة للاستقرار التي تولدها هذه الحسابات في أن نؤكد على الطبيعة المجازية لرؤى الإنجيل الرؤيوية، والسخرية من أولئك الذين حسبوا حلولها حرفياً. يمكن أن تحدث النهاية كما أخبر عنها النبي، ولكن ليس مطلوب من البشر أن يرجموا بالغيب للمرة الثانية جدول مواعيد الإله. الانتقال التدريجي من تقويم ما بعد بدء الخليفة (Anno Maundi)، إلى تقويم ما بعد ميلاد المسيح (Anno Domini) قد زاد في إضعاف الرؤيوية المسيحية، إلى درجة -وفقاً لدراسات حديثة- أن نسبة 1000 سنة قد مرت دونما رعب (Thompson 1997: 35-55).

إذاً، فإيمان أوجستين الأخروي هو ملهاتي وغير كارثي، يؤكد على الصراع الطويل الأخلاقي الدائر ليس بين قوى النور والظلام، بل داخل جماعة المؤمنين أنفسهم. هذا اللطف الأخلاقي إضافة إلى التأكيد على حرية الإرادة، يوفر إيدلوجية أخلاقية صحية أكثر لكنيسة انهكتها الحماسات الألفية: إذا كانت النهاية قريبة أم غير ذلك، فعلى المؤمنين أن يعيشوا في نور احتماليتها بينما

يمتنعون عن التخلي عن واجباتهم الدنيوية بما يناسب الهستيريا المثالية. فالقصص المأساتية عن الأخرة -بالمقابل- تتسم بالازدواجية، والحتمية، والكارثية على نحو متشدد، وقد مالت تاريخياً إلى أن تصدر في انسمارات الانتحار، والقتل، وحتى الإبادة الجماعية.

روّج أتباع الكنيسة الأورثوذكسية، والكنيسة الكاثوليكية الرومانية، والكنيسة البروتستانية، للرؤيوية الملهاتية. فقد جعلت أوامر السلطة التوراتية، والتاريخ والحماس الشعبي المجاز إطاراً لا يمكن الاستغناء عنه، إلا أنه مأساتي ينزح نحو إنتاج إمّا انشقاقات كنسية، أو ثورة أبدية ساحرة للجماهير، ويبدو أنها غير قابلة للاستدامة على المدى الطويل. تبدو الإيحاءات المقدمة للمواقف المتخذة من العالم الطبيعي -علاوة على ذلك- أسوأ في النسق المأساتي. ويمكن أن نستذكر حجة لين وايت، ج. ر. (Lynn White. Jr) أن المسيحية هي دين يدفع باتجاه الفوقية البشرية، وربما نستذكر أيضاً تعليقه الاعتراضي أن الزوراستينية فقط هي تشبه المسيحية في هذا الاتجاه. حيث يلفت وايت الانتباه إلى المفهوم الازدواجي للبشرية والطبيعة التي تشترك بها الديانتان، إضافة إلى كونهما رؤيويان، وقد يكون هذا المفتاح لقضية مساهمة اليهودية-المسيحية في المشاكل البيئية. فالمسيحية الرسمية توازن بين الفكرة الراسخة لقدسية الخلق مقابل فكرة الارتقاء الازدواجية التي لاحظها وايت، إلا أن المسيحية الألفية تشدد على الفصل المتشدد: "ثم رأيت سماءً جديدةً وأرضاً جديدة: لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا" (الرؤيا: 21: 1). في معرض تأكيدها أن المسيحيين لاعبين حاسمين في الصراع العهدي الوشيك، لا تبالي حتمية الألفيين بالفوقية البشرية الخفيفة لتراث (الوصاية) المسيحي الراسخ، الذي أوصى به الفيلسوف البيئوي جون باسمور (John Passmore) في معرض وصفه لأخلاقيات المحافظة على البيئة طويلة الأمد، التي تستوجبها هذه الوصاية. تخدم الأزمة البيئية المبشرين الأمريكيين المحافظين المعاصرين تماماً مثلما خدمت الكوارث الطبيعية الألفيين في العصور الوسطى: علامةً للنهاية القادمة، ولكن ليس تحذيراً لتفاديها. تتمثل المصادفة الفوقية البشرية المتشددة والحماسة الألفية في أول وزير داخلية في عهد الرئيس رونالد ريجن (Ronald Reagan)، جيمس وات (James Watt)، الذي نظّر ضد الحماية البيئية من منطلق أن الله سيدمر الأرض العجوز قريباً. ينتقد آل غور (Al Gore) وات في عمله الرؤيوي، (الأرض في الميزان) (Earth in the Balance)، باسم الأغلبية المسيحية والأيمان الآخروي الملهاتي الذي يؤكد على وكالة البشر. ينغمس غور في البداية في البيان الرؤيوي المأساتي، مستحثاً نبوءة هوسيا (Hosea) الإنجيلية، «لقد بذروا الريح، وسوف يحصدون الزوابع»، إشارة إلى التنبؤات بأعاصير مدمرة يولدها تراكم غازات البيوت

الدفينة (1992:263). ومع ذلك، يهاجم فيما بعد استخدام المبشرين الرجعيين لمثل هذا البيان كـ «اعتذار عن تخليهم عن مسؤوليتهم في أن يكونوا وكلاء صالحين لخلق الله»، وبذلك يمهد ثانيةً قضية أوغستين بانصباغ (أخضر). على الرغم من الإغراء الذي يدعو لقراءة أنماط الطقس نذراً للاحتباس الحراري، يعترف غور أن نماذج المناخ الحاسوبية المعقدة هي أنبياؤنا اليوم، وليس القراءات الألفية للأعاصير والعواصف الثلجية.

الرؤيا العلمانية THE SECULAR APOCALYPSE

أفلتت مواضيع ولغة الدراسات الأخروية في الحقيقة من فرع علم اللاهوت لزمن طويل قبل القرن العشرين. فقد استحوذ الشعر الرومانسي لويليم وردزورث، وبيرسي شيلي (Percy Shelly، 1792-1822) ووليام بليك (William Blake، 1757-1827) البيان الرؤيوي لأهداف علمانية، غالباً ذات اتجاهات ثورية سياسية، كما فعل حداثيو أوائل القرن العشرين من أمثال ت. س اليوت ((T.S Eliot، 1888-1965) وويندهام لويس (Wyndham Lewis، 1882-1957). غالباً، سُكِنَ هؤلاء الكتاب بقدر الثقافة الإنسانية، إلا أننا نجد في عمل د. ه. لورنس (D. H. Lawerence، 1885-1930) تطابقاً بين المواضيع البيئية والبيان الرؤيوي. لذا، فقد مارست كتابته سحراً من نوع خاص، على نقاد علم التبيؤ المتعمق من مثل دل إيفان جانيك (Del IVan Janik)، الذي يدعي أن لورنس «رأى الإنسان جزءاً من الكون العضوي، يحيا حياة فضلى إذا اعترف بعجائبه، ورفض إغراء فرض مشيئته عليه. بهذا المعنى، فإنه يقف على عتبة التراث ما بعد الإنساني الحديث وعلى عتبة أدب الوعي البيئي (Janik 1995:107).

في الجامعة، درس د. هـ. لورنس علم النبات وأعمال أرنست هيكل(Ernst Haeckel). وقد سجّل الأصدقاء والأعداء على حد سواء له معرفته غير العادية بالتاريخ الطبيعي وحساسيته تجاه بيئته. ومثل كثير من الكتاب الآخرين من حقبته، فقد تأثر لورنس تأثراً عميقاً بكتابات فريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche، 1844-1900) الذي طوّع على سبيل السخرية داعية الثنائية الرئيس (زارا ثوسترا) ناطقاً بلسانه في دعواه للرجال ليتجاوزوا مجرد كونهم كينونات بشرية ويصبحوا (أكثر من رجال) (Ubermenschen). بخلاف زوروآستر من العصر القديم، الذي دعى إلى الارتقاء عن الأرض، يدعو نبي نيتشه إلى العودة إليها: «دع حبك المعطاء ومعرفتك تقومان على خدمة معنى الأرض... لا تدعهم يحلّقوا بعيداً عن الأشياء الأرضية ويضربوا اجنحتهم في مقابل الجدران الأزلية (Nietzsche 1982:188). فالأرض التي يقطنها

هؤلاء (الأكثر من رجال) الذين تعدّو إنسانهتهم، لن تكون –على الرغم من ذلك- الأرض ذاتها المذكورة في الشعر الرومانسي، ولا حتى الأرض (الداروينية) الشعبية ذات الصراع الدموي. في الحقيقة، في خضم النضال الدائر لتفادي التشبيهية[1] (anthropomorphism): يبدو من الصعب قول أي شيء عن الأرض بغض النظر عن ماهيته، كما يدلل نيتشه في (العالم الخليع) (The Gay Science، 1882) «دعونا نحذر من أن ننسب لها عدم الرحمة، وعدم التعقل أو نقيضهما: أنه ليست كاملة ولا جميلة، وليست نبيلة، ولا تتمنى أن تصبح أياً من هذه الأشياء ... لا ينطبق عليها أياً من أحكامنا الجمالية أو الأخلاقية» (1974:168). يسعى نيتشه -كغيره من نقاد علم التبيؤ المتعمق- وراء منظور مركزي أحيائي، ولكن على خلاف معهم لا يجد إلا العدمية في العملية.

كان للورنس تأثيرٌ كبيرٌ على رولف جاردنر (Rolf Gardiner، 1902-72) الذي أسس جمعية التربة (Soil Association) في عام 1945 ليروج ويرقُب الزراعة العضوية. تتدعى المؤرخة آنا براموبل (Anna Bramwell)، أن لورنس، لم يكن عالم بيئوي مبرمج ... إلا أن خلفيته الفكرية كانت متشبعة بمزيج من عبادة –الطبيعة واللاتجسيمية، وقد امتدحت القوة التخيلية لـ «تصوراته الفطرية للمناظر الطبيعية بتفاصيلها، والشّعب الملتحم مع تلك المناظر» (1989:112-113) يتضح موقفه الفريد من الفصل الأول لـِ (قوس قزح) (The Rainbow، 1915) الذي يقدم وصفاً رعوياً لأجيال مزارعي برانغون (Brangwen) في وادي نهر إروش (Erewash). حيث تستحث تبادلية الإنسان مع الطبيعة في نثر حيوي وإيقاعي:

«لقد شعروا بتدفق النسغ[2] في الربيع، لقد عرفوا الموجة التي لا تستطيع أن تتوقف، ولكنها تنثر كل عام بذرة الولادة للأمام، وتقفل عائدة، تاركةً المولود الجديد على الأرض. لقد عرفوا التزاوج بين السماء والأرض، عرفوا أشعة الشمس المسحوبة إلى الثدي والأحشاء، والمطر الذي يُمتص في وضح النهار، والعري الذي يأتي تحت الريح في الخريف، مظهراً أعشاش الطيور التي ما عادت جديرة بالاختباء. حياتهم وعلاقاتهم ما هي إلا هكذا: يشعرون بنبض وجسد التربة، التي تنفتح لأثلامهم ليضعوا البذور، وتغدو سلسةً، «ولدنةً بعد حراثتهم، وتتشبث بأقدامهم بثقل يشد مثل الرغبة .. فقد أمسكوا درر البقر، وجادت البقر بالحليب ونبضت تجاه أيادي الرجال، فنبض دم حلمات البقر يدق لنبض أيادي الرجال» (Lawrence 1988:42).

---

1 خلع الصفات البشرية على الخالق وتسمى أحياناً التجسيمية.

2 سائل يجري في أوعية النبات حاملاً الماء والغذاء.

في سفر تكوين لورنس هذا، يتكرر الطرد من جنة عدن الأصلية عبر الأجيال في وحول (مزرعة المستنقع) (March Farm). في الجيل الأول -مصداقاً للتراث الإنجيلي- يُوقظ الرجال من خلال بحث النساء عن حياة ومعرفة أوسع. ويسقط البرانغيون (Brangwens) من عالم ذي وقت موسمي، مرحلي إلى تاريخ ذي خط مستقيم، يوصف أنه عملية غير مضلّلة ومحرِّرة. في الجيل الثاني، يبدو أن اليأس الذي تولّده الحداثة يتطلب حلاً رؤيوياً. حيث يرحب ويل برانغون برؤية «المدن والصناعات والمدنية، تتجرف بعيداً، «مخلفةً أرضاً عاريةً فقط، تنبت فيها النباتات، وتتدفق المياه بها (p.235). وعلى الرغم من ذلك، يهتم لورنس بوضع ألفيته وراء هذه العدمية و(نعاس-الدم) الذي ورد في الفصل الأول، يختبر أورسولا برانغون (Ursula Brangwen). الجيل الثالث في الرواية، عيد ظهور في درس علم أحياء خليوي يرتكز إلى فكرة هيكل (Haeckel) عن (قوة الحياة) العضوية:

"فجأة بدأ العالم يومض في عقلها بشكل غريب، مع ضوء كثيف، مثل نواة المخلوق تحت المجهر. فجأة، قضت متنقلةً إلى نور معرفة شديد الوميض. لم تستطع أن تفهم لمَ كان كل هذا. عرفت فقط أنه لم يكن طاقة آلية محدودة، ولا مجرد هدف للحفاظ على الذات وإثباتها. بل كان اكتمالاً، كينونة مطلقة، لقد اتحدت الذات مع المطلق. (p.491-492).

تتفق تحفظات أورسولا على الطريقة العلمية مع تلك التي يطرحها علماء التبيؤ المتعمق:

"أولاً، أن العلم المعاصر يعمل بطريقة تحليلية مختصرة وبهذا يختزل العالم الطبيعي بطرائق مختلفة، تقوّض كماله، وكليته، وتشابكه: ثانياً، أن مبادئه ما وراء الطبيعية تتسم بالإزدواجية؛ ونتيجة لذلك، يُنظر للبشر أنهم ليسوا مجرد كينونات جسدية حسب، بل إنها كينونات ذهنية وروحية، أما بقية الطبيعة، فيُنظر لها ضمن أطر آلية محضة؛ وأخيراً، أن هذا يبرر ازدراء الطبيعة.(Hayward. 1995: 16)

إنّ قبول أورسولاً بالمنظور الكلي يرتبط بالوحي الذي يقفل الرواية:

"ووقف قوس قزح فوق الأرض. لقد عَرَفَتْ أن الناس الخسيسة الذين زحفوا لمسافات شاقة، وانفصلوا على وجه فساد العالم ما زالوا على قيد الحياة، وأن قوس قزح قد تقوّس في دمهم وسوف يهتز للحياة في أرواحهم، إنهم سيلقون غطاءهم الشهواني للتفكك، وأن أجساداً جديدة ونظيفة وعارية سوف تبعث استنباتاً جديداً، ونمواً جديداً، تصعد نحو نور السماء وريحها ومطرها النظيف". (Lawrence 1988: 548).

يتبع قوس قزح تطور الأجيال الثلاثة، مسلطاً الضوء بشكل كبير على النساء. في طريق غير عادي يمهد قوس قزح أورسولا إلى الوعي العضوي للجيل الأول للرجال، بمستوى عالٍ من الوعي، وبرؤية خلاصية أكثر عمومية. وبطريقة واعية للذات يطوع البنى السردية الأنجيلية، وشيئاً من الشعر الموجود في النسخة المجازة (Authorized Version)، في الوقت الذي يعبئ النقد الموجّه لفكرة الفوقية البشرية التي تتبناها المسيحية.. ترتبط دراسة دولورس لاتشابيل (Dolores Lachapelle) (النقدية بدائية المستقبل) (Future PrimitiVe, 1996) برؤية لورنس البيئوية التي تأمل في علاقة جنسية يعاد تشكيلها وانتعاشها، مدللاً أن الروابط بين وعي (أورسولا الجديد) بالكلية الأعظم للطبيعة واكتشافها لـ (طبيعتها الجنسية العميقة) يظهر لنا كيف «يمكن أن يبنى مجتمع إنساني مستوفٍ للشروط، بانسجام مع الكون الأعظم» (1996:48). يعدّ كتاب لاتشابل (Lachapelle) مثالاً ممتازاً على الحبكة المتحيزة للنقد البيئوي: فقد أثمر بحثها المفصل عن نتائج محيّرة، وكان حماسها وأملها جذابا ومعديا، لكنها تسلّم تسليماً كاملاً بموقفها البيئوي المتعمق وتبدو ميالة إلى التصغير، والبتر، أو إغفال الجوانب قليلة الاستساغة لعمل لورنس. فإيمانها في قوة اليقظة الجنسية اللورنسية لافتتاح عالم جديد ذي علاقات إنسانية أصيلة مع الطبيعة، يعدُّ مبالغا به تشبيهياً.

يستبدل كثير مما تبقى من عمل (OeuVre) لورنس بعد (قوس قزح) هاجس القوة الذكورية المتلازمة لرؤية عدمية انشداهية بوعده المثالي. لذا يتصور بيركين (Birkin) - في العاقبة الزائفة- (نساء عاشقات) (Women in LoVe) الألفية بشكل كامل دون وجود بشر، مدللاً أن "الإنسان هو غلطة، ويجب أن يذهب" (Lawrence 1989: 128). هي العدمية ذاتها- الفوقية الأحيائية- التي تجتذب نقاد علم التبيؤ المتعمق، حقيقة الإنسانية جيداً أيضاً، الحقيقة المخفية للإنسانية. على الرغم من بقاء شخصية أورسولا برانغون ثقلاً متوازناً: "هي نفسها عرفت أنه لا يمكن أن تختفي بهذه الدرجة من النظافة والملاءمة. ما زال أمامه مشوار طويل يجب أن يمشيه، طريق طويل وبشع" (السابق). حيث يُشار إلى التباين بين الرؤيوية الملهاتية والمأساتية، إلا أنه يتبقى تعرّض أكثر لعدم الثبات في وجهة نظر بيركن، الذي يظهر إنساناً يتخيل جنازته، غير قادر على فهم غيابه ذاته. ويقترح منظور أوروسولا أن لا إنسانية بيركين متناقضة بذاتها وأن سمته الرؤيوية عدمية. فهذه التحديدات تتقّص أشكالاً أخرى من الفوقية البشرية أيضاً، على الأقل لحد الآن، حيث يتخيلون رؤيا جوفاء: آخرة (eschaton) دون مثالية تتبعها.

الرؤيوية البيئية ENVIRONMENTAL APOCALYPTICISM

دلّل بويل أن "الرؤيا هي أكثر الاستعارات التي يملكها الخيال البيئي المعاصر قوة" (1995:285). فقد استغلت العديد من الكتب الأكثر تأثيراً في قائمة الكتاب البيئيين المهارية هذا المجاز أيّما استغلال، من (الربيع الصامت) لكارسون مروراً بالقنبلة البشرية (The Population Bomb. 1972) لبول إيهرلك(Paul Ehrlich's) إلى (الأرض في الميزان) لآل غور. علاوةً على انتشار البيان الرؤيوي في أدب نشطاء (الأرض أولاً!) (Earth first!)، وكذلك التأملات الفلسفية لبيل مكيبن وشمر روبنسون جيفرز. وحتى أن الفكرة الاعتيادية عن (الأزمة البيئية) قد تأثرت بها.

تعدّ (مقالة عن مبدأ السكان) (Population Essay on the Principle of) لتوماس مولثس (Thomas Malthus، 1978)) الأكثر تأثيراً في الرؤيا البيئية الحديثة، التي أخذت على عاتقها مناقضة التنبؤات المثالية عن التقدم المادي والمعنوي اللامتناه، التي صاغها الفيلسوف السياسي ويليام جولدون (William Goldwin. 1756-1836)). حيث كان مولثاس المفكر الأول الذي أصر على أن توجه الحاجة البيئوية السياسية الاجتماعية. وقد أسست نظرياته عن السكان علم دراسة الخصائص السكانية (Demographics). وقد قدم الأرضية لنظريات تشارلز دارون (Charles Darwin. 1809-82) عن الانتخاب الطبيعي، وألفرد رسل ولَيس (Alfred Russel Wallace. 1823-1913)، وأخيراً لنشوء علم التبيؤ. يعترف مالثوس بالجذب الذي يشكله تفاؤل جولدون، إلا أنه يشير أنّ "من المؤكد أن قوة السكان تفوق القوة الموجودة في الأرض لإنتاج موارد بقاء هذا الإنسان" (1982:17). ويرجع ذلك إلى أن كل جيل من البشرِ يمكن أن يولد جيلاً أكبر منه عدداً. إلا أن زيادات الإنتاج الزراعي عبر زراعة أراضٍ جديدة يمكن تحقيقها بشكل تدرجي: تباين بين التقدم الهندسي أو التقدم الأُسّي وبين التقدم الحسابي. بعبارة أخرى، فإن النمو السكاني غير المراقب سوف يفوق دائماً موارد البقاء، كما يوضح مولتس: "إذا ما تناولنا سكان العالم تحت أي رقم –ألف، مليون- على سبيل المثال، فإن النوع البشري يزداد بنسبة 1-2-4-8-16-32-64-128-256-512 الخ، وتزداد الموارد بنسبة 1-2-3-4-5-6-7-8-9-10- الخ. في قرنين من الزمان وربع القرن، سوف تكون نسبة عدد السكان إلى نسبة الموارد 512 إلى 10. في قرون ثلاث ستكون 4096 إلى 13، وخلال ألف عام سيتعذر حساب الهوة في النسبتين تقريباً، مع أن الإنتاج في ذاك الوقت سوف يزداد بدرجة عالية جداً. (p.75-6).

سوف يستمر السكان بالازدياد إلى أن يوقفه (البؤس والرذيلة)، كما ادعى مولتوس،

إذاً حتى المثالية الأكثر مساواةً يجب أن تعود في النهاية إلى الصراع، والتنافس على المصادر الشحيحة. وتمدُّ (مقالة) مالتوس أساساً مضادةً للرؤيوية في أن السكان والقوت يفترض بقاءهما في تنافس دائم، وليس التراكم لإحداث أزمة مثيرة. ورغم ذلك، فإن نذرها التشاؤمية قد قدمت -منذ نشرها- الأرضية العلمية لمزيد من الدراسات الآخروية المنذرة.

تذهب رؤيوية (الربيع الصامت) لكارسون أبعد من (الآفة الفريبة) التي هاجمت المشهد الرعوي (في خرافة للغد). إن الربط بين السقط الإشعاعي وتلوث المبيدات الحشرية -الذي تم ذكره في المقدمة- يُعدُّ ربطاً مقنعاً، ذلك أن تخيل الانفجار النووي أعاد تعريف مفاهيم شائعة عن نهاية العالم، سواءً أكانت هذه المفاهيم دينية أم علمانية، في حين قدم الخوف من المنتجات الانشطارية القاتلة -من مثل الاسترونتيوم90- (Strontium-90) الذي لا تلتقطه الحواس- نموذجاً كاملاً للتلميح الشامل عن الملوثات من مثل د.د.ت، واللندن، والديلدرين[1]:

"أكثر ما يدق ناقوس الخطر من بين اعتداءات الإنسان على البيئة هو تلويث الجو، والأرض، والأنهار، والبحر بمواد خطرة، بل مميتة. هذا التلويث الذي لا شفاء منه إجمالاً؛ فسلسلة البشر لم تخترق العالم الذي يفترض أن يدعم الحياة فقط، ولكنها تخترق أنسجة الحياة أيضاً. سلسلة الشر هذه لا عودة عنها غالباً. في هذا التلويث العالمي الراهن، تمثل المواد الكيمائية الشريك الشرير الخفي -نوعاً ما- للإشعاع في تحويل جوهر طبيعة العالم، وجوهر طبيعة الحياة فيه" (Carson 1999:23).

يمكننا أن نرى هنا سمات تشخيصية للبيان الرؤيوي المأساتي. ويقدّم التحذير بمنطق السلطة المطلقة: أنّ التهديد المادي (شرير)، يؤدي من منطق الترابط إلى عدّ موجودوه شريرين أيضاً؛ وستكون عواقب الإخفاق في الالتفات إلى التحذير كارثية، ولن يكون الخطر وشيكاً فقط، ولكنه بالفعل أضحى على الأبواب. حيث تتمثل استراتيجية أخرى من استراتيجيات كارسون البيانية في الفصل الجذري للعوامل المفتاحية في الدراما. وكما يبين راندي هاريس (Randy Harris)، فإن "الشباب الخيرون" الحساسون بيئياً تلمع أسماؤهم، وينالوا الإعجاب، ويستشهد بهم دونما احتجاج، بينما "الشباب السيؤون" الذين يروجون للمبيدات الحشرية "فهم موظفون جامدون وتجار بلا وجوه"، يستشهد بدعاواهم بطريقة تهكمية، مع إشارة مستمرة إلى مصادرهم التجارية لتمويل بحوثهم (Harris 2000: 138). علاوة على ذلك، فقد تبنت الحركة البيئية

1 مبيدات حشرية.

العامة استخدام (الاقتباسات المرعبة) كلما أُطلقت دعاوى عن السلامة الصناعية: "ما هو إذاً مقدار (الجرعة الآمنة) من ال د.د.ت؟" (2000:209). تلقي هذه السياسية الاستشهادية المؤثرة بظلال الشك على عين فكرة (الجرعة الآمنة). وتفصل المؤلف، وخبراءها المفضلين، والقارئ المحتمل عن علماء الصناعة المتنازلون وغير الموثوق بهم.

بقيت الوظيفة الدقيقة لبيان كارسون الرؤيوي مثار جدل. بالنسبة لبويل، فإنها تقدم أملاً ضئيلاً في أنّ الكارثة يمكن تفاديها، ذلك أن التهديد الذي تشير إليه شامل ومستعص بشكل كبير. ومن جهة أخرى، يدلل جيمي كيلينجسورث (Jimmi Killingsworth) وجاكلين بالمر (Jacqueline Palmer)، أن «القصص المتضاربة عن القدر الرؤيوي والأمل الألفي تتصارع للهيمنة في الربيع الصامت» (2000:190). ويشيرا أن الكتاب يغمس القارئ في العالم المصاب بالآفات، وشيك النهاية، الذي فيه (لا طيور تغني)، في حين يبقي احتمالية، (الطريق الآخر) قائمة. بديل كارسون ليس فوقية بيئوية، أو مضادة للتدخل البشري، ولكنها بالمقابل رؤية بيئية نفعية يوجد بها كمية محدودة وهادفة من المبيدات الحشرية الكيماوية مدموجة مع مراقبات حيوية في منهج متكامل لإدارة الحشرات. بالنتيجة، انتقد علماء التبيؤ المتعمق –الذين ينظرون إلى الأزمة أنها أكثر اتساعاً وتصلباً- فوقيتها البشرية المتنوّرة. على غرار بيركين (Birkin) في (نساء عاشقات)، مثل هؤلاء النقاد لا يأملون –بالضرورة- حتى في بقاء الجنس البشري.

يُعدُّ كتاب القنبلة السكانية (The Population Bomb) لبول إيهرليك (Paul Ehlicrh)، -بعد الربيع الصامت- الكتاب البيئي الأكثر أهمية، وهو كتاب كلاسيكي مولوثسي -محدث يرتكز على الاسقاطات الرؤيوية المرعبة لتقوية قوة الإقناع لديه: «المعركة الدائرة لإطعام الإنسانية جمعاء قد وضعت أوزارها. في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين سيقضي مئات الملايين من البشر جوعاً، بالرغم من كل برامج الطوارئ الموظفة حالياً. في هذا التاريخ المتأخر لن يوقف شيء الزيادة المطردة في معدل الوفيات العالمي» (1972:11). في السيناريو الأول لكلا (السيناريوهين) المقدمين، تصورت إيهرليك أن الزيادة المفرطة في عدد السكان سوف تجلب الانهيار البيئي، وعدم الاستقرار الدولي، وحرباً نووية في منتصف ثمانينات القرن العشرين. أما في السيناريو الثاني، فسوف تسهل هذه الزيادة انتشار حمى الاسا (Lassa) الوبائية. فالفشل في تنظيم معدل الولادات يمكن أن يؤدي –وفقاً لمنطلق إيهرليك المالثوسي عديم الرحمة- إلى ارتفاع صاروخي في معدلات الوفيات، حيث حلّ الضغط السكاني «ثلاثة من الفرسان الرؤيويين الأربعة الحرب، والوباء، والمجاعة» (1972:48) ما يميز إيهرليك عن كارسون تمييزاً جذرياً أن الأول يرى

أن النوع البشري عينه هو من يمثّل التهديد المتزاحم، والمتنامي، والبيئوي-المرضي- الذي يشبهه بالسرطان (الذي تنقسم الخلايا فيه دون سيطرة). (معالجة الأعراض) يمكن أن توفر راحة مؤقتة، لكن (الجراحة الاستئصالية) هي الأمل الحقيقي الوحيد بالنسبة للمريض. فالمساعدات الغذائية والطبية، إذاً، يمكن الاستعاضة عنها بالتعقيم الإجباري و(مبدأ أولوية خطورة الحالة)[1] (triage principle) في التخلص من المجاعة، الذي بموجبه تحرم الدول التي تظهر أنها غير قادرة على الاكتفاء الذاتي من تلقي الغذاء. لكن (الطبيعة) سوف يسمح لها بتناول لون الغذاء الذي تفضله (1972:156). فالمسؤولية الأخلاقية عن هذه النتيجة المأساوية يمكن أن تقع –وفقاً لإهيرليك- على عاتق كل من أخفق في منع الزيادة المفرطة للسكان.

يُعدُّ منهج التركيبةالسكانية المالثوسي[2] (Malthusian) المحدث بوصفه (لعبةَ أرقام) في الواقع مضللاً بشكل كبير. على سبيل المثال، يقدم الإقليمي -الأحيائي كيركباترك سيل (Kirkpatrick Sale) السيناريو المالثوسي التالي:

"لما يزيد عن قرن من الزمان، عام بعد عام، شجع البريطانيون، وطور الإيرلنديون اعتماداً شبه كلي على دعامة غذائية واحدة –البطاطا-. وقد نما عدد السكان على الجزيرة من مليونين إلى ثمانية ملايين. وفجأة بعد ذلك -في عام -1845 ظهر منافس للبطاطا على شكل فطريات طفيلية تدخل في الدرنات، قبل أن يتحول الناس إلى استخدام البطاطا إلى كرات مخاطية لزجة لا يمكن أكلها. حدث الاصطدام: خلال جيل واحد قد دُمِّر البلد..." (Sale 1985: 27).

حقائق سيل –كخطوط عريضة- صحيحة. فأكثر من مليون إيرلندي قد تضور جوعاً حتى الموت، أو قضى نحبه بسبب أمراض سوء التغذية خلال مجاعة عام 1845. ما أخفق في ذكره أن إيرلندا استمرت في تصدير الغذاء خلال فترة المجاعة، إلا أن السيطرة على هذا الفائض من الغذاء تقع في أيدي ملاك الأراضي البريطانيين والأنجلو-ساكسونين. لم يعانِ فلاحو إيرلندا ببساطة من نقص الطعام، بل عانوا من نقص المال، والأرض، والنفوذ. فقد كانت اسكتلندا معتمدة على البطاطا، وقد ضربتها الآفة بقوة أيضاً، إلا أنه لم يكن هناك مجاعة. في الحقيقة كل المجاعات المعاصرة يمكن أن ينظر لها بوصفها أزمات سياسية واقتصادية، وليس مجرد تعارضات بين الزيادة السكانية وانهيار إنتاج الغذاء. الحد الموضوعي المفترض للسكان الذي مثّلته (قدرة

---

1 مبدأ يستخدم في المستشفيات لتصنيف أولوية علاج الحالات.

2 مالثوسي: ذو علاقة بمثالوس (Malathus) (1766-1834) القائل أن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق ازدياد الموارد الغذائية، وبأن النسل يجب يحدد أو يضبط. انظر المورد منير البعلبكي.

الحَمْل) البيئوية لمنطقة ما، يغدو بلا معنى، عندما يطبق على المجتمعات الإنسانية التي تسوّي مشكلة توفير الغذاء بطريق النفوذ السياسي، والعسكري والاقتصادي. يُجمع الوفريون وعلماء التنبؤ الاجتماعي على هذه النقطة، على الرغم من اختلاف رؤاهم السياسية (انظر North، 1995:11-94؛ و273-237 :Ross، 1994). فلقد استُغلت المولثوسوية المحدثة: لتبرير تشديد ضبوطات الهجرة في الدول الغنية، لحماية قدرة الحمل المهددة لديهم، وكذلك لوضع حد للمساعدات الغذائية للدول التي تضربها المجاعة، التي قد جاوزت -افتراضياً- حدودها البيئوية. في كلتا الحالتين تطبق المناهج الأحيائية على الأوضاع الإنسانية بنتائج تؤيد بشكل مباشر سياسات الجناح اليميني المتطرف حتى عندما لا تشتق منها.

يتفق علماء السكان أن مولثوس حصل على مجاميعه الصحيحة بخصوص احتمالات النمو الأسي لأي جمهرة سكانية -من البكتريا إلى البشر- إلا أن هذه الاسقاطات لزيادات محتملة في إنتاج الغذاء لا تعدو أن تكون تخمينات. وقد أخفق أيضاً في التنبؤ بالظاهرة المعروفة بـ (تحوّل التركيبة السكانية)، الذي تقلل بموجبه التقدمات العلمية من معدلات الوفاة، ويرتفع عدد السكان ويصارع الإنتاج الزراعي في مجاراته. لكن بعد ذلك، تنتج عملية الحداثة تدريجياً حوافز اقتصادية وثقافية لتخفيض أحجام العائلات، مما يؤدي إلى أنْ تنخفض معدل الولادات. فلدى معظم الدول المتقدمة في يومنا هذا، أعداد سكانية ثابتة أو متناقصة. إلا أنهم دفعوا ثمن التحوّل في النمو الاقتصادي الذي تؤججه مصادر طاقة غير متجددة. أولاً الفحم وبعد ذلك النفط. يدلل المالثوسيون-المحدثون أن كوكبنا المحدود لا يمكن أن يدعم مثل هذه التحولات لكل الدول النامية.

ومع ذلك، يبدو أن الانتقال لا يتطلب نمواً اقتصادياً بالنسبة أو الدرجة التي خبرتها الدول المتقدمة. فقد أظهر مؤتمر الأمم المتحدة عن السكان والتنمية المعقود في عام 1994 توافقاً ملحوظاً أن السيطرة غير الإكراهية على السكان تعتبر أولوية على مستوى النمو الاقتصادي والاستدامة البيئية على حد سواء، مقترحين أن التعليم والعناية الصحية الأساسية، خصوصاً للمرأة، هي أكثر الوسائل المتوفرة فعاليةً. قد تبدو هذه الإجراءات بالتأكيد نوعاً من (الحلول المعسولة) التي رفضتها إيهرليك في (القنبلة السكانية) (1972)، من منطلق أن المجاعة الرؤيوية كانت وشيكة، على الرغم من أنه قد أظهر دعماً -في السنوات الأخيرة- لمثل هذه الإجراءات في (الانفجار السكاني) (The Population Explosion، 1990). قد يرجع هذا إلى أن أحدث اسقاطات عدد سكان العالم تقترح أن الانتقال قد يحدث أبكر، وبمستوى أخفض، مما كان يتخوّف منه سابقاً.

المشاكل مع (القنبلة البشرية) تتمثّل -في الحقيقة- في الصعوبة الأكثر عمومية التي تحيط بالتنبؤات المنذرة بالكوارث في الأدب البيئي. ففي تشرين الأول من عام 1999، تجاوز التعداد المقدّر لسكان العالم الستة مليارات نسمة، وهو ستة أضعاف عدد السكان العالمي في عام 1850. وكما يلاحظ غور، فإن أكثر هذه الزيادة قد حدث في السنوات الأخيرة:

«منذ بدء ظهور البشرية على الأرض حتى عام 1945، تتطلب مرور أكثر من عشرة آلاف جيل للوصول إلى تعداد سكان عالمي يصل مليار نسمة. الآن، في سياق عمر شخص واحد، (أنا)، سوف يزداد عدد السكان من اثنين لأكثر من 9 مليارات، وهذه زيادة تفوق معدل الزياة التي حدثت سابقاً بعد مرور خمسة آلاف جيل» (1992:31).

تماماً مثلما تأثر بيان لورنس المرعب بكارثة الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، كذلك يُفسّر بيان إيهرليك المرعب من منطلق الزيادة المطردة في عدد السكان العالمي، والثمن البيئي الذي لا يمكن إنكاره الذي يرتبط بهذه الزيادة. في الوقت نفسه، فإن إسقاطاته عن الفوضى العالمية فشلت في جذب الانتباه، وأن المجاعات التي حدثت فعلاً في تلك الدول من مثل أثيوبيا والصومال كانت نتيجة للصراعات العرقية، والسياسية، والاقتصادية، وليست ببساطة ضغوطاً سكانيةً. فسوء التغذية الشائع، والمزمن الذي زاد الطين بلّة في بعض المناطق خلال تلك الفترة- خاصة في أجزاء من الصحراء الإفريقية- لم يمنع نقّاد إيهرليك الوفريون من أمثال جوليان سيمون (Julian Simon) من إعلان الانتصار.

ينوه كلينجسورث (Killingsworth) وبالمر (Palmer) أن كتاب (القنبلة السكانية) يعد أكثر الكتب البيئية رواجاً، ويعزو هذا جزئياً إلى رؤيويته الصادمة. ومع ذلك، فهما يدافعان عن إيهرليك في مقابل النقاد الذين أشاروا إلى فشل (سيناريوهاته) عن التحول للمادية، مدللان أن «هذه الكتابات يجب أن لا تفسر حرفياً. هدفها ليس التنبؤ بالمستقبل بل تغيره» (1996: 1-40). يدعم هذه الدعوى تعليق إيهرليك التحذيري بافتتاحية سيناريوهاته: "تذكر، هذه احتمالات فقط، وليست تكهنات (1996:52). فالرؤية البيئية-وفقاً لوجهة النظر هذه -ليست معنيّة بالتكهن بنهاية العالم، ولكنها تُعنى بتفادي هذه النهاية بوسائل مقنعة، ورغم ذلك، فإن هذا التمييز الفئيوي بين النبوءة والعظة، لن يدعمه تاريخ الرؤيوية، ولا النظرية البيانية. فهذا التمييز الكلاسيكي بين الروح، وبين العقل، وبين العاطفة، قد أسس للعناصر الثلاثة المساهمة في الموقف البياني، الذي يمكن أن يُفسَّر بفجاجة أنه سلطة معنوية؛ وحقائق، وحجج، ورداءاً عاطفياً، تصبغ العبارة. تتحدر روح (ethos) إيهرليك مباشرة من مكانته عالماً، لديه القدرة على استقراء

الفرضيات المجرّبة في نوع خاص من التنبؤات فقط، أو العقل (logos)، وهذا ما يقوم بها بشكل مذهل في الصفحات الأولى (من القنبلة السكانية). أما القوة العاطفية (Pathos) للكتاب فلن تعتمد بشكل كامل على ادعاءات مزورة –طبعاً– ولكن لن تتمكن من أن تنفصل عنهم كليةً.

يمكن أن يُبرر غلو إيهرليك الاستراتيجي من منطلق الاهتمام بالإقناع الناجح، إلا أن المخاطر التي يعرضها هذا النهج على المدى البعيد، لأسباب بيئية، يمكن أن يرجع عن فائدته البيانية. من الواضح أن الرؤى البيئية اللاحقة حقاً تعلمت الحذر من نموذج إيهرليك. حيث يغازل غور –كما رأينا– الرؤية المأساتية فقط لكي ينسحب للدعاوى الأكثر حذراً التي تتلاءم مع الشك العلمي والفكر المسيحي الأخضر السائد على حد سواء، فـ(خيانة العلم والعقل) (Betrayal of Science and Reason، 1998) الذي يشرع منه بول وآن إهيرليك في محو الدعاوي الوفرية، ما هو إلا مثالا على البيان الرؤيوي الملهاتي. ويصمّد الكتاب دفاعاً خلفياً عن بعض الدعاوى الموجودة في (القنبلة السكانية)، بينما يعترف ببعض اخفاقاته. إلا أن التغير الأكثر إدهاشاً تجسّد في تغيّر الحقائق أو العقل (logos) تغيراً طفيفاً. فالروح والعاطفة في الكتاب تتغير بشكل جذري على حد سواء. بينما كانت سلطة الخطيب ومكانته في الكتاب الأول تشبه تلك التي كانت للنبي إرميا (Jeremiah)[1] الوحيد الذي يعيد إرسال تحذير لا جدال فيه من البرية. يناشد كتّاب (الخيانة) بشكل متكرر دعاوى الحقيقة العلمية للمجتمع العلمي كله تقريباً. في الحقيقة، فقد ذيّل المؤلفان إيهرليك الكتابين بقائمة من العلماء والجمعيات العلمية التي تشكل إجماعاً على الأزمة البيئية. حدد الوفريون –التي كُتبت دعاواهم بالخط الغامق في الكتاب– أنهم مجانين الآنات(2) الكثيرة ومبررو الصناعة. زيادة على ذلك، فالنغمة العاطفية أقل مواجهةً، ودرامية بكثير، فهي تمد يدها إلى (الخشابين، وعمال المناجم، والمزارعين، وصيادي السمك)، وتدفع تجاه اتخاذ إجراء دولي للتخفيف من حدة الفقر، والأمية وظلم المرأة، من أجل إبطاء النمو السكاني. يدعي المؤلفان إيهرليك أن قرار تضمين كتاب (القنبلة السكانية) (السيناريوهات) الذي اتخذه بول –جعل منه فريسة سهلة للنقد. إلا أن التحول البياني الظاهر هنا يقترح أن الاصباغ الرؤيوي المأساتي لقضية السكان هو من صنع نجاحه الهائل والفضيحة الباقية التي أحدثها على حد سواء.

تماماً مثل الألفية المسيحية، توجب على الرؤيوية البيئية أن تواجه إحراج إخفاق

---

1 أرميا (نحو 650 -585 ق.م). نبي يهودي تنبأ بسقوط أورشليم.

2 آنة: وحدة النقد السابقة في الهند وبورما وهي تساوي 1/16 من الروبية (المترجم، البعلبكي: المورد).

النبوءة حتى عندما لم تستطع أن تتخلى عن المجاز كاملاً. من الواضح أنه يوجد نطاق أوسع من الاختلاف العقلاني في العلوم البيئية مما هو موجود في التدخل الإلهي. ومع ذلك، فإن القصص الدينية والعلمانية التي تتناول الآخرة في المزاج المأساتي، يبدو أنها تتشارك النزعة ذاتها نحو الزلل تجاه ملهاة غير مقصودة، أو رعب حقيقي. وكما يشير بويل: "في عهد مهد القطة (Cat's Cradle)، والدكتور حب غريب (Doctor StrangeloVe)، وحرب النجوم (Star Wars)، من الصعب على الرؤيوية أن تحافظ على وجه قويم (1995:300). بالمقابل فإن مؤلف (القنبلة السكانية) المناصر لـ (فحص أولوية المعالجة) و(الجراحة الاستئصالية) يجب أن يعترف بمسؤولية -غير مباشرة- عن استراتيجيات التحكم القسرية بعدد السكان المطُبقة في الصين والهند بوصفها أثراً خلّفه وصيته.

لم تقتصر الرؤيوية البيئية على المنشورات العلمية الرائجة. فقد ناصر الشاعر الأمريكي روبنسون جيفرز (Robinson Jeffers، 1887-1962) فلسفة (اللاأنسنة) التي كانت على خلاف جذري مع فرضيات الفوقية البشرية المتأصلة في نفوس نقاد الأدب والأكاديميين، ولكنها تدين بوضوح إلى نيتشه ولورنس. وتخضع معتقدات اللاأنسنة ذاتها إلى الجدل، لكن يبدو أنها تلخص الفوقية البيئوية الريؤية مذهباً شعرياً. يطوعها اولستشليجر على أنها تأكيد على وحدة وجود البرية التي «تدوّر الحُب للخارج من الجنس البشري عبر الإنسان إلى روعة جمالية الأشياء، فالكون كلّه الذي يؤطر رحلة الإنسان الطويلة هو ذاته -في الحقيقة- إلهي» (1991:252). من المؤكد أن جمالية الطبيعة يُصرّح بها بشكل متكرر، ولكنها تظهر بمعدل أقل من المتوقع من شاعر (فوق بيئوي) تتسع البرسينة[1] (The Purse-Seine) لجيفرز بالقدر نفسه الذي يصارع فيه الشاعر، لوصف الجمال المسير للصيد الليلي لقطيع الأسماك الفسفوري المتألق: "لا أستطيع أن أخبرك/ كم جميلاً هو المشهد". لكن بعد ذلك، كان السمك المحاصر.

"... يتضارب بعنف من جدار إلى آخر من قَدَرهم العاجل الفسفوري.

تصب الماء إلى بركة من اللهب. كل جسد نحيل جميل كان مغطى باللهب كأنه صاروخ حي" (Jeffers 1987: 55).

كما يُعترف بحتمية تشبيه السمك المحاصر والجنس البشري، حيث ينظر الشاعر على أنوار (المدينة الواسعة) ولا يستطيع "أن يفعل شيئاً سوى استذكار الشبكة الضخمة/تجمع السمك

---

1 شبكة صيد ضخمة.

المتلألئ". فـ (الكوارث الشاملة الحتمية)، مثل شبكة التقدم التي تحكم قبضتها علينا، ليست مُناسَبةً للتحذير أو النعي، ولكنها -على العكس- رضىً مقيتاً عن إعمال قانون طبيعي متصلب. يعج شعر جيفرز في الحقيقة بالصور الرؤيوية". رقص ال/مجموعات يسوقها الحلم إلى أسفل الجبل المظلم، و(إعادة التسلح)، إنسان ... ملطّخ، و(إلى قاطعي الأحجار)، و(الأبهة الزائلة) النيزكية لأمريكا الهالكة، (جمهورية زائلة ومشرقة). وترتبط أحياناً برحمة مقيدة بالإنسانية، كما عندما تحلم الأرض ذاتها بعاصفة مطهِّرة رمزية عنيفة في "أمواج تشرين الثاني المتكسرة على الشاطئ"، وتتخيّل كيف يمكن "للحيوان الثدي/ ذي القدمين" أن يستعيد "كرامة الحُجرة، وقيمة الندرة" (1987:39). وفي (الفضوليين)، يُصوّر إنسانٌ مرعوبٌ وهو يراقب ثلاثة عمالقة شبه الجبال، (تفتش) في حفنة من الناس. حيث يشق العمالقة فتحة (في جمجمة) أنثى شابة ليصلوا إلى أصل المشكلة، ويتجادل العمالقة عن النتاج النووي-الحراري لهذا الدماغ:

"قطرة من النخاع، كيف يمكن لهذه القطرة أن تفسد الأرض؟"

"ومع ذلك"، يجيب:

"لديهم تلك القنبلة. الانفجارات والحرائق تُعد لا شيء: نمَش على وجه الأرض: الفيضانات

يمكن أن تقحم الكوكب كاملاً بحمّى خدّاعة

وتدمر الكثير". "أنفسهم" أجاب: "دعهم".

لم لا؟ لا، أجاب، "الحياة" (Jeffers، 1987: 73)

يشكل التهديد الذي يفوق الخيال للأسلحة النووية، كما الزيادة الصاروخية لعدد السكان، حافزاً كافياً للتفكير الرؤيوي. كان لورنس يكتب في غمرة أكثر حرب مرعبة على الإطلاق، وقد نشرت جمهورية جيفرز تواً أحدث الأسلحة الأشد فتكاً. ومع ذلك، فالفوقية البيئوية المبغضة للبشر التي أظهرها (بيركن) لورنس، و(عمالقة) جيفرز، أو حتى (أكثر من رجال) نيتشه، تعدُّ مزعجة أخلاقياً، ذلك أن منظور الفوقية البيئوية الحقيقي يعدّ -جدلياً- محايداً معنوياً فيما يخص آثار البشر على البيئة.

وبالمقارنة، يمكننا أن ننظر إلى عمل جيمس لفلوك (James LoVelock)، (جايا: نظرة جديدة للحياة على الأرض) (Gaia: A New Look at Life on Earth)، الذي يدلل أن

الأرض يمكن أن يُنظر لها نوعاً من مخلوق خارق، والفضل يعود (لاتزانها) الحيوي-الكيمائي، والمناخي المنظم ذاتياً. يبدو أن فرضية جايا تدعم منظور فوقي بيئوي، ذلك أنها تشركنا في تقييم السياسات من منطلق آثارهم على المحيط الحيوي كليا. ومع ذلك، فنتائج لفلوك (LoVelock) ليست بالضرورة مذعنة للبيئوية المتشددة: فهو يدلل أن النباتات والحيوانات الضخمة ليست مهمة نسبياً، بل إنها تشبه أولئك البائعين المتأنقين، والنماذج البرّاقة التي تستخدم لعرض منتوجات شركة ما -مرغوبة ربما- لكنها ليست ضرورية، (1982:40). يختتم لفلوك:

"من المحتمل أن طفح تقنيتنا الحار جداً يتضح نهاية أنه مدمر ومؤلم لجنسنا البشري، لكن الدليل لقبول فكرة أن نشاطاتنا الصناعية سواء بمستواها الحالي أم القريب العاجل يمكن أن تعرض حياة جايا كاملةً للخطر، هو دليل ضعيف في الواقع". (1982:107-8).

يخرج عمالقة (giants) جيفرز بالنتيجة ذاتها:

"من غير المحتمل أن يتمكنوا من تدمير الحياة كاملة: فالكوكب متسع. ومن المؤكد أن تنمو الحياة من جديد.

من اليرقات التي في التربة، أو من حيوانات بمستوى السمندل المائي، أو الضفدع، وستغدو جميلة من جديدة ..." (1987:73).

التناقض -إذاً- هو التالي: النظرة البعيدة التي يتمتع بها البيئويون المتشددون تفضل -في الواقع- الجبرية (Fatalism) فيما يخص السلالة المفردة، بما فيها سلالتنا. أما من وجهة نظر العمالقة، فالبشر والديناصورات وطيور الدودو[1] كلها على التساوي غير لازمة. (قطرة النخاع) الموجودة داخل الجمجمة البشرية هي وحدها القادرة على الاهتمام بمصير حيوانات الكركدن، أو الأشجار الحمراء، نحن فقط من يبني قصص رؤيوية، ولذلك فحتى أخلاق الفوقية البيئوية يجب أن تبقي نتاج للبشر (anthropogenic). عند هذا الحد المتطرف، فإن النوع داخل الإنسانية أو بعدها الذي ينظر له نيتشه، ولورنس وجيفرز هو ببساطة مناقض لذاته، ذلك أن تحقيقه سوف يجعل منه في الوقت ذاته بلا قيمة. مثل هذه الإيحاءات سيتم مناقشتها بشكل أوسع في الفصل الأخير.

(الأرض أولاً) -التي تأسست في ثمانينات القرن الماضي كأحد المنظمات البيئية الأكثر تشدداً في أمريكا الشمالية- تضم لا أنسنة انقلابية، ومعتقدات رؤيوية وإجراء مباشر لحماية

---

1 طائر منقرض من فصيلة الحمام، ولكنه أكبر من الديك الرومي. البعلبكي: المورد.

مناطق البرية. وقد تشكلت ابتداءً من نشطاء في المجموعات السائدة في ذلك الوقت مثل (نادي سيرا) و(جمعية البرية). ساءهم التنازلات التي طلبها منهم أمثال اللوبيات في واشنطن، الذين قرروا أن لا شيء سوى المواجهة الحازمة مع قوى الحداثة يمكن أن يمنع (الذوبان البيئوي). وَفقاً لِـ م.ف.لي (M. F. Lee) فإن (الأرض أولاً) قد ضمت رؤيوية مأساتية إلى جانب معتقدات علم التبيؤ المتعمق:

"إنهم ... يناصرون مساواةً فوقية بيئوية، والاعتقاد أن كل الأنواع متساوية جوهرياً لذلك تمتلك حقوقاً متساوية في العيش. (الأرض أولاً) قد نقلت هذه الأفكار من حقل التخمين الفلسفي إلى حقل الإجراء السياسي، مضيفةً لذلك إلحاح الاعتقاد في رؤيا وشيكة. إنه التحول الألفي ذاته الذي حفّز إجراءات الأرض أولاً بشكل مباشر وقرّر تطورها" (1997:124).

منحت هذه الاعتقادات (الأرض أولاً) حماسة وشجاعة غير عادية في دفاعها عن مناطق البرية. وقد طوّر مؤازروها إلى جانب ذلك رؤيةً ألفيةً لعالم بدائي مستقبلي. تستمر فيه (قبائل) الصيد والجمع في العيش عقب دمار الحضارة الصناعية. وقد نمت (الأرض أولاً) بشكل سريع، جاذبة النسويين البيؤيين، وعلماء التبيؤ الاجتماعي، وكذلك مؤازري الحياة البرية إليها. لكن بعد ذلك، كما تبيّن لي (Lee)، بدأت المنظمة في مواجهة ضغوط متأصلة في اعتقاداتها جوهرياً، حينما فسحت اعتقادات النشطاء الألفية الأصلية الطريق لرؤيوية فارغة، وكوابيس مولثوسية عن الفائض السكاني، سببت بربرية مشوهة، كما دلل عليه الشكل الذي قدمه كريستوفر مينز (Christopher Manes). دلل مينز -وهو يكتب تحت الاسم المستعار الآنسة آن ثروبي (Miss Ann Thropy)- أن مرض نقص المناعة المكتسبة (AIDS) يجب أن يلقى ترحيباً من جانب البيئويين المتشددين، لمساهمته في اختزال عدد السكان. وقد مزّقت هذه الخلافات جمعية (الأرض أولاً)، حيث هاجم كثير من الأعضاء الجدد ذوي التوجه الاجتماعي، وبعض دعاة علم التبيؤ المتعمق رؤيوية البرية. مما أدى إلى ترك كثير من الأعضاء المؤسسيين من أمثال ديف فورمان (Dave Forman) (الأرض أولاً) مدعين أنها خانت مواقفها الأولى اللامهادنة. تدلل لي (Lee) على أساس دراستها أنه:

«يمكن لأكثر المذاهب البيئية تشدداً أن يدعم ابتداءً -ولكن لا يمكن أن يستمر- في دعم الإيمان الألفي. تنكر المعتقدات الفوقية البيئوية التي يتمثلها الشق الرؤيوي لِـ (الأرض أولاً) دور النوع البشري المحوري في التاريخ. وعندما يجد صعوبة في تحديد حدوده، سيوفر هذا النظام الاعتقادي المبّرر لاتخاذ أي إجراء من أجل حماية البرية، بغض النظر عن تضرر الجنس البشري

أم لا. فالأفراد الذين يحملون هذا المعتقد قادرون على إيقاع خراب كبير على الحضارة البشرية التي يعيشون بكنفها، (1997:133). ووفقاً للمنطق المستخدم آنفاً، فقد تميّز الشق اللاإنساني لـ (الأرض أولاً) عن علماء التنبؤ (الاجتماعي) باعتناقه رؤية مأساتيةً لا ملهاتية. فقد صُرّح عن مخاوفهم من كارثة بيئوية وشبكة من خلال منظومة قيمية ازدواجية تجافي البشرية والبرية بهمجية. نظر مناصروهم إلى البشر أنهم مختلفون في مسؤولياتهم تجاه المشاكل البيئية وفقاً للجنس، والطبقة، والعرق. وقد تصوروا التغيير السياسي الجذري من خلال التفاوض، والإجراء المباشر. ويُتهم الشق اللاإنساني أيضاً في تعزيز اتجاهات الفوقية الذكورية، واتجاهات حمى الشك، وربما اتجاهات العنف في المنظمة.

المشكلة مع الرؤيا THE TROUBLE WITH APOCALYPSE

يبدو أن البيان الرؤيوي عنصر ضروري للخطاب البيئي. فلديه القدرة لشحذ النشطاء، وتغيير وجهة نظر المحايدين، ونهاية –ربما– التأثير على السياسية الحكومية والتجارية. في الولايات المتحدة –بشكل خاص– يمكن لهذا البيان أن يقتات على منابع الشعور الرؤيوي العامي، والأدبي العميقة. فنشرة الأخبار عادة ما تبث تقارير عن القضايا البيئية مثل الكوارث، ليس فقط لأن هذا يولد دراما مع إمكانية جذب الاهتمام البشري، ولكن لأن بشرة الأخبار تجد سهولة في بث تقارير عن الأحداث أكثر من العمليات. وتوفر الرؤيا هيكلاً إسنادياً مشحوذاً عاطفياً، تُختزل فيه القضايا المعقدة بعيدة المدى إلى أزمات ناتجة عن سبب واحد، ويضم صراعات بين مجموعات متعارضة بشكل واضح، مثل (السلام الأخضر) (Green Peace) مقابل (صيادو الحيتان) (Whalers). فدراسة جون هانيجان (John Hannigan) عن علم اجتماع الصراع البيئي تحدد التأثر الأكثر شيوعاً، بتوظيف سلسلة من الاستعارات الطبية، يصوّر كوكبنا على أنه يواجه مرضاً مضعفاً وربما مرضاً مميتاً (1995:72). تُعدّ (القنبلة السكانية) لإهيرليك مثالاً مبكراً على الربط البياني الذي يجري الآن بشكل شائع بين المجاز الرؤيوي القديم وأثر علم التنبؤ بوصفه علماً عن الصحة الكوكبية، كما نوقش بشكل أوسع في الفصل الثامن.

تستحضر السرود الأخروية -إذاً- المشاكل الفلسفية والسياسية التي تحط من فائدته بشكل خطير خصوصاً في نسخته المأساتية المتشددة. وتميل إلى استقطاب الاستجابات وحث الشكوك من اجل السخرية من اللامبالاة وربما حث المؤمنين على المواجهة وحتى على العنف، وهذا نمط مألوف من الصراعات الدائرة بين المجتمع الحر والطوائف الرؤيوية.

من جهة أخرى، في حين أنّ الجماعات البيئوية المتشددة منسجمة بيانياً مع الألفيين التقليديين، فإنهم مختلفون إلى حد كبير من الوجهة العلم-اجتماعية، حيث تؤكد الجماعات البيئوية المتشددة الانفتاح على مختلف المعتقدات، مع الإبقاء على مقاومة صلبة للقيادة الساحرة للجماهير. وحتى لو كان هذا مسموحاً به —مع ذلك- فالنزوع الطبيعي للرؤيوية إلى أن تنقلب إلى شيء بشع فيما يخص الزيادة السكانية يجب أن يجابه.

هناك مشكلة أكثر عمومية وهي أن بيان الكارثة ينزع (لإنتاج) الأزمة التي يوصُفها، كما حدث في التصوير المولثوسي للفقر المدقع على أنه (مجاعة). -إضافة إلى ذلك- كما يبين ريتشارد نورث (Richard North) في دراستي حالة مفصّلتين —أن الأهداف السياسية لحملات المنظمات يمكن أن تتعشّق بدقة متناهية مع الرغبة الإعلامية للتكامل العلمي أن يكون موجوداً في التقارير التي تتناول (الكارثة) البيئوية. ويحلل نورث التفاعلات الإعلامية لفرق عبّارة النفط (برايرا) (Braer) في عام 1993. ويدعي أنهم أظهروا تفضيلاً واضحاً للتعليقات الرؤيوية التي كانت تطلقها منظمات الحملة عن التقييمات التي لا ترقى إلى مستوى الحدث، والتي كانت تطلقها الحكومة، أو علماء الصناعة النفطية:

"يبدو أن لتعليق (جماعة السلام الأخضر) العديد من الميزات الإعلامية العالية. فهي تؤكد على احتمالية الكارثة البيئوية، وتنبع من القلب، وموجزة، وسلسة. إنها تنبع من أناس ليسوا جزءاً من (المؤسسة). حيث يشاطر الإعلام و(جماعة السلام الأخضر) الفهم ذاته للعالم. إلا أن الأشياء تنحرف إلى الاتجاه الخطأ لأن المصالح الشخصية لا تلقي بالاً، وتبقي الأشياء في الجانب الخطأ بسبب التغطيات التي تعمد إليها المصالح الشخصية. لم يعترف الإعلام ولا (جماعة السلام الأخضر) أن لهما أيضاً مصالح شخصية تنزح إلى إبقاء القراء والداعمون ممتمون ومثارون" . (1995:99).

يدلل نورث أنه يمكن أن يكون (تجار الهلاك) يقومون حرفياً بترويج أخبار سيئة. ومثال آخر على ذلك، الميل الصحفي لتفسير كل حالة جفاف أو عاصفة ثلجية أنها (علامة) على انحباس حراري عالمي كارثي. بينما يتبنى علماء المناخ على الدوام بيانياً رؤيوياً ملهاتياً، ينكر إمكانية ربط أحداث جوية معينة بتغير المناخ العالمي. يخفف هذا التحذير من خلال الحاجة إلى تصريحات سلطوية تصب في مصلحة السياسة، وأحياناً من خلال الخطر الذي يحدثه تفسير الاسقاطات للعامة أنها تنبؤات.

نهاية الطبيعة (The End of The Nature) لبيل مكيبان (Bill Mckibben)، -التي

تناقش على أنها قصة (برية) - مسكونة بالوجود الكلي وعدم مصداقية (علامات) التغير المناخي. (فطبيعة) مكيبان لا تهددها احتمالية الرؤيا حسب، ولكن بمفهوم معين شيء أبعد من ذلك، ذلك أنّ الطبيعة إذا أُخِذت مثل البرية، فإنّ مجرد التفكير في التدخل البشري، يُعدّ كافياً بشكل حاسم لتلويث نقائها. في صورة معكوسة للرؤيا الفارغة، فإن العالم الذي ينقيه غياب الإنسان سوف يحل محله عالم مغيّر بشكل لا يمكن استعادته بفعل الانبعاثات البشرية. فلا نتمكن من معرفة ماذا (يفترض) للفصل أو درجة الحرارة أن تكون؟ بالنسبة لمكيبان. نهاية الطبيعة ليست بالضرورة نهاية للعالم ذاته. ولكنها رؤيا من صنع الخيال. هذه النهاية أصبحت الآن خلفنا. لا تدع شيئاً سوى خيارات عديدة لإدارة طبيعة تحولت كاملاً ودوماً إلى طبيعة أهلية. ومع ذلك، ليس تحويل مكيبان للطبيعة إلى برية خاص بالولايات المتحدة الأمريكية حسب، ولكن النشاطات البشرية مثل إزالة الغابات، والصيد والزراعة، كلها شكلت عوامل بيئوية أساسية منذ تطور النوع البشري. ينتج بيان مكيبان الرؤيوي بشكل مؤثر أزمةً يتعذر حلها. يدعي البيان أنه يعرّف بها فقط.

يعزز البيان الرؤيوي البحث المضلّل عن المتهمين أيضاً. وعن الأسباب التي يمكن تصورها باختزال من خلال دمج التعاطي مع المشاكل البيئية شديدة الاختلاف وفقاً لمفهوم (الأزمة البيئية) المفردة الوشيكة. فعلماء التبيؤ المتعمق –على سبيل المثال- يهاجمون (الإنسانية) أو (الحضارة)، أو (بالمستوى المفاهيمي) الفوقية البشرية. وينتقد النقاد البيئويون النسويون الفوقية الذكورية، أو المنطق الازدواجي في الهيمنة. ففي حين يتوجب عدم النظر إلى المشاكل البيئية منفردةً، قد تبدو هذه المشاكل سلسة أكثر للحل إذا فكّكت وأُطرت بإطار القصص الرؤيوية الملهاتية الذي يؤكد على وفرة المعرفة، وعلى الإدارة الحرة، والصراع الدائم. وتعدد المجموعات الاجتماعية ذات المسؤوليات المختلفة. بهذه الطريقة، لا يتم اختزال المشاكل، ولكن يغدو أولئك الذين يصفونها أقل عرضة لإحراجات النبوءة الفاشلة، ولتهديد الحماسات الألفية.

إذا كان البيئويون المتشددون وبعض البيئين رؤيوين فهل (الأزمة) البيئية -إذاً- وهمية، أو تركيباً عقلياً استطرادياً يستحق التفكيك، ولكنه ليس رعباً ألفياً؟ بينما يمكن تحديد المخاطر الاستراتيجية لمثل هذا البيان، إضافة لأصلها سيء السمعة شيئاً ما، فإن صلاحيتها يجب أن تقرر نهاية من خلال دراسة متأنية للدليل المشتق من النزعات التاريخية ومن الاسقاطات المتنوعة لـ -قل- عدد السكان العالمي، أو التغير المناخي الذي يشرعن النزاع العلمي الذي سوف ينتجه. ويجب على النقاد البيئويين أن يقيموا كفة، وشأن الإجماع العلمي، وأن يذعنوا في التحليل النهائي له، حتى عندما يحللون الطرائق التي من خلالها تشكّلت هذه النتائج بفعل الإيديولوجيا والبيان.

في الوقت الراهن، لم يدعم الإجماع الموضوع بدقة على عمل إيهرليك (خيانة العلم والعقل) مفهوماً مأساتياً تقليدياً عن (نهاية الزمن) المفردة والكارثية، أو حتى القدر الآني المحكوم للمدنية الغربية بالرغم من أن تقييمهم بنأى كثيراً عن التفاؤل. مع ذلك، يمكن التدليل أن تحدي علم التبيؤ المعنوي والسياسي، يمكن أن يتمثل في القبول أنّ العالم ليس على وشك النهاية، وأن البشر سوف يبقون حتى ولو انتهت مدنية الطراز الغربي. إذا تخيلنا فقط أن للكواكب مستقبل، فهل نحن مستعدون -نهايةً- لتحمل مسؤولياتنا تجاهه؟

الفصل السادس

السكن
DWELLING

أسهمت المجازات التي درسناها لغاية الآن، في الطرائق التي من خلالها نفهم الطبيعة، ولكن من وجهة نظر بيئوية نقدية، فكلها تعدُّ خاطئة من جانب واحد: فلم يقدم أحد منها نموذجاً للوجود العملي حقيقة حاضرة. توحي مجازات الرعوية والبرية نمطياً بوجهة نظر سائح المناظر الجميلة، بينما تشفر الرؤيا رؤية الخيال النبوئي. ومع ذلك، فهناك آداب أخرى تستكشف احتمالية المجيء والسكن على الأرض فيما يتعلق بالواجب والمسؤولية. (السكن) ليس حالة انتقالية: بل على العكس، إنه يوحي بالتراكب للبشر في المناظر الطبيعية في الذاكرة، والأسلاف، والموت، والطقوس، والحياة والعمل. سوف يدرس هذا الفصل نماذج السكن في أدب الزراعة المسمى (قصيدة الزراعة) (georgic)، قبل التحول إلى النماذج (البدائية) التي افترضها بعض النقاد؛ لتكون ممثلة للسكن الأصلي على الأرض.

قصيدة الزراعة GEORGIC

لقد درسنا دعوى التوحيد اليهودية-المسيحية التي قدمت للحضارة الأوروبية الحديثة اتجاهات مدمِّرة بيئوياً. يستدل لين ويت ج.ر. Lynn White. Jr. أن الآية 26 من الإصحاح الأول من سفر التكوين، "وقال الله، نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض"، تؤسس رخصة كتابية لأي استغلال يمكن ان

نظنه مناسبا في إطار القوانين الأخلاقية التي وضعت في مكان آخر. من الواضح أن الفهم يعتمد كثيراً على قوة ومعنى كلمة التسلط (dominion). ورغم ذلك، يدعي الفلاسفة الذين يدللون ضد دعوى وايت الأساسية أن الوكالة أو (حق الانتفاع) وليس الاستبداد (despotism) هو ما فُرض على البشر (Alfred 1983: Passmore، 1974). دللت جهني كي (Jeanne Kay) أن كلا الموقفين قد أخطأ في قراءة دور الطبيعة في الإنجيل: "الطبيعة هي أداة الإله في الثواب والعقاب، ويعتمد نفعها على المنظومة الأخلاقية للبشر (Kay، 1998: 214). وقد نزلت الكارثة البيئوية المذكورة في العهد القديم بسبب طيف واسع من الخطايا، وقد أصابت البريء والخاطئ، والبشرية والطبيعة أيضاً. تقترح كي أن الإنجيل لا يدعم الفوقية البشرية ولا الفوقية البيئوية، ولكنه لاهوتي مركزي بطريقة ما، لدرجة يصعب على القارئ المعاصر أن يقبلها كاملة: "المجتمع الذي يفسر خراب المراعي أنه نتيجة لغضب الرب على الوثنية، أو على انعدام الإخلاص في القرابين التي تقدم في المعبد، وليس نتيجة مباشرة للتقلبات المناخية أو الرعي الجائر، مثل هذا التفسير لديه القليل ليقدمه إلى إدارة الموارد الحديثة. (Kay 1998: 219). من المؤكد صعوبة الإبقاء على الصلة المباشرة بين المشاكل البيئية المعاصرة واليهودية-المسيحية على حالها. سواء أكانت الصلة قديمة أم حديثة. وكما يشير عالم اللاهوت ستيفن كلارك (SteVen Clark) متهكماً، ربما أفلح الغرب كثيراً في ممارسة النهب في القرون القليلة الماضية. ولكن ليس لأننا كنا مسيحيين أكثر حذراً" (Clarck 1998: 46).

يشاطر عمل فيرجل (Virgil) (قصائد زراعية) (Georgics) الإنجيل التأكيد على العلاقة بين الإنتاجية الزراعية والمراقبة الريفية، على الرغم من أنّ الهوس الروماني بعلم التنجيم والكهانة قد فرّق بين العلاقة، وبين الممارسات الممثلة في العهد القديم. فكل المجتمعات الزراعية اللاعلمانية تعزو أهمية دينية للممارسات الزراعية المفتاحية، إلا أن فيرجل قد وضع الأركان العملية للزراعة في الواجهة، مثل زرع البقوليات التي تعزز خصوبة التربة قبل زراعة الحبوب التي تستنفد هذه الخصوبة. فهدفه ليس صرف القانون الإلهي لأناس مختارين، ولكن الترويج للعناية الزراعية الجيدة، واستعادة الفضائل الاجتماعية الرومانية في الريف. تأكيد فيرجل على الزراعة لا يصوّر أنه لعنة للعصيان -كما في الإنجيل-، ولكن على العكس فإنه تحدي الإله جوبيتر لأصالة البشرية. بينما يسدى العهد القديم النصائح عن الطبيعة المتمركزة بشكل كبير لسكان الأرض الموعودة، يعكس فيرجل مدى تنوع الإمبراطورية الرومانية في عرضه الدقيق لأنواع الترب، والمناخات والمحاصيل. ومن الواضح أنها ليست نصيحة للفلاح الأمي ولا للمالك الغائب،

ولكنها نصيحة للمواطن-المزارع الذي يصفه فيرجل بالروماني المثالي:

"أيها المزارعون، لكنتم في غاية السعادة لو أدركتم النعم،
يا من لأجلكم الأرض بعفوية وبقمة العدالة، سكبت
الحياة النقية من تربتها، بعيداً عن صراع الجيوش!
... هو لا
يحزن إشفاقاً على الفقراء، ولا يحسد الأغنياء". (2002: 54-52)

مثل هذا التسيس للقصيدة الزراعية يلقى صدىً واسعاً لدى حركة الإصلاح الزراعي التي نادى بها توماس جيفرسون (Thomas Jefferson، 1743-1826)، التي تمثل نموذجاً يخلو من امتلاك العبيد والأرض، ومواطنين مزارعين أساساً للجمهورية الأمريكية، وتمجِّد الفضائل الزراعية للصناعة، والازدهار والمصلحة الشخصية الموزونة.

فَهِمَ المتشدد البريطاني ويليام كوبيت (William Cobbett، 1763-1835) سياسات الزراعة بطريقة مختلفة تماماً، حيث وقف في صف العامل الزراعي و-بتحفظات- في صف المزارع الإنجليزي ضد نهب الرأسمالية الريفية. وهو افتراضياً فهم مضاد لمثل الإغراءات السياسية التي يندد بها ثورو في تجربة (حقل-الفول) (The Bean-Field) في (وولدن)، التي أعمل خلالها حبكته الصغيرة بنتائج ضعيفة إذا قيست بالفول. فهو يرفض مزدرياً اقتراحات المساعدة من جيرانه المجّدون، فالمحصول الحقيقي يقاس بعدد الحيوانات البرية وزقزقة الطيور، والتأمل والتعليم، كما يقاس بالدولارات والسنتات:

"بالجشع والأنانية، وعادة التذلل، التي لا يخلو أحد فينا منها، ومن عدّ التربة ملكية خاصة... تُشوَّه المناظر الطبيعية، تنحط العناية الزراعية بنا، ويحيا المزارع أحقر الحياوات، إنه يعرف الطبيعة ولكن سارقاً" (Thoreau، 1992: 131).

المزارع -كما يظهر كوبت ويذكرنا ثورو- هو في العادة عامل متحمس للرأسمالية الريفية، وليس مركزاً لمقاومتها، فهو -إذاً- لا يصلح للقيام بالدور الاستقراري الذي يقترحه فيرجل، وحدده جيفرسون له.

وضح مارتن هيدجر (Martin Heidegger) بشكل صارخ العواقب السياسية لجعل تجذر الشعب الريفي في مكان وزمان سالفين أنموذجاً مثالياً. فقد انتقد في المحاضرة التي ألقاها في عام 1935 (عن أصل العمل الفني) (On the Origin of the Work of Art)

تفاسير فلسفية مختلفة لـ (الأشياء)، لتجريدها الأشياء عن سياقات الحياة والعمل. في سياق تأمله في الأحذية التي تصورها لوحة فان كوخ (Van Gogh) (زوج أحذية)(A pair of Shoes، 1886) يجد أنهم يكشفون "الشيئية" الحقيقية للأشياء في قلب طريقة الحياة:

"من الفتحة المظلمة للأجزاء الداخلية البالية للحذاء يحدق الوطء الكادح للعامل للأمام. في الثقل المتجمد المتيبس للحذاء يوجد تشبث متراكم لمشيها المُجهَدَ البطيء عبر أتلام الحقل مترامية الأطراف ودائمة الاتساق التي تضربها الرياح الفجة ... في الحذاء يهتز النداء الصامت للأرض، إنه هدية هادئة من الحبوب الناضجة ورفضها الذاتي غير المفسر في أرض الحقل الشتوي، القفر المراحة ... هذه الأداة تخص الأرض، وهي محمية في عالم المرأة الفلاحة". (Heidegger 1995: 159-60).

يوفر (الحذاء) رابطة التجمع للإنساني وللإنساني -الأرض التي خلقوا منها وإليها ينصتون- والعالم الذي يملكون فيه معنى واستخدام. تتصادف هنا مناظر الطبيعة المؤقتة ذات السُكة طويلة الأسلاف، مع المناظر الطبيعية المادية المعروفة -تربتها ومناخها- حيث تضع الساكن الريفي في مواجهة معمقة مع الساكن المدني المتنقل المستأصَل من جذوره. إذا كشف الحذاء عينه كلاً من (الأرض) و(العالم)، فإن لوحة فان كوخ تكشف هذا الإظهار. وتفتح للمشاهد يقظة صامتة لوجود يفتقدونه-افتراضياً. ولا يعدّ خرس الفلاحة ذاتها بلا دلالة، ذلك أن الكلمات يمكن أن تظهرها واحدة من جيران ثورو الجشعين الثرثارين. كما تشير كيت سوبر (Kate Sober)، "أثبت عرض هيدجر للفلاحين البكم الفُظ، مجسّداً لحالة (قبل-الفهم) التي تفتقدها الحكمة التقنية أنه ملهم مثل صرخة مظاهرة من أجل تأسيس علاقات (أصيلة) مع الطبيعة، ولكنه يعمل فقط من خلال نفي الوعي الهيدرجري عن مشاركة الفلاحين في الوجود. عن هذه الحالة الفلاحية (Peasantry) (1998:237). الحذاء -كما ظهر- كان ملكاً لفان كوخ. وهو يوحي بالطريقة التي يمكن لهيدجر بها استقراء تأمل طويل على أساسٍ -في هذه الحالة- خاطئ ببساطة.

توقيت محاضرة هيدجر له دلالاته، فالفيلسوف [هيدجر] كان نازياً متحمساً، وكانت فلسفته الزراعية متوافقة كلياً مع تشكيلة الإيديولوجيا النازية التي أكدت على علاقة الدم الألماني مع الأرض الألمانية، أو الدم والأرض (Blud und Boden). فبراموبل (Bramwell) -المؤرخ الأول للصلات بين النازية وعلم التبيؤ- يشرح أن (الأرض والتراب) مثل "الصلة بين أولئك الذين تمسّكوا بالأرض وزرعوها وأجيالهم الذين بالدم، والعرق، والدموع جعلوا من الأرض جزءاً من وجودهم، ووجودهم جزء لا يتجزأ من الأرض" (1985:54). لم يرق النازيون للمزارعين

الصغار والفلاسفة الزراعيين فقط، لكن لحماة البيئة أيضاً. فقد أعملوا أول حماية طبيعية شاملة على مستوى العالم ووضعوا قوانين الرفق بالحيوان. أمّا ريتشارد وولتر داري (Richard Walter Darré) -الداعية المتحمس للزراعة العضوية- فقد نُصّب زعيم فلاحي ريخ (Reich Peasant)، وقد حُوِّلت بلدة غوسلر (Gosler) إلى مزار وطني وثني- جديد مقدس للفلاحين ومن أجلهم. حتى أن النازيين حاولوا تخفيف التكلفة البيئية لمشروعهم العملاق لبناء الطريق السريع، فأسسوا "معايير صارمة لمراعاة الأراضي الرطبة، والغابات، والمناطق الحساسة بيئوياً (Biehl and Staudenmeier, 1995: 15). إنَّ السعي نحو سكن متجانس للشعب الألماني قد امتد بالنهاية، بتناقض معيب، إلى حرب صناعية شاملة وإبادة جماعية، تماماً مثلما وفّر غزو الشرق (موطن حياة) (Lebensraum) لتطبيق زراعة استعمارية وحشية. وحتى إبادة اليهود يمكن تبريرها جزئياً من خلال تدويلهم وتمدّنهم، ليس فقط بسبب (دمهم) ولكن بسبب قلة ولائهم المفترضة للتراب الألماني. كانت النتيجة هجين خفي من العناصر الحديثة والمضادة للحداثة، كما يصيغها تيموثي لوك (Timothy Luke):

"الافتتان من جديد بالطبيعة في الأسطورة الشمالية والطقوس الآرية الجديدة قد أنتج أسلحة من مثل (V-2S, Auschwitz, ME-262S)، والانشطار النووي: بينما يغطي نفسه، بقصص خيالية عن المحاربين التوتونيين المخلصين (لدم وأرض) القبيلة. الفاشية الصناعية في ألمانيا قد أعلنت على الملأ مضادة للحداثة، وأنها بدائية مستقبلية" (1997:13).

يثير علم التبيؤ النازي ونازية هيدجير الجدل بشكل كبير (انظر: Ferry, 1995). من الواضح، أن فضائل الحفاظ على الطبيعة والزراعة العضوية لم يتم التنازل عنها علي أي حال بفعل الترويج النازي، وليس هناك أية علامة في أي جزء رئيسي من الحركة البيئية الحديثة على وجود الاستبدادية الفاشية. على العكس، من الواضح أن الإيديولوجيا الموجهة بيئياً تم تطويعها بسهولة بالغة. تقدم (أغنية الأرض) (The Song of the Earth) لبيت (Bate) دراسة متأنية "للسؤال المتعلق بمارتن هيدجر: هل العلاقة بين النازية التي لم يسبق له أن أدانها وبين نظرية السكن التي طورها في مقالاته المتأخرة طارئة أم ضرورية؟" (2000:268). هل كان مجرد خطأ شخصي أو -كما اعتقد هيدجر- أنه توافق عميق يمكن أن يلقى بظلاله على الفكر المعاصر؟ في حين يُعدُّ التمييز العنصري الفتاك لدى القصائد الزراعية النازية طارئ إجمالاً، وقد حل الاهتمام المنطقي أو الفردي محل الوطنية التي تروّج هذه القصائد لها، فالمحافظة الاجتماعية للتوق نحو الأسلاف، والعائلة والتراث قد تجذّر في موضع يبدو جوهرياً للقصائد الزراعية في

أشكالها التراثية المعهودة. في حين يعدُّ هيدجر شخصية مهمة للنقاد البيئويين؛ لأنه أول من شرع في (التفكير في السكن)، أضحى بفعله هذا يشكّل رابطة للفلسفة الزراعية والخراب المظلم الذي جلبته الاشتراكية الوطنية الألمانية (German National Socialism).

الأدب الزراعي الحديث: بيري، بيرجر، وسيل

MODERN GEORGIC: BERRY, BERGER AND SALE

يعدُّ ويندل بيري (Wendell Berry) –من ولاية كنتاكي الأمريكية- النصير الأول للأدب الزراعي في الوقت الراهن، الذي يتناقض نثره الشعبي الجريء العادي كثيراً مع نُذر هيدجر القاسية، فانتقائيته وقيمته الإنسانية تظهر قلة بصيرة الفيلسوف السياسية. كما أنَّ عمله يفرق عن عمل كتّاب الطبيعة الأمريكيين الذي عادة ما يعدُّ واحداً منهم، ذلك أن مناظره الطبيعية لا تتمثل البرية بل المزارع، وأسلوبه المميّز ليس تكتيكات الصدمة التي يتبعها كتّاب الطبيعة من أمثال إدوارد آبيي (Edward Abbey) ولكن "التكرار والتوكيد. دائماً ما يكثف التفصيل الوصفي أو يضيف طبقة فوق طبقة للفهم" (SloVic 1992: 118). وضع بيري نفسه صراحة في التراث المسيحي الزراعي، ساعياً وراء (انسجام عملي) تستلهمه متطلبات (البلد المحبوب) بعيدة المدى، والإحساس بالواجب المقدس الذي يدعى (الوكالة) بشكل مجرد على حد سواء، ولكن يروِّج بشكل متكرر مجازياً أنه (زواج) بين الإنسان والمكان، والثقافة والطبيعة. ففي المقام الأول، يرفض بيري أولوية العلم –لا سيما العلم البيئوي- لمصلحة التأكيد الحاسم على العواطف، ذلك أنه "إذا أريد للمخلوقات والأمكنة أن تستخدم بالشكل الجيد، فيجب أن تستخدم بشكل عاطفي، تماماً مثلما يجب أن يُعرَفوا عاطفياً ليُعرفوا بشكل جيد" (1990:116). هذا الحب -المؤسَّس على معرفة العمل اليومي- يتوافق مع مناصرة المسيحية لـ "فكرة الوكالة المشروطة بفكرة حسن الانتفاع" (p.98-9). (العدالة) و(العمل الخيري) المطلوب من المسيحيين هي فضائل عملية وليست فضائل مجردة، ولا يجب أن تقتصر على الإنسان فقط وفقاً للمعطيات الكتابية. فسيطرة الإنسان المقدرة إلهياً ليست ببساطة توزيعاً للقوة، بل أمراً من الله أن نتحمل مسؤوليتنا تجاه العالم الطبيعي. يدلل بيري أن الطوائف المسيحية أخفقت بالاعتراف بهذا العبء كما يجب، ناهيك عن حض أتباعهم على حمله على عاتقهم. في الوقت نفسه، يحمل هذا الواجب معه حق الاستخدام العادل والخيِّر لصفات (الله)، والانتفاع الحسن الذي تمارسه بمثالية الزراعة المحبة والمستدامة.

ذبح خنزير -على سبيل المثال- الذي يمثل للزراعة الصناعية الحديثة مجرد مشكلة

اقتصادية وتسويقية ضمن الحدود التي وضعها تشريع المصلحة العامة -هو- بالنسبة لبيري -طقس مقدس. فيتبنى (من أجل قتل الخنزير) البنية التجاوبية الموجودة -على سبيل المثال- في المزمور، 95، التي تبتدئ بوصية:

"دعهم يقفون بلا حراك بانتظار الطلقة، ويحدقوا
في عين الرامي
دعم يموتون بينما يزال صوت الطلقة في
الهواء، دعهم يموتون عندما يسقطون" (Berry 1980: 5)

الانشغال الكامل هنا ليس بمصلحة الحيوان نفسه، ولكن بأصالة المواجهة والعرفان والاحترام الذي يظهره القاتل. إذا نفذت بالشكل الصحيح، فعملية الذبح لا تعمل على تآكل إنسانيته بل تعززها:

"في هذا اليوم نحتفل مرة أخرى بزفاف أرواحنا مع العالم،
فبجوعنا، وبهذا التزوُّد بالمؤن، نجدد
ميثاقنا" (السابق)

تجد الوصية ما يثبتها في استعارة بيري القوية عن الزواج، التي توحد الهموم الاجتماعية والبيئوية تحت راية فضيلته المفتاحية: الصدق. شعر بيري، ونثره، ومقالاته تطلب منا على الدوام أن لا نتنحى عن الأرض ولا عن بعضنا بعضاً، ولكن أن نغدو جزءاً من مجتمع حيوي وإنساني.

تقوى بيري الصريحة حَرِيَّةٌ بتجريد المتهكمين[1] (Cynics) من أسلحتهم" ، ويمكن أن يشاطره رؤيته العملية أناس غير مسيحيين، على الرغم من أنهم سيبحثون في مكان آخر عن تبريرات فلسفية. مع ذلك، يعدُّ بويل كريماً عندما يدلل أن تشبيه [بيري] المُفضَّل عن الرجل: المرأة= الثقافة: الطبيعة يعدُّ أكثر إشكالياً مما يعتقد هو، إلا انه يسعى لإعادة تأصيله وتنقيته في عاطفة مثالية يمكن أن تسمى أبويةً فقط بالمعنى البطولي (Buell 1995: 161). وكأنه في طور تمييز هذا، تحاول معالجة بويل اللاحقة لمحاولات بيري المجتمعية: أن توازن اللبس أن مجتمعه هو "جيب غير آهل بالسكان البيض"، يحكمه مزارعون ذكور حكماء ومحبّون، باستحضار دراسة جدلية للنظير الذي يقدمه جوندولين بroوك (Gwendolyn Brook) عن مجتمع أسود، ومدني، متمركز حول المرأة (Buell 2001: 157-67).

---

1 المؤمن أن السلوك البشري تهيمن عليه المصالح الذاتية وحدها، والمعبر عن موقفه هذا عادة بالسخرية والتهكم: البعلبكي، المورد.

إلى جانب الزواج، يضع بيري القيمة الواقعية والمجازية في الأرض، لا سيما التربة. في (عمل الثقافة المحلية) (The Work of Local Culture)، يستدعي بيري قصة الدلو الذي تركه عمّال أبيه مدلّىً من شجرة. خلال فترة امتدت لما يزيد عن خمسين عاماً، تراكمت فيه الأوراق الساقطة، والحشرات وسقط الطيور، فبدأ تدريجياً بتشكيل تربة. دلالته الواقعية بالنسبة لبيري أن إنتاج خصوبة التربة والمحافظة عليها يعدُّ أكثر واجبات المجتمعات البشرية إلحاحاً وضرورة. أما مجازياً "أنه يجمع قصصاً أيضاً، بسقوطها عبر الزمن" (1980:154). مع ذلك، فحقلا المعنى هذان لا يلتقيان في الدلو لمجرد المصادفة المحضة:

"يجب على المجتمع الإنساني -أيضاً- أن يجمع أوراق الأشجار والقصص، ويحوّلهم إلى الحساب. يجب أن يبني التربة، ويبنى تلك الذاكرة عن نفسه ... التي ستكون ثقافته. نوعا التراكم هذان -للتربة المحلية والثقافة المحلية- تربطها علاقة ود كبيرة (Berry 1980: 154).

كي تكون إنساناً كاملاً، يجب أن تكون جزءاً من مجتمع كهذا. بتشاؤم أكثر، فالعكس أيضاً يعدُّ صحيحاً منطقياً: عدم الانتماء لمثل هذا المجتمع يعني أن تكون أقل من إنسان، بالرغم من أن أحدنا يمكن أن يقول كذلك إما رثاءً أو اتهاماً. في حين لا يبدو مستحيلاً أن نتخيل نظيراً مدنياً لمثالية بيري الجيفرزية الجديدة، من السهل تخيُّل هاربين من المجتمعات الريفية الظالمة، سواءً أكانوا إناثاً، أم سوداً، أم شاذين جنسياً، أم يهوداً، تعوزهم التقوى أم ميالين نحو الفُعلية، لا يريدون شيئاً منه.

يقدم الروائي والناقد الفني البريطاني جون بيرغر (John Berger) مقابلة تباينية تنويرية عن ويندل بيري، فقد أثمرت إقامة بيرغر الطويلة في جبال الألب الفرنسية عن ثلاثية (إلى أعمالهم) (Into their Labours). تمثّل الرواية الأولى أرض الخنازير (Pig Earth، 1979) السكن الزراعي كما شكلته الاشتراكية وليس المسيحية أو حركة الإصلاح الزراعية الأمريكية.

تُبتدأ الرواية -بشكل صارم- بوصف صريح، ومفصّل، وغير عاطفي لعملية ذبح بقرة. وما أن يُرمى الحيوان:

"يدفع الابن نابضاً في فجوة الجمجمة ليصل إلى دماغ البقرة، يدخل النابض إلى قرابة عشرين سنتيمتراً. يهزه ليتأكد أن كل عضلات البقرة سوف تسترخي، ثمَّ يسحبه ... يجز [هو] حنجرة البقرة فيندفع الدم على الأرض. للحظة أخذ شكل الدم تنورة مخملية هائلة، شريط

خصرها الرقيق كان شفة الجرح. ثم سال ولم يعد يشبه شيئاً" (Berger 1979: 4).

يعكس نثر الراوي الفظ -طارحاً استمارة ثمُ ساحباً إياها- النغمية البارزة بين المزارع والجزار. ويعكس توجهاً يتكرر في قصص أخرى تتناول الحيوانات. فعلاقة البشر بالحيوانات الداجنة في رواية (أرض الخنازير) علاقة مضحكة، رحيمة وإنسانية دون عاطفية أو تجسيمية. إضافة لذلك، فعلى الرغم من أن عملا بيري وبيرجر يوصيان بنقد زراعة المصانع، فإن الأخير يضعها في سياق سياسي وليس لاهوتي. لذلك، في حين توفر الزراعة لبيري ملجأ مباركاً مثالياً بعيداً عن الرأسمالية، تُعد طريقة الفلاح في العيش -من وجهة نظر بيرجر- متوازنة بشكل متقلقل على حافتها المثلمة: "يتفحّص الفلاح العداد. فقد وافق على سعر 9 فرنكات للكيلو غرام. ولا يأخذ شيئاً مقابل اللسان، والكبد، والحوافر، والرأس، وفضلات الذبيحة. الأجزاء التي تباع للمدني الفقير، لا يأخذ الريفي الفقير ثمناً لها" (1979:6).

لا يعارض بيرجر ببساطة المدينة والريف، أو الحقل والمصنع، أو المزارع الأمين والرأسمالي الفاسد، بل يتتبع علاقاتهم، وصفقاتهم وتحولاتهم بعناية. في (قيمة المال) (The Value of Money)، يشرح مزارع التفاح مارسيل (Marcel)- الذي هجر أبناؤه الأرض، لمَ يستمر في زراعة الأشجار التي سيطول عمرها عن عمره بلغة المسؤولية التقليدية الزراعية للماضي وللمستقبل:

"أحفر البئر، وأنتظر الهلال وأزرع الشجيرات لأقدّم قدوةً لأبنائي –سواء أكانوا مبالين، أم لا- كي أُري أبي وأباه أن المعرفة التي ورثوها لم تهجر بعد. فبدون تلك المعرفة، أنا لا شيء" (Berger 1979: 67).

بمقاومته محاولات أبنائه في استبدال المحراث الآلي بالفرس، فإنه يسلّم أن "الرجال طالما حلموا بآلات مثل هذه لقرون خلت" (p.69). ولكنه يستمر في شرح العملية التي من خلالها تفرّق الأجيالَ والجيرانَ رأسماليةُ الزراعة، وتدمر المجتمعات، وتركز القوة والثروة في أيدي حفنة صغيرة من التجار الزراعيين.

تتبلور مقاومة مارسل عندما تحاول الدولة أن تفرض ضريبة على مشروب البراندي المنتج بيتياً. لهذا المشروب (gnôlê) فوائد عملية ومعنى رمزياً عميقاً سواءً بسواء، كما لآلة التقطير التي تنتجه: "سرها يكمن في تحويل العمل إلى روح. ما يفرّغ في القارورات هو العمل؛ ما يخرج من الزنبوعة هو الخيال" (Berger 1979: 80). ولكن عندما ضُبط مارسل متلبساً على يد

المفتشين، اضطر أن يخطفهم، ويحتجزهم في زريبة ليلقنهم درساً. معلماً إياهم ما هي الضرائب التي يجب أن تدفع على (القلق)، و(الألم) و(الارتماد) ويسألهم "هل ملائم استماة ألمكم؟" (p.90). في النهاية، مع ذلك، أطلق سراحهم وأُدخل السجن، مدركاً أن المفتشين لم يستطيعوا أن يفهموا عمله أنه عطاء لجني المال، ولن "يعرفوا ما [كان] ينتقم منه". لم يكن تحدي مارسيل مجرد إشارة ضد البيروقراطية الحديثة، ولكنه كان مثالاً على المقاومة الطويلة للفلاح في مواجهة مصادرة إنتاجه (الفائض). تتغير الأساليب مع التحولات في النظام السياسي والاقتصادي العام —من ضريبة العشر الإقطاعية، إلى الضرائب الرأسمالية وأنماط الإنتاج الاشتراكية- لكن الطلب يبقى واحداً.

يبتعد بيرجر عن التصوير المثالي لطريقة الفلاح في العيش. فهو يصورّ بحيوية الأفق الضيق الظالم لمجتمع الألب، والعمل الشاق المتوال على تخوم اقتصاد شره ومتغير، وتبيؤ فظ، لا يمكن التبنؤ به. إضافة إلى ذلك: يصرح بوضوح أن طبقة الفلاحين ما هي إلا طبقة وليدة لعلاقات اجتماعية-اقتصادية مجحفة، "لن تكون موجودة في عالم عادل" (Berger 1979: xxV). ورغم ذلك، فإنه يدلل أن الإصباغ الزراعي على الطبيعة يمكن أن يوظف نقداً للرأسمالية والنسخ الحداثية والصناعية للاشتراكية سواسية:

"الإنتاجية لا تعني اختزال الندرة. فنشر المعرفة لن يفضي بالضرورة إلى مزيد من الديمقراطية ... شكوك الفلاح بـ (التقدم) —كما فرضه نهاية التاريخ العالمي للرأسمالية التعاونية، وقوة هذا التاريخ حتى على أولئك الذين يسعون لبديل عنها -ليست في مجملها في المكان الخطأ أو بلا أساس (p. xxVi).

يمكن لكتابات بيرجر هنا أن تقترح سبيلاً لم يُسبر بالقدر الكافي في النقد البيئوي، يتلاقى فيه النقد البيئي مع سياسات ما بعد الحقبة الاستعمارية (Post Colonial)، في مقاومة العولمة الاقتصادية، (انظر الفصل الثامن). ومع ذلك يبقى من الضروري أن نحافظ على التمييز بين مثل هذه الطموحات الاشتراكية الديمقراطية، وحركات الإبادة الجماعية (العودة للأرض) في الصين وكمبوديا. لا يعترف بيرجر بها، إلا أن الماوتسيين قد جربوها عن طريق التطبيق المخطط مركزياً للزراعة، وقد أثمرت نتائج كارثية.

يعرض بيرجر (Berger) أمثلة للزراعية الاشتراكية، وقد ظهرت في غرب الولايات المتحدة الأمريكية حركة تسعى لدمج الإصلاح الزراعي التقليدي مع النزعات البيئوية الاجتماعية الأكثر تشدداً أو مع نزعات فوضوية. المصطلح المستخدم لوصف هذه الحركة -هو (المنطقية

الأحيائية) (bioregionalism). عمل كيركباتريك سيل (Kirkpatrick Sale) المؤثر (ساكنون في الأرض) (Dwellers in Land. 1985) يبين فكرة المنطقة الأحيائية وحدةً سياسيةً بيئوية تحترم حدود المجتمعات الأصلية التي وجدت من قبل، وتحترم أيضاً الحدود الطبيعية، ووحدات السلسلة الجبلية، ومستجمع الأمطار، والنظام البيئوي، ونباتات، وحيوانات هذا النظام. بممارضتهم ما يسمى (العملقة) (giantism) على كل المستويات، يروّج دعاة المنطقة الأحيائية إلى لا مركزية الاقتصاد، على شكل تنوع مناطقي واكتفاء ذاتي، إضافة إلى تفكيك فوضوي لتمركز الأمة حول الدولة، لمصلحة مجتمعات ذات حكم ذاتي (فدرالي) تتكون من ألف إلى عشرة آلاف نسمة في كل مجتمع. يؤكد سيل أن "هنا، يعرف الناس بعضهم بعضاً، ويعرفون أساسيات البيئة التي يتشاركون بها، وتُعرف على الأقل المعلومات الأساسية اللازمة لحل المشكلات وتتوافر فوراً، هنا يجب أن يبدأ الحكم" (1985:94-5). فالمناطقية الأحيائية هي إذاً سياسة (إعادة السُكنى) التي تشجّع الناس أن يسبروا بعمق أكبر، المناظر الطبيعية والثقافية التي يعيشون بها.

للمناطقية الأحيائية عدد من المزايا الجاذبة بوصفها نسخة من الزراعية. أولاً: يمكن أن تعمل رابطةً سياسيةً، تجمع ما بين حركات السكان الأصليين، والحركات الإقليمية، والمناطقية التي تصارع ضد الثقافة العالمية التي تذوب الهوية، وبين الحركات الفوضوية الاجتماعية الديمقراطية السياسية، والمنظمات البيئية العابرة للمناطق التي تعمل على المستوى المحلي. يمكن للصراع ما بين هذه المجموعات أن يستمر بالتأكيد. إلا أن المنطقة الأحيائية يمكن أن تشكّل سياقاً سياسياً وجغرافياً، يمكن مخاطبتهم من خلاله بمغزى أكبر من سياق المستوى الوطني أو مستوى الولاية. ثانياً: يمكن للمناطقية الأحيائية أن تواجه التمركز الثقافي والاقتصادي للثقافات المدنية، عن طريق التأكيد على الإتكالية البيئوية للمدن على الريف والبرية، وتقويض الاعتراضات الزائفة الموروثة في أساطير البرية والرعوية. ثالثاً: إنها نفعية مطلبية. ففي محاولة للابتعاد عن التركيز الحصري على كتاب سيل (Sale) المؤثر، يدلل دوج آبرلي (Doug Aberly) أن: "الطريق الأفضل لفهم المناطقية الأحيائية هو فهمها من (الداخل) وليس من خلال قراءة نص أو نصوص عديدة. يجب حضور التجمعات، واستعراض المجلات الدورية اليومية، والمشاركة في مشاريع الاستعادة، والتشارك في الطقوس والاحتفالات التي تقام للمكان" (Aberley 1999: 31). ويتابع في التعريف بطيف واسع من المبادرات لاسيما المناطق الأحيائية الأمريكية الريفية. يعد خلق منطقة أحيائية عرقية في (أراضي نونافوت) (NunaVut Territory) في كندا عام

1999، "وإعادة بناء وحدات حكومة مناطقية في نيوزلندا لمماثلة حدود مستجمع مائي رئيسي" (p.34) أمثلة على نطاق واسع على المناطق الأحيائية.

ومع ذلك، فالمناطقية الأحيائية عرضة لبعض الاعتراضات المهمة. فمشكلة ترسيم الحدود من منطلق بيئوي، غالباً ما تواجَه برغبة السليقة المثقفة علمياً للمؤهَّلين. من المحتمل أن تقل الإشكاليات -كما في أمريكا الشمالية وأستراليا- فالولاية الحاكمة أكبر من المناطق الأحيائية التي سوف تشكلها، وهذا يضمن اصطدامات أقل مع السلطات القضائية الموجودة من قبل. يمكن للمناطق الأحيائية التي تعتمد على -قل- مستجمع ماء نهر الأردن أو الكونغو، أن تضم مجموعات عرقية عدائية متجذرة تماماً في مناطقها الجغرافية، كما هي معروفة في الزمن الحاضر. وفي الوقت نفسه، يبدو أن النزاعات الناشئة عن استخراج الماء والتلوث سوف تقتضي شيئاً من الوعي المناطقي الأحيائي، لاسيما في هذه المناطق إذا ما تجنبا الحروب على المياه. إضافة لذلك، هناك تحد آخر: أن كثيراً من مجتمعات السكان الأصليين التي تروق معرفتهم وقيمهم محلية التمحور لدعاة المناطق الأحيائية، قد استؤصلت تماماً. فالهجرة العرقية القسرية والطوعية غيّرت مناظر العالم الطبيعية الثقافية تماماً، مثلما حوّلت حركة الأنواع النباتية والحيوانية المقصودة والفجائية مناظر العالم الطبيعية الأحيائية الجغرافية. وكما بين ميتشل ثوماشو (Thomashow)، فسوف يكون ضرورياً بشكل متناقض أن تُطوّر (مناطقية أحيائية عالمية):

"في القرن الواحد والعشرين، نواجه توقُّع حدوث تشتتات بيئوية وثقافية متعددة، ملايين المهاجرين يحاولون إنقاذ تكاملهم البيئوي والثقافي ... في القرن الواحد والعشرين، ملكية بيت ستمثل شأناً كبيراً. العيش في مكان يمكن أن يصبح مفارقة تاريخية طريفة، وإعادة سُكنى ذات رؤية شبابية محترفة مثالية" (1999:123).

يمكن أن تمثل المناطقية الأحيائية بشكل جيد التأثير الإيجابي في البحث النقدي البيئوي عن ثقافة السكن، أو زراعة حديثة صالحة للتطبيق، ولكنها ليست الترياق لكل العلل. إضافة إلى ذلك، نزعتها لإظهار ثقافات السكان الأصليين بثوب المثالية، يربطها بإصباغ النقد البيئوي الرئيسي الآخر على السكن، فكرة الهندي البيئوي.

الهندي البيئوي THE ECOLOGICAL INDIAN

للنموذج الزراعي للسكن ارتباطٌ مدمرٌ لكثير من الأمريكيين الشماليين والأوروبيين. (نحن) بوضوح لا نستطيع أن نسكن بانسجام عملي مع الطبيعة، ولكن ربما ثقافات أخرى قادرة على

قبل ذلك. منذ القرن السادس عشر على الأقل، مُثّل الناس (البدائيين) أنهم يسكنون بانسجام مع الطبيعة، فهم يبقون على واحدة من الأساطير الأوسع انتشاراً والأكثر إغراءً (للآخر) غير الأوروبي. تُعدُ فرضية الفضيلة البيئية للسكان الأصليين اعتقاداً مؤسَّساً لدعاة علم التبيؤ المتعمق وكثير من النقاد البيئويين. فالأمريكان الأصليين -أو الهنود الأمريكان- هم الموضع الكلاسيكي (Locus Classicus) لهذه الفرضية، على الرغم من أن الهنود الأمازونيين في أمريكا الجنوبية قد ظهروا مؤخراً في الواجهة سكاناً مثاليين في الغابة المطيرة (انظر: Slater، 1996). والأكثر خصوصية، أن مجتمعات الهنود السهلية عند لاكوتا/ سيوكس، بلاكفوت، كرو، تشيني (Lakota/Sioux، Blackfoot، Crow، Cheyenne). وآخرون، قد تحولوا من أنذال في الأفلام الغربية إلى أبطال شرفاء -لكن- مشؤومون لثقافة بدائية افتراضاً. منسجمة مع الأرض ومخلوقاتها. عندما أرادت المنظمة البيئية (حافظ على أمريكا جميلة، التعاونية) (Keep American Beautiful، Inc.) أن تفيد من التعاطف البيئي الكبير الذي ساد في أوائل سبعينيات القرن العشرين، قاموا بإنتاج حملة إعلانية تصوّر دمعة تتدحرج على خد هندي متجعِّد يدعى (كودي العيون الحديدية) (Iron Eyes Cody). مع شعار (التلوث: صرخة عار). أوحت أن الشعب الأبيض، وليس الهنود، من يصنع التلوث، وأن أخلاق الهنود التي تحترم الطبيعة أصبحت لازمة لمواجهة جشع البيض وتدميرهم. وكما دلل المؤرخ شيبارد كريش الثالث (Shepard Krech III)، أن هذا الإعلان قد ساعد في تبلور نمطية عن (الهنود البيوئيين) الذين يمتلكون جذوراً راسخةً في الثقافة الأمريكية الأوروبية. من أغلفة الكتب، إلى شاشات السينما، إلى معارض الصور "الصورة المهيمنة هي للهندي في الطبيعة الذي يفهم عواقب أفعاله كافة، ويتعاطف بشدة مع أشكال الحياة، ويأخذ خطوات للحماية، كي لا يختل توازن تناغمات الأرض ولا توضع الموارد في دائرة الشك أبداً" (Krech، 1999: 21). لا يفترض أن يستند الاصطدام البيئوي المحدود جداً، المنسوب للهنود على تدني كثافة السكان حسب، على/ أو الثقافات المادية قبل الحقبة الكولومبية[1] التي كانت تفتقر للأسلحة المعدنية، والبنادق والجياد، ولكنه يرتكز إلى نظم اعتقادية روحيّة تضبط أفعالهم. يدعي الفيلسوف البيئي ج. بيرد كاليكوت (J. Baird Callicott) أن:

«توجُّه الأمريكي الهندي النمطي التقليدي كان ينزح إلى عدّ كل معالم البيئة أنها ملهِمة. هذه الكائنات تملك وعياً، وعقلاً، وإرادة لا تقل زخماً، أو اكتمالاً عما تملكه الكائنات البشرية.

1 قبل اكتشاف كريستوفر كولمبوس لأمريكا وقيام الولايات المتحدة الأمريكية. المترجم.

إذاً، فالأرض ذاتها، والسماء، والرياح، والصخور، والجداول، والأشجار، والحشرات، والطيور، وكل الحيوانات الأخرى تملك شخصيات مستقلة، فهي أشخاص كاملة كبقية الكائنات البشرية» (1983:243).

يتجلى تفريق كاليكوت (Callicott) بين معتقدات الفوقية الأحيائية هذه، وبين المعتقدات والممارسات الأورو-أمريكية الفوقية البشرية المدمرة في فيلم (رقصات مع الذئاب) (Dances with Wolves، 1990)، الذي ينضم فيه الضابط الفارس جون دنبار (John Dunbar) (الذي لعب دوره الممثل كيفن كوستنر) (Kevin Costner) لفرقة سيوكس (Sioux) ويعجب بهم أشد العجب. في مشهد مفصلي، يلتقون بالمصادفة بحقل مليء بجثث الجاموس (يسمى بشكل أفضل "الثور الأمريكي") كاملة باستثناء الجلود والألسنة. وهذا ما قاد دنبار (Dunbar) للاستغراق في التفكير أن الصيادين البيض المفترض أنهم قتلوا هذه الجواميس" كانوا بلا قيم وبلا روح، ولا يقيمون وزناً لحقوق سيوكس". بعد ذلك، عندما اصطاد السيوكس جاموساً، كان صراعاً بطولياً -رغم أنه- وحشياً، يظهر كما يدلل إنجرام (Ingram) «أن السيوكس اصطادوا الجاموس لقوتهم وليس لربح مالي، في سياق طقوسي، وبطريقة متجانسة بيئياً» (2000:78). وفقاً للأعراف السيوكسية التي تبدو خالدة، يتم استعمال كل أجزاء أجساد الحيوانات لعمل طيف واسع من المصنوعات اليدوية. ينتهي الفيلم بإطباق الفرسان على قبيلة السيوكس، فتغدو طريقتهم في العيش مهددة بالزوال إلى الأبد.

تقدم رواية جيمس ويلتش (James Welch) (صياح الأغبياء) (Fools Crow، 1986) وصفاً مفصلاً وجلياً عن حياة هنود السهول في نهاية القرن التاسع عشر، التي تدور حول قائد مجموعة بيكوني (Pikuni) (هنود حمر من قبيلة الأقدام السوداء) يصارع للحفاظ على السلام مع النابكين (Napikwans) (البيض)، في حين كانت مجازر الجواميس وغزو الهنود على المحاصيل المجموعة قد خبت. يتداخل مصير الحيوانات والناس مع بعضهم بعضاً، ذلك "أنه بدون القرن الأسود [الجاموس] سيحزن البيكونيون كما سيجزن الصخّابون [حيوانات القيَوط] الذين كانوا يعوون طوال الليل" (1986:47). هذا التوافق المتبادل ينعكس في الأعراف الواقعية السحرية للسارد: إنها مكتوبة بشكل سائد، يقصها راوٍ بضمير الغائب كلي الحضور، بمعيار زمني تعاقبي (متواتر) وشخصيات مصدَّقة مدوّرة، ومع ذلك يمتزج معهم مساعدو الحيوانات وكائنات روحية أخرى من مثل المرأة الريشة (So-at-sa-ki) جزءاً من الواقعية اليومية. في منتصف

الرواية، يأخذ فولز كرو زوجته ريد بينت[1] إلى الجبال في نزهة، ولكن يسمع بعد ذلك من ريفن[2] (Raven) عن صياد أبيض يقتل بلا تمييز ولا يجزر الحيوانات لبيع لحومها:

"تبِعتُ هذا النابيكواني الغريب الذي يترك لحمه لثلاث ليال. لقد قتل حيوان طويل الذيل، وآخر ضخم الرأس، وثلاثة كلاب أصيلة، وخمسة حيوانات ممن تهتز ذيولها. حتى أنه حاول قتل أخيك الدب الظرباني [الشره][3]. ولكنني قفزت إلى الإمام ونبهته. بموجة غضب، صوّب النابيكواني بندقيته نحوي، وأرعبني رعباً شديداً، لذا غادرت. ولكن لليالٍ مقمرة كثيرة تابع الصياد قتل الحيوانات حتى قاربت على الانقراض. أخشى أن يقتلنا كلنا إن لم يتخذ أي إجراء. (p.164).

عندما تردد فولز كرو في قتل رجل أبيض. وبخّه ريفن بسخرية مدعياً أنه "يمكن أن يرى أخوته ذواتي الأربع. والطيّارة يُقضى عليهم ولا يبدأ قتالاً" (p.165). بإطلاقه الرصاص على النابيكواني النّهاب النتن خلال عراكهما بالأيدي. يصوِّر الهندي مقاتلاً لأجل البقاء البيئوي، وبقاء قريبه الإنسان. في نهاية الرواية، تمنح فذر وومن [المرأة الريشة] فولز كرو رؤية مروّعة عن هلاك عشر شعبه بسبب المرض والحرب، واحتوائهم في أراضٍ جرداء، وخيانة حكومة الولايات المتحدة، وإبادة الجواميس، والحيوان آكل العشب الرئيسي في السهول.

تعدُّ مرثية ويلتش النادبة مبررة: فغياب الأمراض الوبائية في الأمريكيتين قبل الحقبة الكولومبية، عنت أن الهنود كانوا عرضة بشكل مروّع لأمراض العالم القديم السائدة من الرشح إلى الحصبة. أفضى هذا -مقروناً بتفوق التقنية العسكرية الأوروبية وعنف الإيدولوجيا الاستعمارية التي تحركها- إلى كارثة بنسب لا تصدّق. يتحدث تاريخ جيمس ويلسون (James Wilson) عن أمريكا الأصلية، في (ستنحب الأرض) (The Earth Shall Weep, 998)، عن الناجين في نهاية القرن التاسع عشر قائلاً:

"يصعب تخيُّل مشاعر الأمريكيين الأصليين أنفسهم. في أقل من أربعة قرون، خفّض المرض، والحرب، والجوع، والمجازر، والقنوط عددهم من حوالي 10-7 ملايين نسمة، إلى أقل من 250 ألف نسمة. كما كلفهم استقلالهم، وأكثر من 90% من أرضهم، ومزق نضالهم ضد الأوروبيين والأورو-أمريكيين شعورهم بالحقيقة (1998:283).

1 دهان أحمر.

2 الغراب.

3 حيوان شمال أمريكي ثديي لاحم.

كانت الهجمة الضارية على البرية الأمريكية مرعبة أيضاً بمقياس النسبة والتناسب. فقد انخفض عدد الثيران الأمريكية من 60-40 مليون، إلى أقل من ألف حيوان بنهاية القرن، في حين قُضي تماماً على أسراب الحمام المهاجر التي كانت تقدر بخمسة مليارات طير (Ponting 1992: 168-9). ارتكز منحى الثروة الأمريكية المطرد في القرن التاسع عشر على تدمير واستهلاك الغابات والحياة البرية بشراهة مذهلة لدرجة أنه وصلت -في أماكن- إلى درجة حملة (إبادة بيئوية) لاستنفاد وإعادة تشكيل مواطن حيوانية ونباتية جميعها. في حين سكن الهنود هذه المواطن المهددة من قبل وحولوها وأداروها بطرقهم الخاصة، دون إحداث تغيير يذكر.

لذلك يجب أن يُنظر إلى تاريخ استعمار أمريكا- على الأقل الجزء الأكبر منه- وفقاً لمعايير بيئوية. وفقاً لألفريد كروسبي (Alfred Crosby, 1995)، ليست الاستعمارية الأوروبية ظاهرة إيدولوجية أو حتى ظاهرة إنسانية فحسب؛ ففي كل قارة، عُزيت البيئات المشابهة لمناخات أوروبا على يد (الحيوانات والنباتات المنقولة بحقيبة السفر)، بما في ذلك الحيوانات الأليفة، والضارية البرية، والنباتات، إضافة إلى الجراثيم الوبائية الإنسانية والوبائية الحيوانية. في السهول، حلت حيوانات ونباتات أوروبا بالنهاية محل الحيوانات الأمريكية الأصلية في حملة موثّقة جيداً لما يسميه كروسبي "الاستعمارية البيئوية": جلب البيض المحاريث، والماشية، والخنازير، والأعشاب قصيرة الساق القوية، والأعشاب الضارة الأوروبية، والجدري، والحصبة، والكحة الذئبية وطردوا -في هجمة بيئوية مشتركة- الهنود الحمر، الأعشاب الطويلة، والثيران الأمريكية. أينما يكون الجو أقل من المعتدل أو تكون النباتات والحيوانات الأصلية أكثر قدرة على التعافي من جديد -كما في أرجاء كثيرة من أفريقيا- يكون الاستعمار الأحيائي أقل اكتمالاً وأبطأ وتيرة. ففي أمريكا الشمالية، ونيوزلندا، وأستراليا، كان الاستعمار سريعاً للغاية، وطال كل شيء تقريباً، وكان مدمّراً بشكل لا يصدق.

صورة الهندي الأحمر البيئوي هي بالتأكيد صورة مُفحمة، لكنها لا تمثّل بدقة السجل البيئي للأمريكيين الأصليين التاريخيين. ويبدو أنه لا يوجد داع قويّ للتشكيك في التدمير- وأحياناً- التمييز العنصري الإبادي الذي خلفته الثقافة الأورو-أمريكية التي ناقضت تلك الصورة. ومع ذلك فالمثالية التي يمكن أن تجعل من الهنود الحمر والشعوب الأصلية الأخرى نماذج للسكن البيئوي تشتق جدلياً من الثقافة الأورو-أمريكية، وليس من ثقافة الهنود الحمر والسكان الأصليين. يشير ويلسون أن الهنود قد حُط من شأنهم حتى على يد المتعاطفين مع المفردات الاستعمارية الازدرائية التي تستبدل "الأمة" بـ (القبيلة)، و(الطبيب) أو (الكاهن) بـ(العرّاف). ويلحظ أيضاً أن المرثية

الرومانسية للهندي "الزائل" تفترض وجهة نظر المستعمر. ذلك أن (زائل) هي صفة فطرية غير مكتسبة كما في كريم زائل، شيء تفعله، لا شيء يُفعل لك" (Wilson 1992: xxii).

يُعدّ الخطاب المنسوب للزعيم سيتل (Chief Seattle) أو سيثل (سوكوواميش) (Seathl Suquamish) أحد النصوص الأكثر شهرة في تاريخ الهندي البيئوي الذي لاقى رواجاً خلال ستينيات القرن العشرين وما بعدها شهادةً للقيم البيئوية الهندية. في 1854، قَبِل سيثل طلباً من حكومة الولايات المتحدة أن يتنازل عن مزيدٍ من الأراضي. مع ذلك قال سيثل أيضاً -في نسخة الخطاب التي اشتهرت لما يزيد عن قرن لاحق- أن "كل جزء من هذه الأرض مقدس عند شعبي... نحن جزء من الأرض وهي جزء منا" (1994: دون دار نشر). وتابع لينتقد بقسوة الرجل الأبيض لعدم اكتراثه بالأرض: "حصة واحدة من الأرض هي ذاتها له ولمن يخلفه. ذلك أنه غريب جاء في ظلمة الليل وأخذ من الأرض القدر الذي يحتاجه". تصور المفارقة بشكل دقيق الاختلاف المفترض بين أثر الأصلي، وأثر الأورو-أمريكي على السكن.

يبدو الآن -مع ذلك- أن الخطاب قد أُلقي ابتداءً خلال مفاوضات معاهدة، تُرجمت إلى اللغة الشينوكية التجارية، ثم إلى الإنجليزية، ثم أعيد بناؤها من مدوّنات بعد ما يزيد عن 30 عاماً على يد الفيزيائي الأبيض هنري سميث (Henry Smith). لا يمكن تحديد كلمات سيثل بشكل أكيد، ولكن من المحتمل أن طلب تفاوض للدخول إلى مدافن الأسلاف وحدود محمية آمنة قد تحوّلت على يد متعاطف أبيض إلى توليفية من الشهادة البيئوية والمرثية لـ (الرجل الأحمر) الزائل. يظهر تكالب البيئويين في القرن العشرين المتحمس على هذا الخطاب المشكوك في مؤلفه الأصلي تأرجح الهندي البيئوي.

فكرة (البدائي) التي ينحدر منها الهندي البيئوي هي إيدولوجياً قطعة بيانية متّهمة، على الرغم من اختلافها عن المجازات الأخرى التي درسناها لا يبدو أن لها مرجعيات يهودية-مسيحية أو إغريقية-رومانية مهمة. إنها تفسير للاختلاف الإنساني الداخلي، قدّمه فلاسفة إنسانيون من أمثال مايكل دو مونتيه (Michel De Montaigne, 1533-92) وجان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseua, 1712-78)، الذين استجابوا لـ -وبالمقابل أثّروا في- المواجهات الأوروبية مع الأمريكيين الأصليين. في محاولتهم لفهم الطبيعة البشرية دون عبء التحيزات الدينية غير المعقولة، حاول الفلاسفة مثل روسو صياغة رؤية للإنسان قبل حلول المجتمع المدني. فأخذوا الشعوب الأصلية عينات ممثّلة محتملة لهذه الحالة. رغبتهم في التمييز (بيننا) و(بينهم) عن طريق تفسيرات الاختلافات العرقية أو المنصرية ليست مقصورة على

الثقافة الأورو-أمريكية وحدها. في العادة مثل هذه الفروقات تؤخذ جغرافياً، عاكسةً الدعاوى المناطقية للمجموعات المختلفة. استعارة (البدائي) فريدة من نوعها-مع ذلك- لأنها تحوّل التفريق الجغرافي إلى تفريق تاريخي أو تطوّري، كل ينظر إلى الهنود ا و السكان الأصليين أنهم متخلفين عن الأوروبيين في التقدم الحتمي من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية. بما أن كل المجتمعات الإنسانية المعاصرة هي -بمعنى معين- متشابهة بالحداثة، فإن هذه الاستعارة عن البدائي يمكن أن ينظر لها أنها إرباك إيدولوجي. تشارك بها -من القرن السابع عشر إلى أمد كبير من القرن العشرين- كلّ من أولئك الذين ينظرون إلى الأمريكي الأصلي شخصاً همجياً نبيلاً، وأولئك الذين يرونه همجياً لا سبيل لترويضه وأنه آكل للحوم البشر. رثا روسو ومونتيه إلى درجة معينة التقدم بدل الاحتفاء به، إلا أنهما تركا القطبية الأساسية للإنسان الهمجي والإنسان المتحضر على حالتها. في القرن التاسع عشر، وجد برنامج تسجيلي رومانسي اجتماعي في إرث روسو مَخرجاً عملياً في(حركات فن التعامل مع الغابة والكشافة) التي امتدحت قوة ومهارة السكان الأصليين، وفي الهندي البيئوي المتشكّل من تحالف نشأ بين جبهة البدائية وبين الحركة البيئية المعادية للحداثة في القرن العشرين.

من الواضح أن الهندي البيئوي يشكل الصورة النمطية للأصل الأوروبي، مع أن هذه الصورة توفر لبعض الهنود الحمر مصدراً للفخر والاعتداد بأنفسهم وبمجتمعاتهم. يثبت كثير من الكتاب الأصليين المعاصرين انزعاجهم من التطويع غير المميّز لثقافات السكان الأصليين تحت راية علم التبيؤ، على يد صناعة العصر الجديد (New Age). وزبائنها الأورو-أمريكيين- وأكثر عمومية- الإخفاق في تحديد الفروقات بين القبائل والفرق. يحاول النقاد تفادي النمطية من خلال تحديد أصل الكاتب بالقبيلة أو حتى القرية -كما أفعل هنا- لكن الثقافات المميْزة لهنود السهول غالباً ما تفترض أنها ممثلة لكل الأمريكيين الأصليين. (مغامرات أميرة هندية)، حكاية غاضبة لباتريشيا رايلي (Patricia Raley) ترى فيها (شيروكي) (Cherokee) فتاة هندية تدعمها عائلة بيضاء وترتدي بشكل استعراضي ملابس-هندية، وقد أُوقفت بهيئة (هندية) تماماً بجانب سارية تجارية هندية (وضيعة!): "اختلطت قبائل هذا الرجل كلها. فقد ارتدى بزّة مصنوعة من جلد الغزال مهّدبة، ذات تصاميم خرزية هندسية يتميز بها زي قبائل السهول، وعقد ضيق مصنوع من قوقعة أُذن البحر مايدو (Maidu). وحذاء جلدي عالٍ بلا كعب ذي تصاميم أزهار قبائل التشيبيووا مخرزة على أصابع القدم" (Trafzer 1993: 137). بصورته الأكثر فجاجة، يمثل الهندي البيئوي تناغماً بين ما يناهز 600 مجتمع ذات تمايز وتنوع ثقافي

في أمريكا الشمالية قبل عهد كولومبوس، أو حتى الـ (314) قبيلة المتحدة فيدرالياً في الولايات المتحدة الأمريكية في الزمن الحاضر.

لدواعٍ مشابهة، تظهر الكتابة عن هنود ما قبل القرن العشرين مشاكل. إذ يفترض الكتّاب من أصل هندي مسؤولية معينة تلزمهم أن يقدموا شهادة عن تاريخهم في كتاباتهم، لمواجهة تشويهات واضطهادات الثقافة المهيمنة. ومع ذلك أن تكتب عن -خاصة- ثقافة السهول في القرن التاسع عشر فإنك تخاطر في التواطؤ معها. كما يلاحظ الكندي الأصلي توماس كنج (Thomas King): "محاربون يرتدون الريش على أحصنة رقطاء، زعماء موجزون بامتيازات ملكية كاملة، ونساء داكنات البشرة ذوات شعور سوداء كسواد الغراب، كواهن يتلبسها الشيطان بأجراس على شكل مخلب النسر، وسكاكين تنزع فروة رأس العدو كلها صور مثيرة حيّة ذهنياً. لكنها -بدقة أكبر- خوادم لخيال الإنسان غير الأصلي" (King 1990: xiii).

في الوقت نفسه، تماماً مثلما اختلط الهنود ثقافياً وجينياً في المجتمع الأورو-أمريكي، فإن الكتابة الهندية التي تستخدم الإنجليزية هي بالتأكيد شكل (هجين). لا الرواية ولا الشعر الغنائي جزء من الثقافات الأصلية التراثية، بمعنى أن الكتّاب قد اضطروا أن يدخلوا التراثيات الشفوية عليهم. يوحي هذا عادة شعوراً باستجابة ومسؤولية مجتمعية، حيث "توحي الحكايا الشفوية بواقعية دينية تؤكد على قيم مثالية مثل التبادلية، والكلية والجمال، وبذلك تعبر عن إحساس عميق بالاتصال بين الناس وبين الأرض التي يسكنونها" (Padgett 2001: 18). في حين أنه يمكن أن يكون هناك أناس موهوبين بشكل خاص بسرد القصص، إلا أن الكل قد ساهم واستفاد من تشكيل ذاكرة حكائية شعبية. يتجاوز (المجتمع) المفترض -زيادة على ذلك- القبيلة، حتى أنه يتجاوز الإنسان؛ وكما يبين كنج (King)، يعبِّر الأمريكيون والكنديون الأصليون عن وجهة نظر مشتركة في العبارة الشائعة (كل أقربائي):

"[إنها] ابتداءً تذكرةٌ بمن نحن؟ وعن قراباتنا مع عائلتنا وأقربائنا على حد سواء. إنها تذكرنا أيضاً بالقرابة الممتدة التي نتشاطرها مع كل البشر. إلا أن القرابات التي يراها الشعب الأصلي تتخطى ذلك، شبكة القرابة تمتد حتى الحيوانات ... لكل الأشكال الحياتية وغير الحياتية التي يمكن رؤيتها أو تخيلها. وأكثر من ذلك، (كل أقربائي) هي حافز لنا كي ... [نحيا] حياواتنا بطريقة تناغمية وأخلاقية(فمن الشائع أن تتحدث عن شخص معاتباً أنه يتصرّف كما أنه لا يملك أي أقرباء)" (King, 1989: ix).

الكتابة عن (القرابات): سيلكو وإيردرخ

WRITING "RELATIONS": SILKO AND ERDRICH

تمثل رواية ليزلي مارمون سيلكو (Leslie Marmon Silko) (الاحتفالية) (Ceremony, 1977) هذه الخصائص، هذه الرواية تسرد إعادة إصطفاف طقسية للمحارب القديم مختلط الدم تايو (Tayo) مع (كل أقربائه). فهي تحاول أن تسن مثل هذا الاصطفاف عن طريق إدخال قصص متوازنة من تراث البويبلو[1] (Pueblo) الشفوي عن أبطال وأرواح الثقافة، من أمثال تستتسئتسناكو (Ts'its'tsi'nako)، وامرأة التأمل التي تأملت في العالم وجودياً. إنَّ استرداد تايو لعافيته من الرعب الذي جلبته له الحرب في المحيط الهادي ضد اليابانيين تضمّن محاولته الهروب من طيف رفقائه الهنود في الجيش الضائعين والسكارى، والعودة إلى طرائق شعب بحيرة لاجونا (Laguna). فيحاول المداوي كوؤوش (Ku'oosh) أن يساعده عن طريق شرح قرابة الشعب بعالم -بالإنجليزية -(هش): "الكلمة التي اختارها ليعبر بها (هش) كانت تعج بتعقيدات عملية مستمرة، وبقوة فطرية في بيوت العناكب المنسوجة عبر الطرق خلال كثبان الرمال حيث تمس الشمس صبيحة كل يوم كل خيط من شبكة المنكبوت" (Silko 1986: 35). ما أن بدأ تايو بالانخراط مع شعبه، إلى أنْ ابتدأ بفهم الملاقات بين -القتال لعيون أورو-أمريكية- وأحداث مأسوية مثل القحط في المحمية، وإدمان الكحول والعنف لرفقائه، وبين اليوم في الفلبين الذي لعن فيه مطر الأدغال. يرى الحرب أنها غرّبت الشبان عن شعبهم و-عندما يعودون للديار ليجدوا أن العنصرية ما زالت سائدة على حالها حينما غادروا- عن أمريكا خارج المحمية. مما يؤدي به أن يرى مؤامرة روحية عظيمة أو (شموذية) في العمل، فاستعمال البيض على وجه الخصوص أدوات في احتفالية رؤيوية تربط الصخور التي تختزن اليورانيوم الموجودة في المحمية بموقع التجارب النووية الثالوث المقدس المجاور، وبعد ذلك بالقنابل الذرية التي سقطت على اليابان، وأيضاً ربط الحرب بأزمة عالمية بيئية، الأزمة الموجودة في قرية بيوبلو وصراع تايو الخاص:

"رُسمت خطوط الثقافات والعوالم بخطوط عريضة قائمة على الرمل الفاتح الجميل، حيث تلتئم الخطوط في منتصف لوحة رملية لاحتفالية الساحر الأخيرة. منذ ذلك الوقت فصاعداً، عاد البشر عشيرة واحدة من جديد. يوحدهم المصير الذي خططه المدمرون لهم جميعاً، ولكل الأحياء؛

---

1 قرية من قرى الهنود الحمر في أمريكا.

توعدهم دائرة الموت التي تلتهم الناس في المدن على بعد آلاف الأميال، ضحايا لم يعرفوا من قبل هذه الهضبات متحدرة الجوانب، لم يرو من قبل ألوان الصخور الرقيقة التي فوّرت مذبحتهم" (Silko 1986: 246).

في مواجهة هذا، يضع سيلكو احتمالية الاحتفاليات الهجينة التي تجمع القديم والجديد، فقد صُمّمت العناصر البيوبيولية والأورو-أمريكية لمواجهة (السحر) وإنقاذ تايو، والناس والعالم.

تمثّل الاحتفالية بقوة التمييز العنصري البيئي الموجّه ضد بيوبلو وشعوب (على الحدود) منذ ذلك الوقت، وكما يلاحظ كيلينجزورث (Killingsworth) وبالمر (Palmer)، فقد قهر تايو غربته جزئياً عن طريق اتحاده مع مجتمع أكبر من القرابات التي دمرتها آلة الحرب (1998:203). يَقتبس عمل جوني أدامسون (Joni Adamson)، (أدب الهنود الأمريكان، العدالة البيئية والنقد البيئوي) (American Indian Literature, EnVironmental Justice and Ecocrticism) تقريراً صدر في عام (1987) زعم أن "(60%) من الأمريكيين من أصل أفريقي ولاتيني، وأكثر من (50%) من سكان الجزر في آسيا والمحيط الهادي، والأمريكيين الأصليين، كانوا يعيشون في أماكن تحوي واحداً أو أكثر من مكبات النفايات السامة غير المراقبة" (xvi:2001). هذا الكتاب جزء من حركة في النقد البيئوي، ابتداءً بالانشغال التام بالرعوية والبرية، وانتهاءً بالمنظور البيئوي الاجتماعي. يشير أدامسون أن:

"الروايات من مثل (احتفالية) [سيلكو] ... لا توجّه إلى (المناطق البرية البكر) التي يحتفى بها كثيراً من حماة البيئة السائدين وكتاب الطبيعة. إنها توجّه للمحميات، في مناجم اليورانيوم المفتوحة، والمناطق الحدودية المحلية والدولية. إذ تستجوب وتواجه هذه الروايات فرضياتنا الأكثر شيوعاً عن (الطبيعة) و(الكتابة عن الطبيعة) عن طريق دعوتنا لإلقاء نظرة فاحصة على المناطق المتنازع عليها، حيث يتجمع عدد كبير من الفقراء والمهمشين حول المشاكل البيئية والاجتماعية المتداخلة" (xVii:2001).

كما تعترف أدامسون، فإن الأمريكيين الأصليين- في العادة- ضحايا وموظفون لدى الصناعات الملوّثة على حد سواء. يمثل نقدها إذاً تحولاً عن فكرة الهندي البيئوي نحو تقدير بالكاد يختلف عنها للقضايا البيئوية السياسية المعقدة التي تتخلل أدب وثقافة الأمريكيين الأصليين المعاصرين، من مشاعر الأصالة إلى مشاعر المسؤولية.

يمتدح لورنس بويل "الاندماج بين المناطقية والعولمة (في الاحتفالية) وبين تهجينها

الرائع للتراث الشفوي، والرواية الواقعية والخرافة الرؤيوية (1995:286)، ولكنه ينتقدها بعد ذلك لنهايتها القريبة من المثالية. بينما كان محقاً في الإشارة لذلك، إلا أنها ربما كانت النهاية العملية الوحيدة لرواية تشرّبت المواضيع اليهودية-المسيحية الرؤيوية تشرباً كاملاً. مشكلة أخرى تصيب قصة سيلكو (عودة الجواميس)، يفسر فيها الخطيب ويزل تيل[1] (Weasel Tail) على المجتمع الحديث أنها عقاب روحي سببه ذنب البيض، ويتنبأ بقهر المجتمع الأورو-أمريكي: "أتظن أنه ليس ثمة أمل للشعب القبلي الأصلي هنا أن يسودوا في وجه عنف وطمع المدمرين؟ ... إنك تتناسى غضب الأرض وارتجاجها الذي لن يتوقف. في ليلة وضحاها ستسترد الأرض ثروة الأمم (Trafzer 1993: 492). باختزاله الصراعات الاجتماعية والوطنية والبيئوية إلى مواجهة روحية ازدواجية لـ (السحر) و(الاحتفالية)، أو (الأصليين) و(المدمرين) يغرم سيلكو التمييز الواضح الضروري لقضايا العدالة البيئية لمصلحة مسرحية وحيدة يمكن أن تصدر في كارثة أو مثالية فقط.

تقدم رواية لويز أردريك (Louise Erdrich) صورة أكثر تعقيداً عن التداخلات الاجتماعية والبيئوية بين مجتمعات الهنود الحمر وبين المجتمعات الأورو-أمريكية. عادة ما تستخدم الكاتبة راويين أو أكثر. وأحياناً بتعاقب زمني مختل [الزمن غير التعاقبي] كي تستكشف التداخلات المعقدة لأجيال تشيبوا داكوتا الشمالية (North Dakota Chippewa)، الذين يسكنون بجوار بعضهم بعضاً وبجوار مناظرهم الطبيعية، و-كما يعلق بادجت (Padget)-. "إنها تتوسل بيئة تسود بها نظرة عالمية روحية[2] (Animistic). حتى لو نأت نسبة متزايدة من سكان المحميات بنفسها عن ثقافة تشيبوا التراثية" (2001:38). بخلاف السرد بضمير الغائب الموجود في رواية سيلكو. تضمنت رؤى أردريك المتعددة رواة متشككين وساذجين. يدعون القراء أن يضعوا أنفسهم بنقد ذاتي فيما يتعلق بهم. في رواية "طب الحب" ((LoVe Medicine 1984). طبعة ثانية 1993)، تبنت لولو لامارتين (Lulu Lamartine) المتألقة اتجاهات ولهجة حركة الهنود الأمريكيين، وجماعة حقوق مدنية متشددة، وساعدت في عودة الجاموس إلى المحمية، في حين سخر ابنها لايمن (Lymen) من بدائيتها المتأصلة بها. تتأمل لولو وهي تنظر إلى الحيوانات:

"الناس ذوي السيقان الأربع. ساعدونا مرةً نحن ذوي الساقين" بهذه الطريقة تحددت باقة أهدافها، كما أنهم كانوا يترجمون أفكارها من لغة الأرض الأصلية. عرفت -بالطبع- أنهم

---

1 ذيل ابن عرس.

2 الاعتقاد أن لكل ما في الكون وحتى للكون نفسه روحاً.

نشأوا وقد أتقنوا الإنجليزية أيّما إتقان. لقد أثارت جنوني. تابَعت بالإمتاع، وحاولت الإنصات. "كان الخلق كله متصل في الأزمان الغابرة".

"إنه أكثر اتصالاً الآن". قلت. "ما أن تتكلّب كل أنابيبي، حتى أغدو جزءاً من دائرة الحياة المظلمة" (Erdrick 1994a: 307-8).

الرواية الاستباقية (مسارات) (Tracks, 1988) تغوص حتى نهاية القرن التاسع عشر من خلال قصص متضاربة عن بولاين بويات (Pauline Puyat) ذات الدم المختلط، التي تعاني من مرض عصابي، التي صممت أن تنكر تراثها الهندي ووثنيتها من خلال نوع مرعب من الكاثولوكية، وعن نانابوش (Nanapush) "التي تعدُّ تجسيداً لنقطة تحول في القرن كله للمخادع التشيباوي النمطي نانابوزو (Nanabozo)" (Westling 1996: 158). تشهد حياة كلا الراويين فترات تحوّل شديدة. فعلى الرغم من انتهاكه رجل سياسية قبلي. كان نانابوش مرة صياداً عظيماً: "أفكر كما تفكر الحيوانات، أملك فهماً كاملاً لأماكن اختبائهم، وفي زمني فقد تتبعت أثر غزالاً زمنياً في الحقول المشجرة والجرداء، حتى المكان الذي ولد فيه"(Edrick 1994b: 40). في مشهد استثنائي، يساعد إلي (Eli) -حبيب فلور (Fleur)- في تتبع أثر موظ[1]، وقتله في منتصف الشتاء بواسطة أغنية طقسية. ربط إلي (Eli) بعد ذلك اللحم المجزور على جسده من أجل حمل اللحم، وحماية نفسه من البرد القارص. ما زالت بولاين تؤمن بقوة هذه الطرائق القديمة، إلا أنهم كانوا لعنة عليها. فقد قيدها هذا الكره بأعدائها، لذلك عندما عانت فلور-شخصية تحتفظ بعلاقات حميمة مع الأرواح-من الفشل، لم تخفق بولاين بمساعدتها كما يجب فقط، لكنها رافقتها في رحلة غريبة إلى منطقة أعراف[2] (limbo) متجمدة تعج بالجواميس والهنود الموتى كي تحاول أن تستعيد حياة الرضع.

في نهاية الرواية، يتم خيانة فلور وبيع حصتها لشركة أخشاب. فقد تمّ استبدال الحرب الشاملة ضد البشر، والحيوانات والمناظر الطبيعية بنوع من الغزو أكثر مكراً -لكن ليس أقل فاعلية-قاده وكلاء الهنود الاتحاديين للصناعات الاستخلاصية (انظر، Wilson 1998:289-329). ومع ذلك، عندما جاء الحطابون لملكية فلور، كان للعجوز بيلاجر (Pillager) الكلمة الفصل:

---

1 حيوان ضخم من حيوانات أمريكا الشمالية شبيه بالإلكة. المترجم.

2 منطقة الأرواح التي تحرم دخول الجنة بسبب ذنب لم تقترفه، كأرواح الأطفال غير المعمَّدين.

"من حولي، عُلِّقت غابة، ممسوكة بخفة. طفت فصوص الأوراق الأصبعية على لا شيء. الحناجر القوية، وأعمدة الجذوع، والأساليد المنبسطة، كل الجوهر المادي كان خيالاً محضاً. لم يكن شيئاً صلباً. كل تاج أخضر كانت تثبته في الهواء شظايا اللحاء ليس أكثر.

"تعرضت كل شجرة لنشر من القاعدة

.... بضربة رعد واحدة تفرقعت الأشجار المحيطة بكوخ فلور وسقطت بعيداً عنا على شكل دائرة، مدبّسة تحت أغصانها الرجال المهادرون، والأحصنة" (Erdrich 1994b: 40).

كما يؤكد ويستلنغ (Westling)، إنه (انتصار بيروسي)[1] لكنه انتصار يعرض لما طمسه الكتاب الأورو-أمريكيين في رؤاهم الرعوية عن اقتراب الجبهة: "الاستعمار، والإبادة، والحيل القانونية، والنهب المشترك" (Westling. 1996: 164). يدلل أدامسون أن أردريك تعرِّف بسياسة انتخابية وثقافية، وروحية حياتية كذلك، أسلحةً مناسبةً للأمريكيين الأصليين في وجه التمييز العنصري البيئي، وأن "(مسارات) ... هي نقد ثقافي يدعو إلى التغيير والمشاركة في تحويل قرابات القوة المتجذرة في المشاكل الاجتماعية والبيئوية". (Adamson 2001: 112). زيادة على ذلك، لا تصور روايات أردريك ببساطة إبادة حتمية لطرائق الهنود في الحياة، كما في أسطورة (الهندي المتلاشي)، ولكن تصور صراعات دائرة ضد نزاع غير محتمل يخلو من نتائج مسلّمة.

المشكلة مع المذهب الروحي THE TROUBLE WITH ANIMISM

إنّ التأكيد على المجتمع والتراث الروحي، الذي يمثل مطلباً للسكن البيئوي الذي يبدو ذات صلة بيومنا هذا، هو أحد الفرضيات الأكثر شيوعاً، والأقل تعرضاً لدراسة معمّقة في النقد البيئوي الأمريكي. فقد ربط النقاد البيئويون النسويون -على وجه الخصوص- مذهب السكان الأصليين الروحي بكل من علم التبيؤ والنسوية، مرتكزين جزئياً على تقاليد الأم البؤرة (matrifocal)، والأم الحاكمة (matriarchal) في بعض القبائل الهندية. على سبيل المثال، يقترح ويستلنغ أن روايات أردريك تعالج مشاكل المناظر الطبيعية الخاضعة لمعايير الجنس التي أشهرتها الرعوية الأورو-أمريكية، ويتتبع وصف جريتا جارد (Greta Gaard) لأصول التعليم البيئوي النسوي (التنزه على الأقدام دونما خريطة) (Hiking without Map. 1998) ردود الفعل على صفة

---

1 ينتزع بثمن باهظ جداً.

عن (الاحتفالية). عكست أهمية أدب الهنود لكتاب النقد البيئوي، لكنه لم يذكر البتة الأسئلة الحرجة سواء عن رؤيويته أو عن العلاقات الشائكة مع الروح، والعلوم، والسياسة التي يطرحها. في الواقع، في القراءات المعاصرة البيئوية النفسية، فإن (علم التبيؤ) الروحي، أو المذهب الروحي، لا يتمم علم التبيؤ العلمي فقط، ولكنه يعد أحياناً حكمة متسامية. تقترح بولا جن ألن (Paula Gunn Allen) أن فيزياء آينشتاين تقترب من الفهم الهندي لهوية الروح والمادة، لكنها "تخفق" في الثانية [المادة] لأنها تفشل في رؤية الطاقة أنها "ذكاء متجلٍ بطريقة أخرى مغايرة" (1996:246-7) وفي تقييم ج. دونالد هجز (J. Donald Hughes)، تستحق تراثات الهنود أن ينظر لها (علوماً عرقية):

"كان الهنود قويو الملاحظة والعقلانية، لكنهم يقدمون تفسيرات يمكن استثناؤها حتى لو أنها شابهت فرضيات العلوم الغربية الحديثة، ذلك أنهم كانوا -عادةً- ذاتيين غامضين. لكنهم يعتمدون دائماً على الملاحظة التجريبية والخبرة" (Hughes 1996b: 79).

نادراً ما تتعرض العلاقة بين المعتقدات الأرواحية والسكن المستدام بيئياً، للتشكيك في السياقات التاريخية، والأدبية، والنقد-بيئوية، على الرغم من الدليل الأنثروبولوجي والتاريخي المتشابك. مما لا شك فيه أن الهنود -قبل توالي القتل بالعشر، والنزح والاستعمار-، عرفوا وعمروا الأماكن التي أهلوها بشكل كامل، لكن هذا لا يطابق بالضرورة الفهم البيئوي والمسؤولية المترتبة وفق الفهم الحديث. المثال المشهور عن صيد الجاموس وتحويلاته التاريخية يظهر الفرق.

يتحدث هجز (Hughes) -الذي يفضل صراحةً توصيفات الهنود المعاصرين مصادرَ أثارية ومصادر أدلة أخرى في كتابه (علم تبيؤ هنود أمريكا الشمالية) (North American Indian Ecology)- بلسان تراثات البيض والهنود على حد سواء عندما يقول: "كان الهنود يعيشون بتوازن بيئوي مع قطعان الجاموس" (1996b:42)، قبل أن يبدأ البيض عمليات الاصطياد بالجملة. ويحاول أيضاً أن يظهر أن معتقدات السكان الأصليين -وليس كثافة السكان المنخفضة أو قلة الوسائل التقنية- هي مَن منعتهم من الاستغلال الجائر للقطعان. مع ذلك، فأسلوب حياة هنود السهول التي خشيها وأعجب بها على حد سواء الأورو-أمريكيين كان عمرها فقط حوالي قرن بحلول عام 1850، وهي شهادة على القدرة التكيفية التي تمتع بها المجتمعات الهندية وليست شهادة لانسجامهم (اللامحدود) مع الطبيعة. استعراض مارتن لويس (Martin Lewis) للسجل البيئي المختلط (للناس البدائيين) يدلل أن "ليس ثمّة علاقة تناغمية بين الطريدة والمفترس، يمكن أن تؤسس بهذه الفترة القصيرة غير المستقرة سكانياً"، خاصة إذا عددنا السرعة التي

راعت بها بعض القبائل الطلب الأورو-أمريكي على منتجات الجاموس (Lewis 1992: 65).

يظهر وصف شيبارد كريتش الثالث (Shepard Kerch III) المفصل أن الهنود نظروا بالفعل وعاملوا الجواميس أنها (شخوص أخرى ليست إنسانية)، وأحاطوا عمليات اصطيادهم بطقوس موسمة، مقترحين احتراماً عظيماً لهم، ولكن أيضاً أن –في حالة بيجان (Piegan) وكري (Cree)- ضمّت معتقداتهم خوفاً من الجواميس التي نجت من الاصطياد أنها يمكن أن تحذر الجواميس الأخر. قبل وصول الحصان الذي حوّل مجتمعات السهول، عادة ما كانت تساق الجواميس إلى الأنهار أو إلى أعلى الجُرف المنحدرة لقتلها. تُساق إلى داخل الزرائب لتذبح. فالمعتقد الهندي إذاً كان يتضمن قتل كل الحيوانات التي يستطيعون قتلها؛ لمنع الهاربين من إحباط الهجمات المستقبلية. تقترح أطلال جُرف استخدام ما يزيد عن مئات أو آلاف السنين أن بعض الهجمات خلّفت ذبائح يفوق عددها ما يمكن جزره كاملا.

يشير اعتقاد أوسع انتشاراً ومثبت بشكل جيد -يحمله أراباهو (Arapahoe) وتشيني (Cheyenne)- أن الجواميس كانت تمضي الشتاء في كهوف تحت الأرض، أو مراع أسفل البحيرات، وهذا عامل يمكن أن يكون أثرا سلبياً في الحماية. في النهاية، "إذا عادت الجواميس كل عام من الأرض؛ لأنها كانت جزءاً منها، كيف يمكن لهم أن ينقرضوا؟" (Kerch 1999: 140). الاحترام كان واجباً لسيد روح الحيوان، بما يكفل أن الاعتبار الصارم لمعاملة حسنة للمخلوقات لن يصطف بشكل منظم مع المفاهيم الحديثة عن مصلحة الحيوان أو حمايته. ضمن من يعتقدون بنظرة كري (Cree) إلى الحيوانات في كندا، هناك اعتقاد أنه كلما أكثروا من قتل الحيوانات، كلما ازداد عددها، بشرط أن يراعى التحضير الطقسي الصحيح للصياد، والمعاملة الصحيحة لا للذبيحة (p.205-6).

إذا لم تكن الأرواحية بالضرورة بيئوية، فعلم التبيؤ ليس علم التناغم والتوازن الذي افترضه بعض النقاد. فالنظرية البيئوية الأكثر حداثة تحترس بشكل ملحوظ من علم التبيؤ الكلاسيكي ذلك أنه كثيراً ما يخفق في التطابق مع الواقع الملحوظ. على سبيل المثال، يناقش مايكل بولان (Michael Pollan) الدمار الذي خلفه إعصار قُمعي ضرب غابة قديمة الأشجار تسمى كاتدرائية أشجار الصنوبر (Cathedral Pines). إذ يمكن للنظريات الكلاسيكية عن تعاقب الغابة أن تتنبأ أنه -بغير انزعاج- سوف تمر الغابة بسلسلة يمكن التنبؤ بها من الحالات الوسطية، مما يؤدي أن تعود لحالها (المتوازن) قبل حلول العاصفة –(ذروة) الغابة. أما الواقع فإنه معقد أكثر بكثير من هذا ولا يمكن التبنؤ به، ذلك أن "الطبيعة يمكن أن تملك نزعات فطرية

معينة، نزعات يمكن لنظريات من مثل تعاقب الغابة أن تصفها. لكن الأحداث المصادفية، يمكن أن تشعّب مسلكها إلى قنوات لا حصر لها تقريباً" (Pollan 2002: 198-9). ترتكز دعوى بولان جزئياً على عمل العالم البيئوي دانييل بوتكن (Daniel Botkin) الذي يضع- في كتابه المثير للجدل (تناغمات متنافرة: علم تبيؤ جديد للقرن الواحد والعشرين) (Discordant Harmonies: A New Ecology for the Twenty-First Century, 1990)- سلسلة دراسات حالة علمية تتطلب إعادة تقييم فلسفي أساسي لعلم التبيؤ، مدللاً أن النظرة السائدة عن "المفهوم الصارم جداً عن الحالة الثابتة للنظام البيئوي المبني، والمرتب والمنظم على درجة عالية" يعرف اليوم أنه "خاطئ" (Botkin 1992:9).

يعد البيان الذي يتناول التوازن والانسجام الذي قوّت الهندي البيئوي إشكالياً بالقدر ذاته على الأقل -تاريخياً وسياسياً- الذي هو عليه النمط نفسه: "في الحالة الثابتة للطبيعة المتوازنة المتناغمة، أعاد السكان الأصليون إنتاج التوازن والانسجام. أما في الطبيعة المفتوحة التي يشكك في توازنها وذروتها، يصبحون -كبقية الناس-، قوى حيوية تأثيرها -سواء أكان واضحاً أم لا- لا يمكن افتراضه (Krech 1999: 23). مثل هذه النظرات التشكيكية عن قصة الإحاطة المثالية قدمها علم التبيؤ الكلاسيكي -الذي توفر فيها الطبيعة غير المفسدة حتمياً تبيؤ متوازناً- تسمى أحياناً (علم تبيؤ ما بعد الحداثة). وسيناقش هذا المنظور باستفاضة في الفصل الأخير.

يجب أن لا يقوّض التحليل المقدم هنا الاحترام اللائق لطرائق حياة الشعوب الأصلية، على الرغم من أنه يفرض بالفعل تشكيكاً، لأية محاولات لجعلهم أشكالاً للتقوى البيئوية الأصلية. شكل السكن أساسي، ذلك أنه يلقي بظلاله على الطبيعة جاعلاً إياها الأرض المعرّضة للعمل، والمعرفة، والاقتصاد والمسؤولية، بينما يأهل الهندي البيئوي جنة عدن غير مرجّحة الوجود التي لم يمسها الجهل، والغباء، أو الطمع. حول الهنود -افتراضياً- المناظير الطبيعة جذرياً منذ أمد بعيد قبل الأوربيين -بالقدر الممكن حسب اهتماماتهم- بمعرفة ومهارة معقولة، ولكن على الدوام وفقاً لشروط نظامهم المتناغم الثقافي. ليس بوسع الهنود المعاصرين، ولا الأمريكيين الآخرين أن يفهموا بيسر ذلك العالم -ناهيك عن عمارته- بالقدر الذي تؤكد عليه أفضل كتابات السكان الأصليين. يدلل أندرو روس (Andrew Ross) أن المبالغة في التأكيد على الأفكار الروحية يشوّش "الحقيقة القائلة أن المجتمع يرص بعضه بعضاً بفعل فلسفة طبيعة، لا تحمل أية ضمانة لوجود بيئوي حسن، إذا حُكم هذا الوجود بسلم اجتماعي هرمي، يعتمد على مدخل انتقائي للمصادر الطبيعية للحفاظ على قوّته" (Ross 1994: 71). يمكن للشعوب (البدائية) أن تستوعب

-فرضياً- الأساطير التي تذاع عنها، لكنها يمكن أن تتصرف بهم وتنشرهم وفقاً لمصالحها الاقتصادية والسياسية. ووفقاً لهذا التحليل البيئوي الاجتماعي، يمكن للبدائية المراوغة أن تقودنا جميعاً إلى منظور جديد، وربما إلى مجتمع "يوجّه فيه تنظيم الوعي السياسي، والاقتصادي، والثقافي لحياتنا نحو توسعة تنوع الحياة الطبيعية عن طريق تضييق اللامساواة الاجتماعية" (1994:72).

تفسير ونقد الإصباغات المتنوعة للسكن تعدُّ مهمة أساسية للنقاد البيئويين المهتمين بمشروع يغلب عليه الطابع السياسي وليس الأخلاقي أو الروحي -للنقد الثقافي الذي يمكن أن يأخذنا إلى ما وراء الرعوية، والكتابة عن الطبيعة- من مناظر الطبيعة الترفيهية إلى أرض العمل الحقيقي غير المتوازن.

الفصل السابع

الحيوانات

ANIMALS

تنقسم دراسة العلاقات بين الحيوانات وبين البشر في العلوم الإنسانية إلى قسمين: الدراسة الفلسفية لحقوق الحيوان، والتحليل الثقافي المتعلق بتمثيل الحيوانات. هناك ظاهرة مشهورة حديثة استمدت زخمها ودافعيتها أساساً من عمل بيتر سنفر (Peter Singer) الانقلابي (تحرير الحيوان) (Animal Liberation. 1975)، الذي درس قضية كان -حتى ذلك الوقت- يمر عليها فلاسفة الأخلاق مرور الكرام، لكنها نادراً ما سُبرت كاملاً. فقد اعتمد سنفر على حجج وضعها ابتداءً الفيلسوف النفعي جيريمي بينثام (Jeremy Bentham. 1748-1832)، الذي اقترح أنَّ ممارسة القسوة ضد الحيوانات كانت تشبه العبودية، وادعى أن القدرة على الشعور بالألم، -وليس قوة العقل- خوّلت وجوداً للاعتبار الأخلاقي. يطلق سنفر مسمّى (التمييز النوعي) للتحيز غير العقلاني الذي يعدّه بينثام أساساً لتعاملنا المختلف مع الحيوانات والبشر. تماماً مثلما -قل- أسيء معاملة النساء، والأفارقة بناءً على الاختلافات الجسدية التي ليس لها علاقة بالأخلاق، كذلك تعاني الحيوانات لأنها تقع في الجانب الخطأ ممّا يفترض أن يكون (خط الفصل) (مُقتبس في سنفر، 1983: 8) الذي يقسّم الكينونات التي لها اعتبار من تلك التي لا تعتبر. ومع ذلك يبدو من المستحيل رسم ذلك الخط بطريقة تستثنى كل الحيوانات وتضم كل البشر، حتى إذا تحولنا -كما فعل الكثير- إلى ملكات (العقل) أو (الخطاب): بالنسبة لبينثام "الحصان الفحل أو الكلب لا يضاهى، ذلك أنه أكثر تعقلاً، وأكثر أُنساً من طفل رضيع بعمر يوم أو أسبوع أو حتى شهر"

(1983:8). الحد الفاصل بين الإنسان وبين الحيوان يعدُّ حداً اعتباطياً و-إضافة لذلك- خارجاً عن السياق-. ذلك أننا نتشارك مع الحيوانات القدرة ذاتها على المعاناة التي يمكن (ليد الطاغية) فقط أن تنكرها (السابق).

يقرر (مبدأ المساواة) النفعي أن كل شخص مخوّل لاعتبار أخلاقي متساو، بصرف النظر عن العائلة، والعرق، والأمة والنوع، وبالنسبة لسنغر "إذا عانت كينونة ما، فليس هناك أي تبرير أخلاقي لرفض أخذ هذه المعاناة بعين التقدير" (1983:9). مستحدث الاختلافات في مواضيع اهتمامنا فرقاً لما نفعله بالضبط، لذا من غير المعقول أن نشرع بحمله لجمع أصوات للحيوانات. إلا أن سنغر يناضل أن لا تحظى معاناة البشر بديهياً بقدر أكبر من الاهتمام من معاناة الحيوان. تنبثق هذه الحجة من الإرث النفعي في الأخلاق، الذي يؤمن أن الأفعال ليست صحيحة أو خاطئة بذاتها، ولكن تُعتبر إذا جلبت السعادة أو سببت الألم حسب. يعرض سنغر لنسخته الشاملة عن الحيوان في الفصل الأول من كتابه، بينما يكرس بقية الكتاب لترويج النباتية (Vegetarianism)، ومواجهة تشريح الأحياء المرعب، وممارسات المصانع الزراعية، مدللاً خلال الكتاب للدفع تجاه تحرير الحيوانات.

تناصر ماري ميدجلي (Mary Midgley) موقفاً أقل تشدداً من موقف سنغر (التحرري). يُبقى كتابها (الحيوانات ولماذا تهم) (animals and why they matter. 1993) مقدمة ممتازة (للمصلحة) الحيوانية، فهي تقيد مبدأ المساواة، مدللةً أننا أحياناً نكون محقين لتفضيل مصالح عشيرة البشر، وتنتقد تشبيه سنغر التمييز العنصري بالتمييز النوعي [على أساس النوع]:

"إغفال عرق أحد ما شيء معقول تماماً. إغفال نوعهم يعدُّ إهانة متكبرة. إنها ليست ميزة، بل بلية، تحل بغوريلا أو تشامبانزي -[مثلاً]- أن ينتزع من غابته، وأقاربه ويوضع وحيداً بين البشر، ليقدم له ما يعدُّه أولئك البشر تعليماً" (Midgley 1983: 99).

في الوقت نفسه، تستكشف ماري مفهوم التجسيم، ومن الجدير بالذكر هنا أن القلة التي تعارض الموقف التحرري للزراعة المصنعية بناءً على أرضية فلسفية، وليست اقتصادية مثل ليثي (Leathy، 1994)، قد وجهوا انتقاداً للتجسيم، مدللين أنه من الخطأ أن نعزو صفات بشرية مثل رغبتنا في الحرية إلى الحيوانات المعنية. ترجع ميدجلي إلى أصول المصطلح، الذي طُبق أولاً على الخلع الخاطئ للشكل البشري والصفات البشرية على الله. فالمشكلة التي يتعرض لها علماء اللاهوت الذين هاجموا التجسيم أن شكّهم بدى أنه ينكر لله أي صفات مهما كانت. بالطريقة نفسها، الهجمة التشكيكية على النظرات التعاطفية للمخاطر التي يتعرض لها الحيوانات يجعل من

المستحيل وصف سلوك الحيوان على الإطلاق. المشكلة -إذاً- في التمييز بين أنواع التجسيم، الذي عادةً ما يعدُّ موضوعاً عملياً جداً. مثال ذلك، (سائق الفيل) (mahout) أو سايس الفيل:

"من الواضح أن سائقي الفيلة لديهم اعتقادات خاطئة كثيرة عن الفيلة؛ لأنهم (تجسيميون) -بمعنى، أنهم يسيئون تفسير السمات الغريبة لسلوك الفيل معتمدين على النموذج الإنساني غير الملائم. لكنهم إن فعلوا هذا عند تفسير المشاعر الأساسية اليومية- ما إذا كان الفيل مسروراً، أو منزعجاً، أو خائباً، أو مهتاجاً، أو متعباً، أو متألماً، أو متشككاً أو غضبان، لن يكونوا بلا عمل فقط، بل سيكونون على الأغلب ببساطة موتى" (Midgley، 1983: 115).

استعراض جيفري ماسون (Jeffrey Masson) وسوزان مكارثي (Susan McCarthy) للاستدلال على عواطف الحيوانات، يقترح أن البحاثة العلميين ينأون أنفسهم عن الهواجس الأخلاقية رافضين اللغة الوصفية التي يعدونها (غير ملائمة). وغالباً ما تستخدم لوصف السلوك البشري، لذلك "القرد ليس غاضباً، لذا يظهر عدائية. طائر الكركي لا يشعر بالحنان: إنه يظهر تودداً أو سلوكاً أبوياً" (Masson and McCarthy 1996: 45). يمكن أن يتوسع هذا ليشمل التردد في إعطاء الحيوانات المراقبة أسماء عادية: "من المسلم به أن الرقم يعدُّ أكثر ابتعاداً عن الأنسنة من الاسم، هل هذا يجعله أكثر علمية؟: منحهم أسماء ... يمكن أن يسمى تجسيماً، لكن الشيء نفسه ينطبق على إعطاء الأرقام. لا يحتمل أن تفكر قرود الشمبانزي بأنفسها كـ (فـ2) و(ج ف3) أكثر بما تفعل إذا كانت تدعى (flo) أو فيجان (Figan) (1996:47) . قدمت دراستهم أمثلة مهمة جداً عن تنوع عواطف الحيوانات، بما في ذلك الأمل، والحزن والسعادة، والحنق، على الرغم من أن الأمثلة التي اقترحوها عن العواطف المعقدة جداً مثل: الرحمة والعار، تعد أقل إقناعاً. يسعى النقد التحرري إلى تعزيز مكانة الحيوانات عن طريق تقويض (خط الفصل) بين البشر، وبين الحيوانات الذي ينتقده بينثام. النتيجة النهائية هي أنه حتى المواجهة بين التقنية والطبيعة تعدُّ غير مستدامة، كما تغدو العمليات الكهرو-آلية والعمليات الحيوية مع الوقت أكثر اختلاطاً على نحو متقارب مع الوقت. يدفع النقد المعاصر لـ (المخلوق الهجين) (cyborg) حجة بينثام إلى أقصاها، مدعياً أن تقنيات ما بعد الحقبة الحديثة مثل أعضاء الجسد الاصطناعية، أضحت تهدد التمييز التقليدي بين الآلة والحي، وبهذا تهدد فكرة (الإنسان) نفسها.

تمت صياغة التوجه النشط للنقد التحرري (liberationist criticism) في مداولات أخلاقية، لكن الاصباغ الحديث للدراسات الثقافية يجيء من مقالة جون بيرغر (John Berger) (لمَ النظر إلى الحيوانات؟) (why look at animals، 1980)، التي درست مسألة الحيوان

بوصفها قضية اجتماعية وجمالية. عندما ننظر إلى الحيوانات- ترجع هذه الحيوانات نظراتنا- وبتلك اللحظة نتنبه إلى الشبه والاختلاف على حد سواء. وبذلك "يضحي الفلاح مغرماً بخنزيره ويسعد بالاحتفاظ بلحمه" (Berger 1980:5). بالنسبة للواقعية المتكاملة ما قبل الحديثة، العشق والذبح ليسا متناقضين. فلم تُزل الحيوانات من الحياة اليومية من خلال التصنيع حسب، في حين تختبئ عملية إنتاج اللحم بعيداً. ما أن همّشت بهذه الطريقة، حتى بدت الحيوانات التي ما زالت ظاهرة لنا (دمى بشرية) ليس أكثر. مثل حيوانات العائلة المدللة أو شخصيات ديزني، أو مواضيع لمشاهد مسرحية أو غالبا كتب، وأفلام عن الحياة البرية، حيث

"... الحيوانات هي المراقبة على الدوام. الحقيقة التي تفيد أنها يمكن أن تراقبنا فقدت كل دلالاتها. إنها مواضيع معرفتنا دائمة التوسع. ما نعرفه يعد مؤشراً على قوتنا، وبذلك يكون مؤشراً لما يفصلنا عنهم. كلما علمنا أكثر، كلما ابتعدوا أكثر" (Berger 1980: 14).

إذا كان الحيوان المدلل مجرد مرآة يعكس نظراتنا دونما سيطرة ذاتية، فإن تلفاز الحياة البرية يعجز عن جعل نظراته مسجلة البتة في مواجهة عيننا الاستبدادية. وفقاً لأخلاق التحرر، التي يمكن أن يعدها عرضاً إضافياً لبعدنا الاغترابي عن الحيوانات، يضيف بيرجر سياسات التمثيل الأشد اختلافاً.

ليس أحد منهما على علاقة مباشرة مع علم التبيؤ، ليس أقل، ذلك أن الحركة البيئية وتحرير الحيوان يتصارعان في النظرية والتطبيق على حد سواء. إذ يرسم دعاة تحرير الحيوان عموماً خط الاعتبار الأخلاقي على تخوم الحس أو الشعور. أما بالنسبة لسنفر، فإنه [خط الاعتبار الأخلاقي] في مكان ما بين القشريات والرخويات، يترك بلح البحر على القائمة لكنه يستثني السلطعون والقريدس. الأخلاق البيئية -من جهة ثانية- لا تؤكد كثيراً على الحي المنفرد، لكنها تطالب باعتبار أخلاقي للأشياء غير الحية، مثل الأنهار والجبال، مفترضةً أن الألم والمعاناة جزء ضروري من الطبيعة. لهذه النزاعات الأخلاقية آثارٌ عملية، تتمثل في أن التحرريين يعارضون عموماً الصيد، بينما يدلل الفلاسفة أنه في بعض الحالات، يتوجب غربلة الانفجار العددي لنوعية معينة، لا سيما إذا شكل تهديداً للبيئة المحلية كاملة (انظر: Callicot 1995: 39). أضحت مثل هذه النزاعات ضاغطة بشكل خاص في حالات يهدد فيها المفترسون غير الأصليين أو السلوكات المدمرة التبيؤات الهشة. مع ذلك- ولأن تربية الماشية تلقى معارضة بشكل كبير على المستويين البيئي والمصلحي- فإن دراسات التحريريين الثقافية يمكن أن ينظر لها حليفاً مهماً للنقد البيئوي إن لم تكن بالمستوى الضيق فرعاً له.

لقد رأينا كيف وُظفت (الرعوية) و(البرية) مجازات، في حين أن (الحيوان) أيضاً مجازاً، لديه طيف من الوظائف المهمة. على المستوى البسيط، نحن معتادون على تشابيه الحيوان من مثل (عنيد كبغل). فيمكن تحليل دور الشبه والاختلاف في العلاقة بين البشر والحيوانات بشكل عام وفقاً للفرق بين الكناية والاستعارة:

"تتمثل الخصوصية المميزة للحيوانات في كونها قريبة من الإنسان وغريبة عنه في الوقت عينه، وأنها تقربه وليست إنساناً بأي شكل أو أن لديها القدرة على التناوب، كمواضيع لأفكار البشر، بين تماس الصيغة الكنائية، وبين صيغة الاستعارة البعيدة التشبيهية" (Willis 1974: 128).

يمكن للبشر أن يكونوا –وأن يقارنوا بالحيوانات– على حد سواء. هناك –إذاً– (بلاغة الطبيعة الحيوانية) الممتدة، كما يسميها ستيف بيكر (Steve Baker) التي تعدُّ فعالة في وصف العلاقات الإنسانية الاجتماعية والسياسية كما هي في وصف الحيوانات الحقيقية. يركز النقاد والثقافيون التحرريون نمطياً على مكانة الحيوانات الأليفة في هذه البلاغة، بينما يدرس النقاد البيئيون تمثيل الحيوانات البرية، إذ يتوافق اختلاف التأكيد بشكل تقريبي مع تقسيمة بيرجر العائلة/ المشهد، وتباين حقوق الحيوان/أخلاقيات البيئة. هذه التفريقات الشرطية ستؤسس الأرضية لدراسة منفصلة لطاقي الحبل فيما تبقى من هذا الفصل.

الحيوانات الأليفة والمخلوقات الهجينة

DOMESTIC ANIMALS AND CYBORGS

يعد عمل ستيف بيكر (Steve Baker) (تصوير الوحش) (picturing the beast. 1993) خير مثال على النقد التحرري، فقد درس استخدام النماذج الحيوانية النمطية في السياقات السياسية، وأشرطة الرسوم المتحركة الحيوانية. يؤكد بيكر أن التمييز المتعارف عليه بين الحيوانات الحقيقية وصورها –الذي مُثّل سالفاً وفقاً للاهتمامات المختلفة لسنغر وبيرجر– يجب أن لا يقودنا لتسفيه الصورة لمصلحة الأصل، وأن نضع الأخلاق بأولية على الجماليات، ذلك أن:

"كثير من فهمنا لهوية الإنسان وتفكيرنا عن الحيوان الحي، يعكس– ويمكن أن يكون حتى النتيجة المباشرة – للاستخدامات المتشعبة التي يوضع بها مفهوم الحيوان في ثقافة العامة، بغض النظر عن مدى غرابة وابتذال بعض هذه الاستخدامات... إذ تشكل الثقافة قراءتنا للحيوانات تماماً كما تشكل الحيوانات قراءتنا للثقافة" (Baker 1993:4).

تتمثل أحد هذه الحالات في استخدام الحيوانات في "بيان عن التنظيم الأخلاقي والاجتماعي" (1993:89)، على سبيل المثال، يُدان السلوك العنيف أو السلوك الجنسي غير السوي عادةً أنه (بهيمي) أو (حيواني). يتساءل بيكر إذا ما كان هذا الاستخدام يعكس، أو يدعم احتقار الحيوان الذي توحي به بعض الممارسات الحديثة. ويظهر كيف شُوّهت سمعة سياسيو حزب العمال البريطاني في مطلع الثمانينات من القرن العشرين عن طريق رسوم كرتونية صحفية ربطتهم استعارياً بالحيوانات. على النقيض من ذلك، نشرت رسومات الكرتون التي تناولت الحرب العالمية الثانية صور كنائية "يمثل الأسد فيها بريطانيا... والنسر الأصلع يمثل الولايات المتحدة" (Baker 1993: 108). وقد مُثّل سياسيو حزب العمال (على شكل نصف إنسان ونصف حيوان). تجمع صورهم بين الصفات البشرية والحيوانية لغايات السخرية منهم. بينما كان الأسد والنسر صور (حيوانية الشكل) تمثل بريطانيا وأمريكا. التمثيل بالشكل الحيواني (Theriomorpthism) يعدُّ عكس التجسيم (anthropomorphism)، وعادة ما يستخدم في سياقات وطنية أو عرقية تنميطية مثلما حدث عندما وصف النازيون اليهود بالجرذان.

أحد أكبر مساهمات بيكر للنقد التحرري هو شرحه "للتشبه بحديقة ديزني"[1]، (dinsification)، مصطلحاً نقدياً: "بالنسبة للحيوان، الإجراء الأساسي للتشبيه بديزني أن تعده غبياً إذا عددته مرئياً" (Baker 1993: 174). قصص الحيوان التجسيمية عادة ما تشوّه صورتها أنها (طفولية). وبذلك يربط المنظور الخالي من الرحمة والاغترابي بمرحلة الرشد. ويفاقم التشبه بديزني هذا الترابط الموجود، كما ينعكس في الاستخدام العامي لـ (الفأر المسخرة) (Mickey Mouse) لوصف شيء أنه تافه أو بلا قيمة. الإشارة المرئية للتشبه بديزني هي (خصائص مرحلة الرضاعة)، أو مجموعة الخصائص التي نربطها غريزياً بالرضَّع البشر والحيوانات: عيون واسعة، رأس كبيرة تناسب الجسد، أطراف قصيرة، وشكل مدوّر بشكل عام.، كلاً من دب الباندا الحقيقي وشعار و.و.ف (WWF) الذي يظهر فيه يمثل خصائص مرحلة الرضاعة، إلى جانب علاقة (اللطف أو الظرف المشبهة بديزني) بالطبيعة التي توحي بها. يدعي بيكر أنه "ليس هناك من داع للتذمر من هذا: إنه ببساطة عن ماهية عمل التشبه بديزني في الوقت الراهن" (1993:182)، بالرغم من أن فصله الأخير يقترح كيفية ترويج صور الحيوانات غير المشبهة بديزني.

يتتبع عمل إريكا فيودج (Erica Fudge) (تفهم الحيوانات) (perceiving animals.)

---

1 هو مصطلح ازدرائي يصف تحوّل شيء - على الأغلب المجتمع كاملاً - ليشبه حدائق ديزني الترفيهية.

2000) في مطلع الفترة الحديثة- بالتحديد بين 1649-1558، سلسلة متشابكة من المحاولات في علم اللاهوت، والقانون، وعلوم أخرى، لتعريف (خط الفصل) بين البشر والحيوانات. تبتدئ فيودج بقصة عبرية قصيرة عن: زيارة الإيطالي أليزاندرو ماجنو (Alessandro Mango) لحديقة الدببة على الضفة الغربية في لندن عام 1562. هدفها المصرّح بعد ذلك كان أن توصّف السعادة المظيمة الواضحة التي حظي بها هو -وآخرون كثر- من رؤية الحيوانات وهي تقطّع إرباً. تفسيرها أن الناس شعروا بحاجة أن يؤكدوا على الدوام هيمنة البشر على – وانفصالهم عن- مملكة الحيوان عن طريق تعذيب الأحصنة، والدببة، والقرود، والثيران. إلا أن هذه المحاولة محكوم عليها بالفشل في دائرة خبيثة من الحنق والسادية: "أن تشاهد تعذيباً، أن تسن الفوقية البشرية، يعني أن تكشف – ليس استقرار حالة النوع – بل الحيوان المترصّد تحت السطح. في سبيل إثبات إنسانيتهم يحقق البشر العكس تماماً. تصنع حديقة الدببة من البشر حيوانات" (Fudge 2000: 15).

تدعم فيودج حجتها عن طريق الاستشهاد بنقاد لتعذيب الحيوان من القرن السادس عشر، يسخرون من الناس الذين يستمتعون به بوصفهم (وحوشاً). وبذلك يقوضون -بيانياً- جوهر (الإنسانية) التي كان من المفترض أن يعززوها. يؤكد المتذرون للرياضات الدموية في الماضي والحاضر أن معاناة الحيوان ليست هدفهم. إلا أن فيودج تشير أن نشاطاتهم ستكون بأكملها بلا معنى إن لم يكن هناك ردة فعل عاطفية من الحيوان نهائياً. من الممكن أن لا يكون هناك (رياضة) في تعذيب الدببة أو اصطياد الثعالب إن لم يكن المشاركون يشعرون. مع ذلك، من الممكن التدليل أن محاولتها لتفكيك الحدود بين الإنسان والحيوان ستفشل، ذلك أنها تفترض على -نحو خاطئ- أنه عندما يؤنب معارضو تعذيب الدببة أولئك الذي يستمتعون به بوصفهم (وحوشاً)، فإن بيانهم عن الحيوانية يمكن أن يؤخذ أنّه يهدم تفوق (الإنسانية) المزعوم. تدلل كيت سوبر (Kate Sober) -على العكس من ذلك- فإنّ مثل هذا الإيذاء يعزز- في الواقع- فكرة الفرق الإنساني: لأنه يدعم ما تسميه (التجسيم السلبي)، أو وفقاً لمصطلح بيكر الشبهية الحيوانية:

"يستخدم الحيوان هنا ليضبط، وليس ليربك، تقسيمة الطبيعة والبشر، عن طريق ربطه كل صفاتنا (الوضيعة) ووظائفنا الجسدية بالحيوانية، إذ نؤكد على أهمية ديمومة بقاء تلك الصفات العليا أو الأكثر روحية التي تهبنا السيادة الإنسانية على الوحوش" (Soper: 1998: 86).

لذا بينما يشهد التفصيل التاريخي الذي قدمته فيودج للجدل الواسع بخصوص المعاملة الفضلى، والمكانة اللاهوتية للحيوانات، فإن تفصيلها لا يحافظ على الدعوى الأكثر درامية أن "في

كل ممارسة للهيمنة يبزغ موقف غير أخلاقي: يصبح البشر الحيوانات التي يسمون للهيمنة عليها" (1988:143).

هناك طرائق كثيرة متنوعة لتتبع (خط الفصل) من امتلاك روح سرمدية من خلال الحرية الوجودية، والمفاضلة العصبية، واستخدام اللغة الرمزية، إلى تشريح يد الإنسان التي تمكنه من صناعة أدوات معقدة. تتشارك فيودج مع عدد من النقاد التحرريين الفرضية أن هذه الوفرة من الدعاوى والاحتجاجات لا تثبت الأمان المحّصن لمكانتنا نوعيةً عليا. على العكس، إنها تغذل حاجة تواقة محبِطة ذاتياً لبناء وتعزيز على نحو مستمر الفرق الذي لم توفره الطبيعة. لذلك فإن معتقداتنا وممارساتنا المهيمنة يمكن أن تستمر دونما مضايقات. فكرة سنفر عن التشابك الأخلاقي للثديات (الأعلى) والبشر (الأدنى) تترجم في النقد التحرري إلى هجمات على عقلية جبهة جنون الارتياب للأجيال المتلاحقة من الإنسانيين الذين يخدعون ذاتهم. يستمد هؤلاء كثيراً من قوتهم من هدمهم حدود الإنسان.

أحد أكثر المقالات النقدية لما بعد الإنسان إثارةً للحيرة هو تحليل مايكل شابيرو (Michael Shapiro) لعمل فيليب ك. ديك. (Philip K. Dick) (هل يحلم الناس الآليين بأغنام كهربائية؟) (Do Androids Dream of Electric Sheep?. 1968). وفيلم التكيُّف المشهور (العداء الشفرة) (Blade Runner. 1982). في رواية ديك، يطارد صياد النعمة، ريك ديكارد (Rick Deckard) أُناس آليين أو (منسوخين) فارين في مستقبل ما بعد رؤيوي إذ باتت الحيوانات الباقية القليلة تتطلب أسعاراً باهظة. مع كل منسوخ كان (يحيله للتقاعد). كان يقترب ديكارد من اليوم الذي يتمكّن فيه من استبدال غنمته الآلية بعنزة حقيقية. ولكن ما أن تعقب ستة رجال آليين ذوي خصائص حيوية- آلية متقدمة من نوع الرابطة -6، تعرض إحساسه بالتفوق الإنساني للإرتياب والتشظي. كما يلحظ شابيرو. فإن رواية ديك تستكشف التحدي الذي تتعرض له الهوية الإنسانية ليس فقط على يد الحيوانات، ولكن أيضاً بفعل المخلوقات الهجينة. في الرواية، اعتمد اختبار فيوجت كامبف (Voigt- Kampff) القياسي المستخدم لكشف المنسوخين على قياس الاستجابات العاطفية، -في العادة- لسيناريوهات خيالية تتضمن إيذاء الحيوانات. إنْ إخفاق الإنسان الآلي في الاستجابة لألم الحيوانات يحدد هويته ويشرعن تقاعده على حد سواء، ولكن لأنّ البشر الآليين واقعيين إلى حد بعيد، فقد هددوا أيضاً شعور الصياد بإنسانيته العاطفية الملتهبة، بمحبته للحيوان:

"لتمييز أنفسهم عن البشر الآليين، يجب على البشر أن يربطوا أنفسهم بالحيوانات (التي

بدورها ميّزت نفسها عن الناس الآليين إذا ما كانوا حقيقةً). وفقاً لذلك، يحاول ديكارد أن يقاعد البشر الآليين الشاردين من أجل التمكن من شراء حيوان مدلل حي، يحتاجه ليميز نفسه عن البشر الآليين" (Shapiro 1993: 68).

في هذا العالم، المترنح على حافة الانهيار النهائي، يتقوّض خط الفصل بين الإنسان والحيوان، كي نعزز الحدود بين البشر وبين البشر الآليين. يتعرض ديكارد للتضاربات الموجودة في مهنته في الحوار التالي مع مغنية أوبرا منسوخة تدعى لوبا لوفت (Luba Luft):

"هل لديك معلومات عن وجود بشر آليين في فريق الممثلين؟ سأكون سعيدة لمساعدتك، فلو كنت إنسانة آلية فهل سيسرني مساعدتك؟

(الإنسان الآلي). قال، (لا يبالي بما يحدث لإنسان آلي آخر، هذه إحدى المؤشرات التي نبحث عنها).

(إذن) قالت الآنسة لوفت، (لا بد أنك إنسان آلي). استوقفه هذا! وحدّق بها" (Dick 1997:79).

منصب ديكارد يتعرض للخطر القاتل بفعل علاقة جنسية مع راشيل روسن (Rachael Rosen) من الرابطة- 6، أرسلها صانعوها. لقد أظهرت درجة مؤلمة من الوعي الذاتي عن وجودها: "... نحن لا نولد، لا نكبر، بدلاً من أن نموت من المرض أو الكبر، فإننا نذوي مثل النمل... أنا لست على قيد الحياة! إنك لا تذهب للسرير مع امرأة. لا تشعر بالخيبة، حسنا.؟" (p.146). كلماتها متناقضة لذاتها شيئاً ما، إذا علمنا أن هؤلاء البشر الآليين، يجمعون عناصر حيوية وكهرو-آلية. تنهار الحدود بشكل متكرر في الرواية، وكثير من الحيوانات التي تصادق الإنسانية تحوّلت- مثل غنمة ديكارت – إلى آلات. زيادة على ذلك، يتلقى زميل ديكارت الإنسان الجريح ديف هولدن (Dave Holden) زراعة أعضاء ترقيمية لإنقاذ حياته، جاعلة منه إنساناً آلياً جزئياً، في حين يثبت صياد نعمة آخر، فيل ريستش (Phil Resch)، القسوة تجاه المنسوخين، وهو ما يبدو اضطراباً عقلياً بحد ذاته.

تلعب الحيوانات دوراً أقل بروزاً في فيلم ريدلي سكوت (Ridley Scott) مما لعبته في رواية ديك، مع التأكيد الكبير المنصب على الشعور بالشفقة على صراعات المنسوخين من أجل الحياة والهوية. يدلل شابيرو أن هذا المغزى يظهر من اللحظات الأولى للفيلم من خلال الموضوع الرئيس للعين، (التي تمثل الرؤيا كـ (عين) (eye)، والهوية كـ(أنا) (Shapiro 1993:75) (I).

يرقب اختبار فيوجت كاميف القياسي عن قرب حركات العين اللاإرادية لقياس الشعور، مما يفود إلى تحديد الهوية. فعندما واجه القائد المنسوخ روي باتي (Roy Baty) صانعه، قتله عن طريق اقتلاع عينيه. وعندما قابل المقاول الثانوي الذي صنّع بؤبؤ عيون الرابطة – 6، علق قائلاً، بغموض ساحر: "لو كان بوسعك أن ترى ما رأيته أنا بعينيك". كما في الرواية، يتصادم دور ديكارد صيّاد نعمة، أو (عداء شفرة). في النهاية مع العواطف الإنسانية ذاتها التي يفترض أن يدافع عنها: "لا يفترض بالمنسوخين أن يملكوا مشاعر، ولا بعدائي الشفرة أيضاً. ما الذي كان يحدث لي؟" في مشهد قتال ذروي، يصاب روي باتي ويمزّق، ثمّ ينقذ ويفتدي ديكارد. متأملاً بوجوده القصير جداً، يقول باتي"، رأيت أشياء لن تصدقوها أنتم البشر". ومع أن شاهد عينيه يؤكد هوية وراء الصور الضيقة للإنسان، فإنه يدرك فناءه: "والآن، حان الوقت للموت". يثبت هذا أكثر من أي شيء آخر استحالة إبقاء الحدود بين الإنسان وبين المخلوق الهجين.

آثار هذه الجهة الثانية على النقد البيؤي لـمّا تسبر بشكل موسع، على الرغم من ظهور هذا الحقل النابض لـ (دراسات المخلوق الهجين) الذي تأسس مبدئياً بعمل دونا هاراوي (Donna Haraway)" (انظر Gray: 1995). ففي عملها المؤثر (بيان المخلوق الهجين) (cyborg manifesto). تشير هاراوي إلى وجود المخلوق الهجين المطلق في الخيال العلمي، والطب الحديث، والحروب عالية التقنية. فقد غدا مريض القلب الذي لديه جهاز منظم لنبضات القلب في صدره، وطيار المروحية العامودية المهاجم المزود ببندقية تلسكوبية تتعقب حركة بؤبؤ العين، وحوشاً مألوفين تقريباً كما المبيدين (1985. 1991. 2003)(Terminators). عاجلاً ما يصبح المخلوق الهجين مستقلاً، مخرباً عدداً واضحاً غير محدود الخطط الازدواجية، وفقاً لهاراوي: حيوان/ إنسان، كائن حي/ آلة، ذكر/ أنثى، مادي/ غير مادي. إنها موضوعة في رابطة التغيير في الإلكترونيات الجزيئية وعلم الأحياء على حد سواء، فقد بدأت الحواسيب في تقليد ودمج العمليات الحيوية، وبذلك تحويل علوم الكائنات الحية إلى "علم هندسة فعّال لإعادة تصميم المواد والعمليات" (Haraway 1991: 165). برزت الشبكة الدولية (internet) أنها البيت الطبيعي للمخلوق الهجين، حتى عندما تفقد الطبيعة قدرتها "لمنح مصدر الهام ووعد بالبراءة" (p.153). يبدو أن هذا يتركنا هائمين في ظل مجتمع متنازل، محرومين من العزاء الغيبي، أو محبطين، ومع أن هاراوي توضح "البهجة في اختلاط الحدود"، إنها مع ذلك تصر على الحاجة إلى "مسؤولية في بنائها" (p.150). في حالة هاراوي، كان المخلوق الهجين حيوانا سياسيا إجمالا، ملتزم بالاشتراكية والنسوية.

سيصبح المخلوق الهجين شخصية مفتاحية في مشاعر المسؤولية؛ لأن عدم توقيرها وحسها الساخر اللاذع لا يتوافقان البتة مع مجازات الرعوية، والبرية، والرؤيوية التقليدية: "لن يتعرف المخلوق الهجين على جنة عدن، إنه يصنع من الطين ولا يحلم بالعودة إلى التراب" (Haraway 1991: 15). بما أنه لم (يهبط)، لا يحتاج المخلوق الهجين لأن يُفتدى، بل يحتاج فقط، أن يبقى على قيد الحياة، وأن يبقى خارج (تاريخ الخلاص) الذي يؤسس لبعض المواقف الفلسفية البيئوية والنقدية البيئوية. تدلل هاراوي أن المخلوقات الهجينة، تحتاج لتطوير استراتيجيات سياسية للمقاومة. لا تعتمد نموذجاً ازدواجياً من نوع التقنية مقابل الطبيعة الموجود عند كارولين ميرتشنت (Carolyn Merchant)، وهيدجر، ونقاد تبيؤ متعمقين كثر. يعترف موقفها "أن العلوم والتقنية عبارة عن وسائل ممكنة للرضى الإنساني العظيم، كما أنها مصفوفة من الهيمنات المعقدة" (p.181) حتى أنها تذهب أبعد من ذلك لتدعي أنه من الضروري أن (ندعم التلوث) إلى درجة يقوّض فيها هذا التكتيك مبدأ النقاء المعنوي، والمادي الذي أشير إليه في المقدمة. فبعض المخلوقات الهجينة الأكثر حماسةً يمكن العثور عليها في ثقافات الشباب المتمحورة على الموسيقى، والرقص و(التقنيات العصبية) -التي كانت تعرف سابقاً بالمخدرات- القديمة والحديثة. (الطبيعية) وغير الطبيعية، يدعي آندرو روس (Andro Ross) أن:

"من أسلوب رقصة البوجي (boogie) الكهربائي الذي ظهر في بدايات الرقص المتكسر (breakdancing) إلى عبادة الطاقة المستنزِفة للأدمغة التقنية عالية الجودة، شكلت الأنواع الهجينة للتقنية العالية مادة حاضرة في الموسيقى الشعبية المعاصرة، فهي تتعايش بأريحية مع التقاليد الشفهية القديمة في موسيقى الضرب الخفيف (rap)، ومع الأشكال الوثنية المحدثة للمناجاة القبلية بين الهاذيين" (Ross 1994: 235).

بالنسبة لهاراوي وروس، يمثل المخلوق الهجين فرصة للخروج على حدود الجنس والنوع، على الرغم من أن -كما يشير روس- المخلوق الهجين الذي جسّده أرنولد شوارزنجر (Arnold Schwarzenegger) في الجزء الأول من فيلم (المبيد) يقدم أساسات ضئيلة للتفاؤل إذا نظرنا إلى ذكوريته العنيفة المبالغ فيها.

يُظهر مثال (الفأر الأورامي) (oncomouse) -وهي نوعية مسجلة بين الفئران ينمو لديها بشكل تلقائي أورام سرطانية، وبذلك تحظى بقيمة عالية في أبحاث السرطان- بوضوح أن التقنيات الحيوية للمخلوق الهجين تنتهك الحدود الحيوانية/ التقنية، تماماً مثلما تفعل بالحدود الإنسانية/ التقنية، ومع ذلك فان (العداء الشفرة) خفّض مثلث فيليب ديك يشمل المصطلحين

السالفين فقط. تركيز شابيرو (Shapiro) على المخلوق الهجين وليس على جبهة الحيوان يبدو أنه يعزز استثناء الفيلم للحيوان، وهي خطوة يدعي جهان هوتشمان (Jhan Hochman) أنها تتكرر أيضاً في فيلم (صمت الحملان) (The Silence of Lambs. 1991). في سلسلة من الصلات الترابطية الواهنة تقريباً، يصف هوتشمان شخوص الفيلم وفقاً لـ "مؤلف يصور البشر على شكل حيوانات": فهنيبال[1] لكتر (Hannibal Lecter) ليس آكل للحوم البشر فقط، ولكنه مرتبط اسماً بالسيطرة على الحيوانات، بينما رُبط القاتل بافلو[2] بيل (Buffal'o Bill) بوضوح بالصيد والسلخ بلا رحمة. في حين رُبطت العديد من الشخصيات الأنثوية بالطيور، كما اسم عائلة المحققة كلاريس ستارلنغ[3] (Clarice Starling) والضحية كاترين مارتن[4] (Catherine Martin). وعلى الرغم من نثر هوتشمان الذي ينضوي على غضب ساخط، وتوتر يكتنف حججه التي يقدمها أحياناً، فإنه يقدم تحليلاً رائعاً ومدهشاً عن دور الحملان في الفيلم. في مشهد محوري، يقتطف هينبال لكتر من المحققة كلاريس ستارلنغ قصة حادثة مؤلمة في الطفولة، حاولت خلالها كلاريس أن تنقذ حملاً من الذبح في مزرعة عمها. فيؤكد هوتشمان:

«كبرت كلاريس: وتقبلت قتل الحملان... ولكن ليس الصراخ الذي ربطه بعضهم بجانب تكوينها العاطفي، والطفولي، المتأنث. الصراخ داخل رأسها يجب أن يتوقف. تحاول ذلك من خلال استعارة -الحملان المسيحية والنساء بحاجة- إلى الحملان الصارخة. إذا أنقذت كاثرين مارتن، يمكن لكلاريس أيضاً أن تنقذ نفسها» (Hochman 1998: 39).

مغادرةً منزل القاتل (بافلو بيل) تقريباً في نهاية الفيلم، تحمل كلاريس الكلب كثيف الشعر الذي يشبه الحمل بين ذراعيها، وتؤكد بعد ذلك لهنيبال أن الحملان توقفوا عن الصراخ. ولكن كما يذكرنا هوتشمان، هذه حملان من الذاكرة قدرهم أن يحلو محل الحملان الحقيقية، نَسْخٌ يزيل موضوع القسوة على الحيوان الذي يكشفه عنوان الفيلم بطريقة غير متعمدة.

يشارك النقد البيئوي إذاً النقد التحرري، ونقد المخلوقات الهجينة الاهتمام الدائم والمستدام في ذاتية اللاإنسان، وفي مشكلة الحدود المزعجة بين الإنسان وبقية المخلوقات الأخرى. فجميع الخطابات النقدية الثلاثة تدعو لمواجهة مع متع وقلاقل ظرف ما بعد – إنساني محتمل.

---

1 قائد جيش قرطاجة في حربها ضد الرومان (247- 180 ق.م).

2 جاموس.

3 تعني زرزور.

4 السنونو.

مع ذلك، أصبحت الحيوانات ونتاجاتها مؤخراً محط طيف واسع جديد من الاهتمامات. نتيجةً لظهور (مرض جنون البقر) (BSE)، والتفشي الهائل لمرض الحمى القلاعية في المملكة المتحدة في عام 2001، أصبحت الدلالات والأقاصيص التي تتناول الحيوانات مهدّدةً. بوضوح تام، فقد أضر الحرق الهائل ودفن الماشية المذبوحة بفداحة بالصورة الرعوية للزراعة الحديثة. زيادة على ذلك- كما يدلل ريتشارد كيردج- فإن أزمة مرض جنون البقر بدت أنها تضلل القصص التقليدية التي تتناول الكارثة، والفضل يعود للشكوك العلمية المتضمنة. ذلك أن من غير المحتمل وجود ذروة مثيرة متضمَّنة في قصة مطمئنَّة للحل. لم يكن التحذير الذي طرحته الشكوى المستمرة، ولا حماس القصص الرؤيوية المثيرة للمواجهة مناسباً. ذلك أن المستهلكين قد جوبهوا بتهديد يمكن أن يكون حاضراً منذ زمن طويل قبل امتلاك أي شخص القوة أو المعرفة اللازمة لمنعه. يمكن للخطر الصحي أن يؤثر إمَّا على عدد صغير من الناس أو -افتراضياً- على الناس كافةً. لذا كما يقول (كيردج): «القصة المثيرة تهيجنا ولكن بعد ذلك تحجب عنا ذروتها» (1999:118).

إذا كان العامل المعدي المفترض مثالاً على اللاحتمية، فإنّ أصله المحتمل ينشأ من تقديم أغذية ترتكز على منتوجات الأغنام الملوثة بمرض سكريبي العصبي (scrapie). -وهو مرض طبيعي عند الأغنام- ينتقل للماشية على شكل كريَّات طعام صغيرة مصنعة مجهولة، تمثل الجانب الشرير لعبور حدود المخلوق الهجين. إضافة لذلك ظهرت الجراثيم الممرِّضة التي كانت تقبع في منتجات البقر خفيةً لتكون حاضرة في كل مكان بشكل مخيف. يبدو نثر كيردج ذاته مصاب بعدوى فزع يأخذ الأنفاس في وجه أحد أخطار ما بعد الحداثة الهائلة التي نوقشت في مقدمتي:

«في صوره الخيالية، يواجه مرض جنون البقر العامة بمشاهد جثث- جثث حيوانات- يتم إذابتها وتتفجر عن جوانبها وتغلي حتى تصبح مركّزاً يتشتت في ما بعد بشكل لا يمكن احتواؤه. بدا ذوبان الجثث ابتداءً أنه عملية طيّعة بلا رحمة، ولكن بعد ذلك، تتكشف فكرة السيطرة هذه عمليةً مستعصية، لا يمكن احتواؤها. ذلك أن ما يتشتت يستعصي على الاحتواء، ويبدو حاضراً في كل مكان: تبين أن مشتقات البقر تدخل في مكونات البسكويت، واللبن، والأدوية، والبوظة. بدا أن المني، والشحم، والجلاتين- المشتقات البقرية الثلاثة التي منع تصديرها المجتمع الأوروبي إضافة إلى منع تصدير اللحم ذاته- أنها ترمز للحياة بعد الموت التي لا تحتوي الجسد، بعد انزهاق النفس. وفي مواجهة هذا التشتت، كانت القرارات الاختيارية للنفس الإنسانية الموحدة القديمة الخيرة- مجرد قرارات بعدم أكل هذه المواد- خلت من القوة. كما كانت القصص تعطي الأولوية لتلك النفس» (Kerridge 1999: 120).

يمكن للتهديد الأكبر للأفكار المسلّمة عن النفس، والطبيعة والثقافة (قصص مرض جنون البقر) التي تروى بطريقة غافلة أن يجبرنا أن تطور البدائل -كما يقترح كيردج- للطرائق المترف بها لعرض واحتواء الأزمة البيئية. يمكن لهذه أن تتدبر اللاحتمية، والمقياس الزمني الطويل، والمشاكل المعقدة للوكالة، والمسؤولية، ومشكلة ما بعد الحداثة المتمثلة في خطر المخلوق الهجين غير المرئي وغير المعدود.

الحيوانات البرية والتنوع الأحيائي

WILD ANIMALS AND BIODIVERSITY

يحاول النقد التحرري نمطياً أن يقوّض الفواصل الأخلاقية، والقانونية بين البشر وبين الحيوانات، إلا أنه يسلّم بالفرق بين الحيوانات البرية والأليفة. نادراً ما نُدعى لمنع معاناة الحيوانات البرية، لأن مسؤوليتنا الأخلاقية تنحصر مبدئياً بالحيوانات التي نستخدمها للغذاء، والنقل والمرافقة. فبين حين يعتمد النقاد البيئويون أيضاً على التمييز، إلا أنهم يميلون نحو تبجيل الحيوانات البرية في حين يعاملون الماشية الأغنام والقطط أنهم شركاء مدمرون للثقافة الإنسانية.

دللنا في مرحلة مبكرة، أن القصص البرية تعمل على نشر تمييز طبقيّ أساسه الجنس بين الحيوانات البرية والأليفة، فتُربط الحيوانات البرية بالحرية الذكورية، وعادة الافتراس، بينما شوّهت الحيوانات الأليفة بوصفها خدماً أنثويين للنهب الإنساني. يظهر بارني نيلسون (Barney Nelson) أن ماري اوستن (Mary Austin) قد شككت في نظام الارتباطات والفروقات هذا بأكمله: "إنها تلمس البرية والألفة في الجنسين على حد سواء، تماماً كما نجد الحيوانات البرية أليفة جداً، وتجد الحيوانات الأليفة برية جداً" (Nelson 2000: 132). إذ إنها تدلل بشكل مقنع أن الفكرة المدينية عن التدجين (domestication) بالكاد تصف عدداً من المواشي والدواجن مع إيحاءات الانقياد، والغباء، وقلة الاستقلالية. في حين تشكل الدببة المحمية، وأسود الجبل التي أَلِفَتْ البشر مشكلة حالية معقدة في كثير من المناطق (البرية) في أمريكا الشمالية. كما وتنتقل الكلاب والقطط -في أجزاء متعددة من العالم- بحرية، جيئة وذهاباً عبر التقسيم المفاهيمي، مقترحةً أن تحليلاً مفصلاً عن الوحشية (ferality) فهماً نظرياً وممارسة عملية، يمكن أن يكون مواتياً للنقد البيئوي. يستشهد نيلسون بدلائل آثارية قديمة تثبت أن بعض الحيوانات- من مثل الغزال والغنمة المغربية[1] – قد روّضوا ومن ثم أعيدوا إلى البرية مجدداً.

---

1 لا ذَنَبَ لها.

نعبُر حيوانات الحديقة الحدود نفسها بوصفها حيوانات ضارية. وكما يظهر بيرجر (Berger)، فإنهم مواضع للنظرة الاستبدادية التي نلقي بها على الحيوانات البرية التي من خلالها يتناسب بعدنا الاغترابي مع قوتنا. يدعي التحرريون أن الاحتجاز بالحديقة تصرف وحشي- وقد يكون هذا صحيحاً في بعض الحالات- إلا أن المنظور النقد - بيئوي يصب جل اهتمامه على سياسات التمثيل التي توحي بها تجربة حدائق الحيوان. يعدّ قراءة (حدائق الحيوان) (Reading Zoos، 1998) لراندي مالامود (Randy Malamud) تحليلاً مستقصياً لقصص حدائق الحيوان، وبشكل أساسي في الأدب الإنجليزي، وقد سعى الكتاب لتبيان أن حدائق الحيوانات، قد شوّهت إدراكنا للحيوانات إلى جانب كونها مشاهد للقوة الاستبدادية أو الاستعمارية الجديدة:

«بالطريقة نفسها التي صممت بها حديقة حيوانات لندن في القرن التاسع عشر: لجعل الزوار فخورين بالانخراط بالعمل لمصلحة الآخرين في بسالة ثقافتهم الاستبدادية، فإن حدائق الحيوانات في يومنا هذا تُسوّقَ لتطري على نحو متملق أدوار المشاهدين أعضاء فاعلين في مجتمع استهلاكي وافر متألق» (Malamud 1998: 91-2).

هذا الدور المطرد قد تأثر تأثراً طفيفاً بالمحاولات الأخيرة لحدائق الحيوان فقط، لتسويق ما يسميه مالمود (النشاط البيئوي المريح) لبرامج توالد الحيوانات المأسورة، لحماية أنواع معرضة لخطر الانقراض. فقد أكتشف أن الكثير من الكتاب قد تنبؤوا وواجهوا فرضيات الهيمنة، التي تكمن وراء حدائق الحيوانات، وبذلك يعد عرضه قيماً لتصويره الحس العام بعدم الارتياح الذي يكتنف مصلحة، وسياسات الحيوانات البرية في الأسر. وعلى الرغم من ذلك، يغدو مالمود أقل إقناعاً عندما تقوده إداناته التحررية إلى نبذ عام للاحتماليات التعليمية، والعلمية، والحفظية لحدائق الحيوان.

بالنسبة لمعظم القراء المعاصرين، ليست حدائق الحيوان هي ما تشكل مفاهيمهم عن الحيوانات البرية. إنما البرامج أو الأفلام الوثائقية التي تتناول الحياة البرية. ربما تكون المقالات النقدية المتابعة للطريقة التي من خلالها تشكل هذه النتاجات أفكارنا، هي الطريقة الأكثر أهمية التي نتمكن من خلالها تعزيز وعينا النقدي البيئوي خارج حقول الأدب. ليس هناك من شك أن أفلام الحياة البرية والبرامج الوثائقية التي تتناولها، قد قدمت إسهامات مهمة للحملات البيئية: فلِـ "زعنفة (الحوت) (flipper، 1993) الفضل في خلق جمهور من المعجبين الشباب بالدولفين الذين- مثل البالغين- شاركوا في مقاطعة التونا، التي حولت ممارسات الصيد القاتلة

للثديات البحرية. في الوقت نفسه، يدعي النقاد أن برامج الطبيعة يمكن أن تسيء تقديم أهدافها بطرائق عدة، مستبدلة الخطأ بالجهل، لاسيما، أن الطريقة التي تُبنى فيها وجهة نظر المشاهد عن الحياة البرية يمكن أن تكون إشكالية للغاية، تضيّق خبرتنا عن الطبيعة من الإحساس الكامل بها، والانخراط الذهني والسياسي معها، إلى علاقة مرئية محضة، شُوّهت بشكل كبير بفعل المبالغة بالتأكيد على العنف والجنس. فبرامج الطبيعة- بعبارة أخرى- يمكن أن تكون أفضل بقليل من (أفلام الإباحة) البيئوية.

لم يُكتب كتابٌ، للآن يعالج الموضوع باستفاضة تامة، إلا أن الكساندر ويلسون (Alexander Wilson) وديفيد انجرام (DaVid Ingram) قد قدموا سجلات تاريخية مختصرة للبرامج والأفلام الوثائقية متناوبين. فالبرامج الوثائقية الأولى التي قدمتها ديزني تعدُّ مصدراً لسوء التمثيل المرعب، والتجسيم الوجداني، والتزييف الكامل. كما كانت الحالة عندما أُسرت قوارض اللاموس البُنّي بأعداد كبيرة، ثمّ قيدت إلى حافة جرف لإظهار هجراتهم (الانتحارية) الشاملة. في الواقع، إن قوارض اللاموس النرويجية هي مَن تهاجر عادة بهذه الطريقة، ومن غير المعقول أن تقفز عن الجرف ما لم تُجبر على ذلك من جانب يد طاقم الفيلم. الأمثلة التي ينتقدها ويلسون عادة ما تتضمن استخدام الحياة البرية لتقوية الأنماط الاجتماعية، من مثل: الزواج من زوجة واحدة فقط، والعمل الجاد، كما في أفلام (ريف الدببة) و(وادي القندس) التي ظهرت في خمسينيات القرن العشرين. تدين هذه الأفلام بعمق إلى التراثات الرعوية، ولكن تعتمد أيضاً على الأدوات الأسلوبية للرسوم المتحركة التي تقدمها ديزني كما في تحليل ويلسون. (النقوش الموجزة الأوركسترية للإيقاعات المتناسقة) على سبيل المثال: «قرقرات الطين، ونقيق الضفادع، وتفتح البراعم. تعتلي طيور الغطّاس خشبات مسارح المهرجانات، وتؤدي طيور البجع رقصات البالية الكلاسيكية. إنه لشيء ساحر، يترنم العالم ويضع ألحان الرقص الإنسانية، والموسيقى الأوركسترية المتوسطة الثقافة» (Wilson 1992: 129). يرسم ويلسون خارطة التحول (من الرعوية إلى العلمية) من هذه الجهود المبكرة من ثمانينات القرن العشرين، بدأت القيم البيئية بهز فكرة التجسيم. فطالبت الجماهير بمعلومات اكثر دقة، مقرونة بدرجة من الدعم للمحميات. وعلى الرغم من ذلك، ينزح الطلب على المشهد نحو التحول إلى الاهتمام الكلي بالافتراس، الذي عادة ما تعززه الموسيقى المثيرة والعرض بالحركة البطيئة، والأحداث المحررة بسرعة التي يتوقعها الجمهور من فيلم إثارة. خلقت الرغبة بالإعلام والتسلية النوع ذاته من الصراعات التي وجدها ويلسون في إنتاج قناة الجغرافيا الوطنية (National Geographic)

(الذئب الأبيض) (1989). إذ يشير أن الرسالة الشفوية الظاهرة، والمعنى المضمر لتعاقب الأحداث بعهدان البعد كله عن التكامل، فـ «يخمّن العالم الحيوي عن لغة الذئب، وتربية الطفل، ولعبه، وأمانه وإطعامه، لكن «توتر العرض كان توتراً درامياً، متمحوراً حول حلقة صيد محرّرة وليس حول الأفكار التي وضعها العالم الحيوي». من وجهة نظر (ويلسون)، تقتطع تركيبة الفيلم النص» (Wilson 1992: 141). وبشكل مشابه، تحمل البرامج الوثائقية عادة رسالة الحماية التي تفيد أنَّ حيواناً ما نادر، ولكن تصور بعد ذلك أعداداً ضخمة منه. لا تسهم الحيوانات الغائبة في المشاهدة المثيرة.

الموقع المفضل لأفلام الحياة البرية الثقافية هو السافانا الأفريقية التي تتمتع بـ (عدد هائل من الحيوانات الفاتنة)، من مثل: الفيلة والزرافات، فتحل آلة التصوير أحياناً محل الشكل الاستعماري للعبة الصيد عند البيض. على الرغم من حقيقة تعايش الأفارقة مع هذه الأنواع منذ تطور جنسنا البشري هناك، فقد استُبعد البشر كلياً من المشهد، أو قُدموا ضمن أحد دورين: مدمرين أو منقذين. يُصوَّر الصياديون السود في أغلب المشاهد أنهم ببساطة (المنتهكون) الشيطانيون، بينما يمجّد الحماة البيض، ويتم تجاهل العوامل الاقتصادية والسياسية المعقدة، المتضمنة في السطو على الحيوانات، وإدارة اللعبة. يمتدح ويلسون بعض الأفلام المنتجة، مثل عمل مؤسسة الإذاعة الكندية الطويل (طبيعة الأشياء) (the nature of things)، الذي يحاول أن يمزج بين دعم الحماة، والتعليق الاجتماعي، والتاريخ، والعلوم الطبيعية، والبرامج الأنثروبولوجية مثل (الألفية: الحكمة القبلية والعالم الحديث) (1992)، الذي يسبر التداخلات الإبداعية المدمرة للثقافات الإنسانية والطبيعة.

في ثمانينات القرن العشرين، عندما كانت الأفلام الوثائقية تسعى لتغيير المفاهيم بواسطة تقارير أكثر مسؤولية وأشد دقة، كانت هوليود -على الرغم من ذلك- تنتج أفلاماً استغلت وعززت من خلالها الخوف الحيواني (theriophobia)، أو الخوف من الحيوان. يدلل إنجرام أن سلسلة أفلام الفك المفترس (jaws) – على سبيل المثال- مثلت حركة ارتجاعية ضد أفكار حماة الحيوانات، التي فيها «يُسيطر على الطبيعة الشريرة المهدَّدة بالنهاية من خلال البطولة الذكورية، والتقنية، وتقديم دم الحيوان البري قرباناً» (2000:90). في الجزء الرابع من السلسلة (الفك المفترس: الانتقام) (1987)، تتعرض هموم العالم الحيوي البحري مايك برودي البيئية للسخرية القوية، عندما التهمت السمكة الهائجة زميله، فينضم للجهود الرامية لصيدها وبالمقابل تصطاده السمكة.

مثلت مقالة كارلا أرمبرستر (Karla Armbruster) (خلق العالم الذي يتوجب علينا إنقاذه)، النقاش الأنجع الدائر حول برامج الحياة البرية لغاية الآن، التي تعتمد على عمل بيرجر ويلسون على حد سواء، كي تستعرض طيفاً من النقود التي تناولت أفلام التلفزيون الوثائقية الخاصة بالطبيعة. على سبيل المثال، يشير ارمبرستر أن الفيلم الوثائقي الذي يستمر لساعة واحدة يمثل ضغطاً استثنائياً للزمان والمكان، إذ تُحرّر أسابيع من الانتظار. وساعات من التصوير لتختزل إلى مشهد موجز ساحر. بإخفاقها في ربطنا بالطبيعة، من المرجح أن هذه الأفلام تتناقض بشدة مع التجربة المباشرة. إذ «إن الخبرة المشبِعة مع العالم الطبيعي تتضمن أكثر من الاسترخاء بشكل سلبي ليتم إعلامك وتسليتك» (Armbruster 1998: 224). إذا نحينا هذا الاعتراض الجوهري جانباً، فإن مقالة ارمبرستور تنتقد أيضاً تقنيات وممارسات محددة. فالصور الرائعة لسلسلة هيئة الإذاعة البريطانية التي عرضت مؤخراً (الكوكب الأزرق) (2001)، التي تلتقط صور أنواع لا حصر لها في مواقع عديدة على طول ثمانية برامج. يمكن أن تمثّل رؤية ضيقة بشكل واضح. إذا فسرناها آخذين بعين الاعتبار نقاط التضييق فيها. بعض أشد المشاهد استثنائية هي تلك التي تتضمن افتراساً شاملاً. كما في برنامج (المحيط المفتوح) حيث تهاجم- في الوقت ذاته- أسماك المرلين الضخمة المخططة، وأسماك التونا ذات الزعنفة الصفراء، وطيور الفرقاط مجموعةً من أسماك السردين. مع وجود حوت يهرع من العمق ليبتلع الأسماك المتبقية الناجية.

ينتقد ارمبرستر ظاهرة الراوي الغائب، مدعياً أنها تشجع الشعور بعدم التطفل البريء عند المشاهد، ويدعي أنه "عن طريق التوحد مع الراوي، ومع منظور آلة التصوير التي غالباً ما تظهر أنها عين الراوي، يُفسّر المشاهد أنه كلي المعرفة وقادر على اختراق المراكز الهامة المنيعة للعالم الطبيعي" (Armbruster. 1998: 232). وكما يمكن لاستعارة الاختراق أن تبيّن، فإن خدعة الدخول غير المحظور إلى مكان غامض أو ممنوع تنتج علاقة بين الفاعل والمفعول، مشابهة تركيبياً لتلك الموجودة في أفلام الإباحة التي تستمد فيها العين / الأنا (eye/I) المتعة من خلال النظرة التطفلية التي لا يمكن لمفعولها أن يتحداها أو يردّها. يفصح (الكوكب الأزرق) عن تناقض ضمني في افتتاحيته، إذ تعترف ابتداءً أن المحيطات الواسعة ما زالت غير مستكشفة بالحد الأدنى وغامضة، ثم يعدنا بمنظور غني، وأعمق، وأقرب (لم يرَ من قبل): الراوي في هذه الحالة هو السيد ديفيد ايتنبورو (Sir daVid attenborough)، وهو بطل ثقافي وهمي في المملكة المتحدة، صوته المألوف يضفي على البرنامج حس السلطة ذات المعرفة الكلية التي تحددها أرمبرستر. على الرغم من ذلك، نادراً ما يتمكن من الظهور في البرنامج، كما ظهر في كثير من

البرامج المتمحورة حول الأرض، وقد نطق هو نفسه ببعض الانتقادات التي أخذتها أرمبرستر على البرامج الوثائقية غير المسؤولة.

في معظم الجوانب، يعدُّ (الكوكب الأزرق)، أنموذجاً، فقد ابتدأ السلسلة بعرض سياقي لعلم تبيؤ المحيطات الذي يربط بين الريح، والمد والجزر، والتيارات، ويؤكد على تحركات المواد الغذائية، إضافةً إلى الهجرات الجماعية للأنواع. يتناقض هذا مع البرامج الوثائقية التي تعزل الأحداث أو الأنواع المفردة، مختزلةً بذلك أهمية الارتباطات والعمليات البيئوية. يتصارع السرد مع التجسيم عندما يأسر قطيع من الحيتان القاتلة جرو فقمة، ويعذبه لفترة طويلة إلى أن يموت، ويصارع ايتنبورد بشكل مكشوف ليوصِّف تصرفهم دون العمل على إدانته. مع ذلك، ينزح الفيلم الوثائقي -في الأعم الأغلب- إلى (تطبيع) منظوره. إذ يبقى الناس مع التقنية المعقدة الضرورية للحصول على الصور في الخفاء، وبذلك تدعى أرمبرستر. انهيار المؤازرة البيئية. تُثني أرمبرستر على البرامج الوثائقية التي تعترف أنها إيضاحات خاصة، وجزئية عن الطبيعة، لا تُظهر نفسها حقيقة بلا وساطة، أو مباشرة، وتنتقد آرمبرستر «الإدخال المتصل لِ (الوقائع التقنية)» من مثل: «الممرات التي تصور بالحركة البطيئة، وتغيير وجهة النظر مثل: التحول عن اللقطة القريبة لقيّوط يصطاد ابن عرس، إلى منظور أوسع يتضمن الاثنين، وأخذ لقطات لمواقع يصعب الوصول إليها مثل: عش للنمل الأبيض» (Armbruster, 1998:231). وفي حالة (الكوكب الأزرق)، تبدو بعض هذه الأحداث، من مثل استخدام مكثفات الصورة في الليل، واضحة بما يكفي، ولا يستطيع برنامج (العميق) إلا أن يعرض ما هو قابل للعمل تحت الماء، إلا أن معظمهم كان متصلاً. إنَّ العرض بالحركة البطيئة، ربما يكون أكثر تضليلاً من أثر نظيره -التصوير الموافق لانقضاء الزمن. إذ يُستخدم العرض البطيء عامة لزيادة التشويق في المشاهد الدرامية، وإضفاء المزيد من التبصر، لا يكون بوسع المشاهِد أن يلتقطه بهذه الطريقة، بينما يظهر التصوير الموافق لانقضاء الزمن العمليات التدريجية في طريقها إلى التأثير العظيم، وتكون واضحة على نحو ثابت. استفاد (البحور الفائضة) من الأخير لإظهار التغيرات التي تحدث على حافة المحيط.

أحد الهموم المفتاحية التي تنقلها برامج الحياة البرية الوثائقية، هو أن هناك بعض الأنواع أضحت مهددة بخطر الانقراض. يعتقد كثير من علماء الحياة البرية الأحيايين أننا على أعقاب مراحل حلقة انقراض كاملة لم يُر مثيلاً لها منذ هلاك الديناصورات في نهاية العصر الطباشيري قبل 65 مليون سنة. حُمّل البشر مسؤولية حلقات انقراض محلية كثيرة؛ على سبيل المثال، وصول المستوطنين البشر إلى مدغشقر، ونيوزلندا الذي تبعه انقراض العديد من أنواع الطيور العاجزة

عن الطيران. والأكثر جدلياً، أن السكان الأصليين حمّلوا مسؤولية الانقراضات التي حدثت في العصر الحجري القديم للجمال الأمريكية، والفيلة، وحيوان المدرّع العملاق، وحيوانات الكسلان التي تعيش على اليابسة وأنواع كثيرة أخرى. ويُعتقد أن مثل هذه الانقراضات التي يتسبب بها الإنسان قد تزايدت بشكل مطرد في المئتي عام الماضية، من أصل ما نسبته فقدان نوع واحد كل عام (وهو ما يساوي مائة ضعف للمعدل الخلفي الطبيعي)، عند نقطة التحوّل للقرن التاسع عشر، كانت الانقراضات كبيرة: نتيجة للتدمير الممتد للغابات المطيرة الاستوائية الغنية أحيائياً والحيود المرجانية (Coral Reefs). يناقش نورمان مايرز (Norman Myers) في عمله (القلة أم الوفرة) مع الوفري جوليان سيمون (Julian Simon) تقديرات تفيد أننا يمكن أن نفقد 27.000 نوعاً كل عام، إلا أنه يشك -مع حسبة أكثر دقة- أن الحصيلة السنوية يمكن أن تصل "لأكثر من ذلك بكثير" (Myers and Simon. 1994: 76).

يمثّل عمل ديفيد كوامان (DaVid Quammen) (أغنية طائر الدودو) (1996) الاختبار الميّسر لعلوم الانقراض، الذي يظهر كيف، ولمَ تبدو بيئوات الجزر ضعيفة بشكل خاص، في مواجهة التأثيرات التي يخلفها البشر. وكما وجد الفرد واليس وتشارلز داروين في رحلاتهم المهمة عبر الحقول إلى الأرخبيل الملاوي وجزر غالاباجوس على التناوب، فإن الترقي يعمل بشكل واضح جداً في الانعزال الأحيائي الذي تقدمه الجزر. وقد وصلا كلّ على حدة إلى النتيجة ذاتها: أن سلفاً وحيداً لنوع وصل أو أضحى منعزلاً على الجزيرة في الماضي، يمكن أن يتطور بفعل الانتخاب الطبيعي إلى تشكيلة من الأنواع المختلفة، وتعرف هذه العملية لعلماء التبيؤ في العصر الحديث باسم (الإشعاع التكييفي) (adoption radiation). وكما يظهر كوامان فإن تبيئوات الجزر قد سببت طيفاً هائلاً من الأنواع الشاذة، من مثل: كناغر نيوجيني متسلقة الأشجار، والسلحفاة العملاقة أو (تنين) كومودو (1996:138-137). تمثّل الطيور تجمع الأنواع العديدة، وندرة الأفراد الموجودة على الجزر، مثل: نيوزلندا، وطن طائر الكيوي، والببغاء العاجزة عن الطيران المسماة الكاكاب (kakapo)، وببغاوات تكاهي، والكاي، الضخمة العاجزة عن الطيران، والببغاء آكل اللحم. يعدُّ طائر الدود (Raphus Cucullatus) من موريشيوس طائر الجزيرة العاجز عن الطيران الأكثر شهرة وذيوعاً. إنه قيد الانقراض بفعل النشاطات الإنسانية في العصر الحديث. يبين كوامان أن ندرة مثل هذا النوع قد تفاقمت بفعل صيده، وتخريب مواطنه، والمنافسة من قِبَل أنواع دخيلة مثل الماعز والخنازير، وافتراسه على يد غرباء مثل الجرذان، والنموس والقطط. فقد خفّضت هذه العوامل (الحتمية) أعداد هذا الحيوان إلى نقطة أضحى معها ضعيفاً بشكل

استثنائي أمام عوامل جزافية أو (عشوائية) (Stochastic)، مثل أحداث الطقس الكارثية، والتباين الطبيعي في معدلات الولادة والوفاة، والتوالد دون تهجين (inbreeding). في سلسلة من دراسات الحالة المفصلة، يظهر كوامان كم توسعت انقراضات حيوانات الجزر مؤخراً. ويدلل أن تدمير المواطن يجبر الآن أيضاً أنواع الجزيرة إلى أنظمة بيئوية مستمرة بالتضاءل، هي عملياً (جزر). من بين 171 نوعاً أو نوعاً ثانوياً من الطيور المنقرضة المحسوبة منذ 1600، كانت ما نسبته (90%) منها من الجزر، على الرغم من أن هذه الأنواع تشكل ما نسبته 20% فقط من إجمالي عدد أنواع الطيور (Quammen 1996: 264). يتخيل كوامان موت آخر طائر دودو بلحظية مؤثرة:

"كان طائر الدودو قد أصبح مخلخلاً عند الوفاة، إلا أن هذا الفرد بلحمه ودمه كان وما يزال ينبض بالحياة. تخيّل أنَّ عمرها كان ثلاثين عاماً، أو خمسة وثلاثين، عمر كبير لمعظم أنواع الطيور الأخرى، ولكن ليس مستحيلاً لعضو من هذه النوعية ذات الأحجام الكبيرة. لم تعد قادرة على الركض، كانت تترنحّ. ذلك كانت تفقد بصرها تدريجياً. كان جهازها الهضمي حرون. في ظلمة صباح باكر من عام 1967 –قل- خلال عاصفة مطرية، لجأت للاحتماء تحت حافة حجرية باردة عند قاعدة إحدى جروف النهر الأسود. دلدلت رأسها للأسفل على جسدها، ونفشت ريشها لتشعر بالدفء. أغمضت عينيها وسكنت في بؤس صبور. انتظرت. لم تكن تعلم. ولم يكن يعلمه أحد آخر، لكنها كانت طائر الدودو الوحيد على وجه الأرض. عندما مرت العاصفة، لم تفتح عينيها قط، هذا هو الانقراض" (1996:275).

موت فرد هو موت لنوعه أيضاً. تنتقل مرثية كوامان إذاً بشكل مضطرب بين الرثاء الرائع، وبين الشروحات البيئوية التي تضم قوائم الأنواع المفقودة، ممثلةً بذلك مشكلة تمثيل الغياب على مثل هذا الميزان. يشتمل السرد على تحليل علمي وقصص عبرية صغيرة من تاريخ علم التبيؤ من خلال قصة الرحلة، التي يشتغل كوامان فيها شاهد عيان متجوّل على الانقراض -الماضي أو الوشيك- للأنواع، ويمثل كذلك الجهود البطولية للحفاظ على القليل منها.

تمثل رواية جوليا ليه (Julia Leigh) الصياد (The hunter, 2000) الانقراض بشكل مختلف كثيراً. حيث يسافر البطل المجهول إلى تسمانيا [ولاية في الكومنولث الأسترالي] مظهراً أنه من جمعية المحافظة على الحيوانات من أجل تعقب آخر نمر تاسماني (thylacine)، وذئب جرابي، يُعتقد أنهما قد انقرضا، لكن ما زال يرد تقارير عن وجودهم بين الفينة والأخرى (انظر أيضا Quammen 1996:279-306). مهمته قتل الحيوان خفيةً، وجمع عينات لشركة

تقنية أحيائية تنوي الإفادة من حمضه النووي، في تطوير أسلحة بيولوجية. أحد إنجازات له الرئيسية هو ربطه المقبول بين البيان الذي يتناول القرب من الطبيعة مع هذا الإفلاس الأخلاقي الفردي. هناك بين الشجيرات، يسمى البطل للتوحد الكامل مع المخلوق إلى جانب فهم بيئته كاملة، كما في هذا المشهد الذي يحدث فيه نوع من التحول الشاماني:

"مستلقياً هناك على الأرض القاسية داخل خيمته، بدأ بتأدية خدعته المفضلة: فهو يغيّر الشكل، ويبتلع الوحش. لم تعد العينان في رأسه ملكاً له، نما فرو قصير كثيف خلف رقبته، وأضحى عموده الفقري أصلب وأقوى تماماً خارج ظهره، خارجاً على شكل ذيل طويل جامد. أرجع جسده خلف هذا العمود الفقري القوي، كوَّ بطنه للخارج، كمش أطرافه الطويلة الرفيعة. ذراعه مطوية تحت إبطه، ومخلباً –ليس يداً– كان ملقىً على قفصه الصدري المحدّب. يخلد للنوم ويأمل أن يحلم" (Leigh 2000: 91).

يفلح بحث الصياد في النهاية، فقد كان تشريحه للنمر التاسماني الأخير كاملاً وفاعلاً، وإن لم يخلُ من لمحة من الضعف. يقارن ريتشارد كيردج هذا المشهد المفرق بالإحباط بتصوير كوامان للانقراض، مبيناً أنه في حين أن الندم يظهر من خلال غيابه المؤلم فقط في رواية ليه، لم تعد حتمية النتيجة محل تشكيك هناك، عمّا هي في القصة الرثائية التي تروي وفاة طائر الدودو. يشير أن "بنى العقدة المتعارف عليها تتطلب وجود أشكال للحل والقفل، التي تبدو تملصية على نحو سخيف عندما تطبّق على الأسئلة البيئوية في حدودها القصوى للمقياس الزمني، وتعقيدات الاتكال المتبادل" (2002:99). لا تتضمن الكتابة عن الانقراض مشكلة تمثيل الغياب ببساطة، بل تتضمن أيضاً صعوبة سرد أزمات شاملة مستمرة، ضمن أشكال تضفي صفة الفردية بشكل جوهري مثل قصة الرحلة والرواية.

تعلّقت تمثيلات الحيوانات التي نوقشت للآن بشكل كامل بالأفراد أو –على الأغلب– بالأنواع، على نحو مماثل، تمركز كثير من النشاط الحمائي في الماضي على دب الباندا –أو قل– الحيتان، مع أطر ناظمة تتراوح بين الإجراءات الدُولية المبكرة لحماية الفقمات ذوات الفرو (1911) وصولاً إلى الاتفاقية الدولية للإتجار بالأنواع المهددة بالانقراض المعروفة اختصاراً (CITES، 1973) التي تتضمن قائمة بالأنواع الممنوعة أو المراقبة. مع ذلك، ظهر في أواخر ثمانينات القرن العشرين خطاب علمي وسياسي جديد، سعى لتكامل مستويات متنوعة من الهم البيئي وفق إطار عالمي جامع. فقد صنّفت اتفاقية التنوع الأحيائي –التي صودق عليها في قمة ريو للأرض (Rio Earth Summit) التي نظمتها الأمم المتحدة في عام 1992– فهماً جديداً

لخطر الانقراض، تحوّل من نموذج الحماية المرتكزة على النوع، إلى مفهوم (التنوع الأحيائي).
يدلل ستيفين يرلي (Stephan Yearly) أن هنالك ثلاثة مستويات للتنوع الأحيائي:
"تنوع بين وضمن الأنظمة البيئوية، والمواطن؛ وتنوع الأنواع؛ والاختلاف الجيني داخل النوع" (121-122:1996). ويهدف هذا المنظور البيئوي المفرق، أو الموجه نظامياً، لإعادة تأطير قضايا الحماية المحلية وفقاً لتنوع الأحيائي العالمي. مع ذلك، كما تظهر رواية ليه، ينظر للتنوع الجيني بشكل متزايد أنه مصدر لشركات التقنية الأحيائية، إضافة إلى كونه موضوع الحماية الشاملة المحتملة. يتكثف الخطاب (العالمي) عن التنوع الإحيائي بشكل كبير: نظراً لعلاقاته المعقدة والانفجارية سياسياً مع العولمة الاقتصادية والثقافية. ويسعى كثير من حماة البيئة من الدول الغنية لحماية التنوع الأحيائي من السكان المحليين (الصيادون المنتهكون، والخشابون غير القانونيين)، والشركات العابرة للحدود على حد سواء. في الوقت ذاته، يرى معلقون من دول العالم الثالث الغنية بيئوياً-مثل فاندانا شيفا (Vandana Shiva) في مثل هذه الحركة البيئية استعماراً جديداً، ويشككون بالتحالف غير الشريف بين التبيؤ، وبين التقنية الأحيائية. كما تلاحظ سوزان بيجز (Suzanne Biggs):

"الإفصاح عن لغة التنوع الأحيائي الجديدة هذه جاء مصاحباً للتقنيات الأحيائية الجديدة التي تتمكن من عزل الجينات من كائن حي، ومعالجتها في المختبر وادخالهما بشكل متوازن في كائن حي آخر. لم تعد الطبيعة عملية مثبتة بالمكان والزمان، تعبر عن نفسها في أنواع حية طبيعية، من خلال عملية التطور التي تجري عبر الزمان، في ظل نظم بيئوية محددة مكانياً. يمكن أن لا تكون الأجزاء المكونة للطبيعة مثبتة، ويبدو أن علاقاتها بالمكان والزمان أقرب إلى الانهزام ... فثمة ارتباط حميمي بين التنوع الأحيائي والتقنية الأحيائية" (120-121:1998).

إذاً، يتمم شكل المخلوق الهجين شكل الكائن الحي المهندس جينياً المعروف اختصاراً (GEO) ضمن هيكل إسناد معولم جديد. يتوجب على النقد التحرري-الذي كان مهتماً بحقوق الحيوانات الأليفة الفردية- أن يتعامل مع ظهور الأشكال الحدية مثل المخلوق الهجين والحيوان الضاري. ويتوجب على النقد البيئوي بشكل مشابه أن يقبل الكائنات الحية المُهندسة جينياً، ويقبل التنوع الأحيائي العالمي، إلى جانب قبول الأنواع الفردية. من منظور عالمي، يمكن تصوّر (مستقبل مشترك) موسّع إلى جانب توقع (القرصنة الأحيائية) العالمية. إذاً، شكل الأرض ذاته هو من يستدعي الاهتمام في خاتمة هذا الكتاب.

الفصل الثامن

مستقبليات: الأرض

FUTURES: THE EARTH

يختتم جوناثان بيت (Jonathan Bate) (أغنية الأرض) بقصيدة واليس ستيفانز (Wallace Stevens) المسماة (الكواكب على الطاولة) مناشداً القارئ بقوله:

«إبّانَ قراءتك للقصيدة. أبقِ في ذهنك صورة الأرض المأخوذة من الفضاء: خضراء أو زرقاء. ضبابية بفعل حركة الغيوم ... صغيرة جداً في الكنف الحالك لدرجة تتخيل أنه بوسعك قبضها براحتيك. كوكب هش. كوكب نحن جزء منه ولكنا لا نملكه» (282:2000).

كما يشير ستيفن بيرلي. «لقد استخدم التصوير الفوتوغرافي للكرة الأرضية المرئية من مركبة فضائية سيّارة تكراراً. لاستحضار الأرض المعزولة في الفضاء -هشاشتها وأعجوبتها- وإيقاظ الإحساس أنّ الكائنات الحية التي تعيش عليها تتشارك بفضاء حياتي محدد محاط بفضاء عدائيٍّ» (1996:65). يسلّم المحلل الإعلامي جون هاينجان (John Hannigan) -مثل بيت- بدلالة صورة الأرض أثناء تقديمه دليلاً أن "رسالة القرن الوحيدة البيئية الأكثر فاعلية كانت غير مقصودة إجمالاً: المنظر الملتقط من القمر في عام 1969 لـ (الأرض سفينة الفضاء) الهشة المتناهية" (1995:62). تبدو هذه الصورة قادرة شيئاً ما- دون تعليق أو تصميم- على إيصال رسالة قوية بلا شك.

لا يدعم تاريخ صورة الأرض -مع ذلك- فكرة أن لها معنى واحداً. لا سيما إذا كررنا تجربة بيت. فيتوجب علينا الاعتراف أن العمل التخييلي نفسه يمكن أن يلتقط الأرض، إما مجموعاً هشاً

(نحن جزء منه لكننا لا نملكه)، أو نظاماً أحهائياً لإنتاج ثروة غير نقدية لا محدودة. قُدّم له إدارة عقلانية كاملة، وأن كلا الإصباغين يمكن أن يدعي -لحد لا بأس به- أنه بيئوي. في الواقع، عُرض مفهوم (الأرض سفينة الفضاء) ابتداءً على لسان المصمم، والمخترع، وعالم الكونيات. بكمنستر فولر (R. Buckminster Fuller, 1895-1983)، الذي عدّ صورة الأرض شكلاً لاحتمالية الإدارة الكاملة الوفرية للكوكب في مصالح البشر (انظر فولر: 1969).

يحصي اندرو روس (Andrew Ross) -أحد النقاد البيئويين الذين يشتغلون على الثقافة العامة وليس الثقافة الأدبية- صور الأرض التي التقطها رواد فضاء محطة أبولو ضمن (صوره عن التبيؤ):

«في السنوات الأخيرة، اعتدنا على رؤية صورة لكوكب يحتضر، معروضة بأوضاع رهيبة متنوعة تصوّر الاستنزاف البيئوي، ويتم تداولها بين قطاعات صناعة الصور كافة، وغالباً في مواقع محجوزة لاستغلال ثمن فظاعات الإبادة الجماعية. فرسومات الصورة البيئية القياسية معروفة لنا جميعاً: من جهة، صور المداخن المتجشئة، والطيور البحرية تغوص في الوحل البتروكيماوي، وأسماك تطفو مبطونة منتفخة، والاختناقات المرورية في لوس أنجلوس ومدينة المكسيك، وغابات جرداء؛ ومن جهة أخرى، صور المخزون الرعوي المخلّص، وصور الأرض البكر -الخضراء- التي لم يفسدها الإعمار السكاني، يتوّجها المشهد العالمي المطلق للكرة الهشة الفضة للأرض سفينة فضاء من جهة ثانية» (Ross, 1994: 171).

يبدو أننا نعود إلى الرعوية هنا على النطاق الكوني تقريباً. وعلى الرغم من ذلك وكما يوضح روس، فمن المهم أن ندرس (تبيؤ الصور): "التنظيم الاجتماعي والصناعي للصور" و"الحجج البيئوية التي يجب أن تُساق عن هذه العمليات" (p.172). لقد دُفعت تكاليف ضخمة؛ لحيازة صور علماء الفضاء التي التقطوها للكوكب، ليس فقط من منطلق برنامج الفضاء الذي كلّف 25 بليون دولار، ولا الخمسة ملايين دولار التي تنفق على كل إطلاق لخمسة صواريخ من طراز زحل (Saturn)، ولكن -أيضاً- من مبدأ التداخلات بين برنامج أبولو، وعقدة التسليح والتصنيع التي برزت في فترة الحرب الباردة. كما يبين روس، فإن القوات المسلحة الأمريكية قد تملّصت تاريخياً من التشريع البيئي، بينما كانت تعد العدة لحروب خلّفت دماراً بيئوياً استثنائياً على أراضٍ أجنبية.

إذاً، فصورة الأرض يتنازع عليها و-جدلياً- يتم الحط من قدرها على يد المؤسسات والممارسات التي جعلت مكانتها متدنية. إنها -إلى جانب ذلك- ذات منظور زائف يسمح لنا رؤية ما رآه بالفعل حفنة من رواد الفضاء الأمريكيين فقط، (نظرة عين الله)، التي تَعدُ بنوع من

القوة المتسامية التي لا نملكها نحن أفراداً أو أنواعاً (انظر: Legler 2000: 245). وعلى الرغم من ذلك، فمن الضروري أن يُفرد النقاد البيئويون دراسات أكثر مما قدموه لغاية الآن للتحول في المعنى المهيمن لكلمة (أرض): من التربة- أساس الوجود الأكثر قرباً ومباشرة، إلى المحيط الأحيائي- سياق الحياة الأوسع. لذلك، ليس ثمة ضرورة للتفكير (على نطاق عالمي حسب)، بل يستدعي التفكير بالعالم ممارسة قرائية مسيّسة أقرب إلى علم التبيؤ الاجتماعي، والدراسات الثقافية منها إلى علم التبيؤ المتعمق، والدراسات الأدبية التقليدية. يمكن لمثل هذه الممارسة أن تمحّص المفاهيم المتشكلة حول الأرض متسلحةً بالاقتصاد، والسياسة وعلم الأحياء، إلى جانب الأدب، والتلفاز والأفلام. سيتفحّص هذا الفصل إصباغين مفتاحيين على الأرض، من أجل اقتراح مستقبليات محتملة -بعد ذلك- للنقد البيئوي، خارج نطاق المجازات الإشكالية للرعوية والبرية، والمكان والموقع. ينبثق الإصباغ الأول من الاهتمام المفتاحي للفكر الاجتماعي لحقبة ما بعد الحداثة -العولمة-، ويقدم لنا الأرض بوصفها عالماً مؤطّراً تقنياً واقتصادياً. أما الثاني فهو جايا[1] (Gaia) التي تصبغ الأرض شيئاً حياً.

الكرة الأرضية GLOBE

لم تكن صور محطة أبولو أكثر من مجرد وسيلة تمكّن الناس في أرجاء العالم كافة، من فهم شكل الأرض من خلالها. تتعزز عولمة هذا الخيال بقوة، بفعل النظائر التي تشتغل -حسب رأي ييرلي- في المالية، والاتصالات، والثقافة، والأعمال، والسياسة. فقد أظهرت المنظمات المالية الانتقالية قدرةً على نظم المصادر، أكثر من قدرة الحكومات الوطنية في مناسبات عديدة في تسعينيات القرن العشرين: "ما أن تصبح الأسواق الرأسمالية عالمية، حتى يكون قدر اقتصادات دول بأكملها فريسة لتخوفات وتخيلات المستثمرين في السوق المالي الدولي" (Yearly 1996: 4). تمكنت هذه النشاطات من الحدوث بفعل الاتصالات المرتكزة على الأقمار الصناعية، بما في ذلك الشبكة العنكبوتية، التي تزيل الحسابات التقليدية للمسافة الحسية عن الصفقات التي تتضمن تبادل المعلومات. فقد حلّت مجتمعات (افتراضية) تجمعها المصالح المشتركة، بما في ذلك الهموم البيئية، محل المجتمعات المحلية معشوقة النقاد البيوئيين المعاديين للحداثة. وتُعدُّ عولمة الثقافة سبباً، وأثراً لهذه العملية على حد سواء، إذ توفر الأيقونات الثقافية العابرة للحدود، نقاط تحادث عابرة للحدود داخل وعبر هذه المجتمعات.

---

1 إلهة الأرض عند الإغريق القدماء.

تمثّل العولمة –بالنسبة للبعض– حالة تجانس تحل فيها محل الثقافات (المحلية المشتتة) الصغيرة المنعزلة، وتروجها وتعمل على استدامتها الصناعات الثقافية العابرة للحدود المتمركزة أساساً في أمريكا الشمالية، واليابان، وأوروبا الغربية. مظهر العولمة –الذي حظي بأكبر قدر من استهداف النقاد البيئيين– هومظهر نمو الشركات نمواً مفرطاً يقلب الموازين، فاق نمو كثير من الأمم، إلى جانب امتلاكه قوة سياسية موازية. على الرغم من أن كثيراً من الصناعات بقيت مرتكزة –بالضرورة– محلياً أو وطنياً. إلا أن الحضور الطاغي للشركات المعتمدة على العلامة التجارية مثل: شركات نايك (Nike)، وكوكا كولا (Coca Cola) يبدو أنه ينتج، ويدعم، ويعتمد على السوق العالمي المتجانس. ويدلل المتحمسون الوفريون للعولمة، أن هذا يقدم فرصة للدول المبتلية بالفقر أن تتطور اقتصادياً، محتذيةً حذو بعض الأمم الآسيوية، وأمم أمريكيا الجنوبية. فهم يدعون أن عدم ضبط الأسواق، وإزالة العوائق التجارية، سيشجع على الاستثمار الدولي. وهذا ما سيمنح دول العالم الثالث مدخلاً إلى الأسواق الأجنبية، ويحرر الرأسمال المحلي الملتزم، مما يفضي إلى خلق الثروة، ويؤدي إلى نوع من التقدم الاجتماعي، والبيئي، الذي تشهده في الدول الغنية أساساً. في الوقت نفسه، يمكن أن يكون لسياسات (التعديل البنيوي) التي فرضتها مؤسسات مالية دولية، مثل: المصرف الدولي (World Bank) على دول العالم الثالث، آثاراً تشل البرامج الاجتماعية والبيئية الموجودة، مجبرة الحكومات أن تنهي رقابتها على أسعار السلع الأساسية، وأن تخفّض الإنفاق العام، وتخصخص الصناعات الوطنية. ومع كل هذا، يمكن للفوائد الاقتصادية المرجوة من حلول السوق الحرة، أن لا تنشأ بسبب الظروف المحلية المناوئة، أو لأن الشركات العالمية تجني أكثر أرباحها من التجارة الحرة. أدّى هذا إلى مقاومة ناشطة للعولمة في دول العالم الأول، والعالم الثالث على حد سواء. بينما تنحدر نسبة السكان في العالم الذي يتحملون بثبات الفقر المدقع، فإن النمو السكاني يعني أن الأعداد الإجمالية ما زالت مستمرة بالارتفاع، وما تزال القوة موزعة توزيعاً جائراً. لا تخفف الإحصائيات بؤس الفقراء، ولا فضيحة ثروة العالم الأول. في الوقت ذاته، الذي يعمل فيه النقاد البيئويون على تفسير معنى الأرض، يتوجب عليهم أن ينخرطوا بصورة متزايدة بالصراعات السياسية المعولمة.

إصباغ الكرة الأرضية بوصفها سوقاً يتطلب مؤسسات تروج له وتقويه. إذ يُعدّ المصرف الدولي، وصندوق النقد الدولي (IMF)، ومنظمة التجارة العالمية (WTO)، المشكّلة مؤخراً أكثر هذه المؤسسات قوة ونفوذاً. تتصرف المؤسسات الثلاثة علانيةً إلى ترويج الرأسمالية الدولية، على الرغم من أن المصرف الدولي–على وجه الخصوص– يدمج مسائل التطور الاجتماعي،

والحماية البيئية بمفاوضات مع دول العالم الثالث. أصبحت بعض المنظمات البيئية مثل: الصندوق العالمي للطبيعة، (World Wide Fund for Nature)، وأصدقاء الأرض (Friends of the Earth)، والسلام الأخضر الدولية (Green Peace International) لاعبين عالميين أساسيين، تعكس مقياس ومدى القضايا التي تنكب عليها. يطور الكوكب هوية سياسية ذات هدف ومعنى -على الرغم من تشظيها- يتناحر بها طيف من القضايا الاجتماعية، والبيئية المعولة على نحو مميَّز.

كما نوقش آنفاً، فإنَّ قمة الأرض في ريو التي عقدت في عام 1992م، كانت اجتماعاً سياسياً عالمياً، أعادت تعريف مشكلة حفظ الطبيعة المحلية أو الوطنية. إنها قضية معولة عن (التنوع الأحيائي). وعلى الرغم من ذلك، فالإصرار على المصلحة المشتركة في مستقبل أسماك الزنكة، أو الغابات المطيرة العالمية. يخفي اختلافات واضحة في التفسير، وفي صراعات المصالح. فالقضية ليست وجود تباينات بين الدول فيما يتعلق بأسلوب جمع البيانات ودرجتها فقط، ولكن كما توضح دراسة ج. أ. هانيجان الصادرة في عام 1995. أنه يتوجب على جدول أعمال التنوع الأحيائي أن يتغلّب على مشاكل رئيسية عديدة، قبل أن يتمكن من أن يصبح قضية (ناجحة): الدعاوى الدقيقة حول الانقراضات يصعب تثبيتها. ليس هناك أوغاد واضحون أو حلول بسيطة. علاوة على أن حُماة البيئة في العالم الأول، يمكن أن يتأثروا بشكل مباشر بالخسائر. يمكن لدول العالم الثالث الغنية أحيائياً، والفقيرة اقتصادياً، أن تدرك بسهولة تكاليف الحماية، ولكن -إذا وضعنا سياحة الحياة البرية جانباً- قد لا تتمكن من إدراك الفوائد الجوهرية (Hannigan 1995:146-61). علاوة على ذلك، ينظر بعض النقاد إلى الخطاب العلمي والأخلاقي المعولم عن التنوع الأحيائي غطاءً لشركات العالم الأول الدوائية والزراعية التي تسعى إلى مصادرة الثروة الأحيائية للعالم الثالث.

مُنحت المناطق الجديدة منذ القرن الخامس عشر فصاعداً، التي اكتشفها المستكشفون الأوروبيون إلى حكومات وطنية ووكلائها، وفقاً لمواثيق ورخص ومراسيم باباوية (Papal Bulls)، مع اهتمام ضئيل بحقوق الشعوب المحلية. تدعي فاندانا شيفا (Vandana Shiva) في (القرصنة الأحيائية) (Biopiracy. 1998) أن هذا التطويع الاستعماري للأرض بوسائل قانونية -الذي أدى إلى الهيمنة، والعبودية، وإبادة السكان غير الأوروبيين في المقاطعات المأهولة- يملك نظيراً معاصراً في الرخص التي تُمنح للمخلوقات المُهندسة جينياً، من قِبَل محاكم في العالم المتطور، وتتلقى الحماية المنافقة الدائمة من منظمة التجارة العالمية. فحقوق الملكية

الفكرية المتعلقة بالتجارة، والمعروفة اختصاراً (TRIPs)، مُطالبة حماية استثمارات الشركات التقنية الأحيائية في البحث والتطور، إلا أن شيفا تدعي أنهم يمثلون سلباً استعمارياً جديداً للمعرفة الأحيائية التقليدية للشعوب المحلية، و(الفضاءات الداخلية) للحمض النووي. عمليات قد تشبه القدوم الثاني لكولومبوس (Columbus) (ShiVa 1998:11). تدلل شيفا أن التعديل الجيني يُساء تمثيله عند تصويره عمليةً متنبأً بها وحتمية (للهندسة) التي تخلق مخلوقات جديرة بحماية براءة الاختراع المسجلة. على النقيض من ذلك، تتضمن (السمكرة) بالحمض النووي -كما تسميها شيفا- ، عمليات ومنتجات على حد سواء، تعتمد على مقدرة الطبيعة للتنظيم الذاتي وإعادة الإنتاج؛ لذلك تطوع الرخصة أو براءة الاختراع الإبداعية الفطرية للطبيعة لشركات التقنية الأحيائية بشكل فاعل. إذا استحقت -كما تعتقد شيفا- الأخيرة الاحترام بذاتها، فإنّ ترخيص أنواع مختلفة من البذور الهجينة، يمكن أن يكون شكلاً من أشكال التألُّه. تحشد شيفا بقوة للدفع تجاه الحماية القانونية للمعرفة المحلية. وإن يكن دون توضيح لماهية اختلافها عن التقنية الأحيائية المطوّعة للطبيعة. تُظهر شيفا أيضاً، أن اتفاقية منظمة التجارة الدولية والتنوع الأحيائي -والتي تبدو أنها تمثل أقطاباً متنافرة للاستغلال والحماية- يمكن أن لا تكون معادية تماماً. فالأخير [التنوع الأحيائي] يمكن أن يفضي إلى تحديد. وحماية المصادر الأحيائية للعالم الثالث باسم علم التبيؤ الذي سمحت الأولى [منظمة التجارة العالمية] لشركات العالم الأول فيما بعد بالاستيلاء عليها باسم الربح. لذا فمن المحتمل أن يتواطأ كوكب البيئويين المريح: الأرض،مع عالم رأس المال العابر المستقل.

لقد لاحظنا فعلاً، أن العولمة تتطلب تقنية اتصالات معقدة، تتطلب بدورها أقماراً صناعية في الفضاء. لم تدعم برامج الفضاء المتنوعة الغايات التجارية والعسكرية فقط، إلا أن: الأقمار الصناعية المتخصصة بالرصد الجوي، وعلم المياه قد وفرت معلومات حيوية للعلماء عن القضايا البيئية المحلية، والعالمية، من انحسار طبقة الأوزون إلى انجراف التربة. تمثل هذه العملية جدلياً إصباغاً جديداً للأرض موضعاً للأنظمة الجديدة للمراقبة البيئية والتصميم الانضباطي. هذه النظرة التي تحتمل الارتياب الشديد، تولّدت من نقد الناقد البيئوي تيم لوك (Tim Luke) للمنظمة البيئة المؤثرة، (معهد المراقبة العالمية) (Worldwatch Institute) التي ترتكز بفضفاضية على عمل الفيلسوف مايكل فوكولت (Michel Foucault). تجمع (المراقبة العالمية) بيانات من مجموعة واسعة من المصادر، وتنتج نماذج محوسبة، وتطور سيناريوهات مستقبلية بديلة -يمكن التنبؤ بها استقرائياً- من نقاط بدء متعددة محتملة. وتنشر كل عام تقريراً

شاملاً عن (حالة العالم)، يتضمن معلومات (اقتصادية أحيائية) عن المصادر الطبيعية، والتنوع الأحيائي، والموارد المائية، والسكان وهلم جرًا.

لا ينكر لوك أن (منظمة مراقبة العالم) تعدُّ منظمة بيئية مؤثرة. إلا أنه ينتقد في الواقع إصباغ الكوكب، الذي يوحي به بحث (مراقبة العالم) عن حداثة مستدامة: كوكب يتوقف عن كونه برّي، وكرة أرضية غامضة. ولكن على العكس من ذلك " فإنه يصوّرطاقماً من النُظم البيئوية، التي تتطلب بصيرة إدارية إنسانية. وتدخل تنفيذي واحتواء تنظيمي" (1997:90). يشير لوك أن تقارير (منظمة مراقبة العالم) تحدد عدم كفاءات اقتصادية أحيائية يمكن تنقيحها، وتحدد أيضاً سياسات فردية أو حكومية يمكن تعديلها، إلا أنها لا تنتقد الرأسمالية العالمية في حد ذاتها. من الناحية العملية، يُختزل علم التبيؤ إلى دور إداري أو انضباطي في تسكين المشاكل البيئية. يدلل لوك أن كوكب الأرض، يصوّر بموجب ذلك أنه تابع ضال يستدعي التصحيح العلمي التقني، أو (العناية البيئية): "تتكسر الحياة في الوجود الاقتصادي، والسياسي والتقني مثل انكسار الإشعاع، فتمرُّ (حقائق الحياة) عبر حقول السيطرة لفروع المعرفة، وعوالم التدخل؛ لإداراتها قوةً أرضيةً في مواقع مؤسسية متعددة" (1997:91). ووفقاً للمنظور البيئوي الاجتماعي لتحليل لوك، تترك منظمة مراقبة العالم "منطق تحويل كل شيء لسلعة، والتبادل الأساسي الذي يتسبب بالدمار البيئوي" على حاله (1997:93). لأنها تخفق في تحدي غنى العالم الأول، تقر (منظمة مراقبة العالم) أن عبء تحقيق الاستدامة سوف يقع بشكل غير متكافئ على العالم الثالث.

أحد النجاحات المذهلة لمنظمة مراقبة العالم كانت وثيقة مونتريال في عام 1987 التي قدّمت الضوابط العالمية لغاز كربونات الفلوركلور (CFCs) المستنزِفة لطبقة الأوزون. عادة ما يستشهد بهذه الاتفاقية، أنها دليل على الدور الذي يمكن للعلوم أن تقوم به في التعاطي مع المشكلة البيئية الناشئة بحزم وفعالية. وكما صاغها أحد المفاوضين الأمريكيين:

"كانت وثيقة مونتريال ثمرة للبحث في واجهات العلوم، إضافة إلى التعاون الفريد بين العلماء وبين صانعي السياسات. خلافاً لأي مسعى دبلوماسي ماضٍ آخر، فقد ارتكزت على نظريات مستمرة بالتطور، وعلى أحدث نماذج الحاسوب، مشابهةً نتائج ردود الفعل الفيزيائية، والكيماوية المعقدة لعقود في المستقبل، كما تعتمد أيضاً على المراقبة بالأقمار الصناعية، والمراقبة الأرضية، والمراقبة الصاروخية للغازات النائية التي تقاس بأجزاء الترليون" (مقتبس في: Yearley 1996: 107).

حققت الوثيقة، والتعديلات التي تبعتها، إزالة متدرجّة كاملة لغاز كربونات الفلوركلور،

والمركبات ذات الصلة في استجابةً للدليل الذي أثبت أنهم كانوا سبباً في تدمير طبقة الأوزون فوق القارة القطبية المتجمدة الجنوبية. الأوزون هو: شكل من الأكسجين العنصري النادر نسبياً، يحتوي على ثلاث ذرات من الأكسجين بدلاً من ذرتين، الموجودتان بالشكل المعتاد في الارتفاعات المنخفضة. يعمل الأوزون بوصفه عنصراً آكلاً للأدخنة الضبابية وغازات الدفيئة. إلا أنه يشكل في طبقات الجو العليا (طبقة) تنقّي الإشعاع فوق البنفسجي، الذي يمكن -لولا ذلك- أن يدّمر الحيوانات والنباتات بشكل هائل. أُدعي في سبعينات القرن العشرين أن غاز كربونات الفلوركربون، والمواد الكيماوية المستخدمة في المرشات البخاخية، والمبردات، كانت قادرة على تدمير الأوزون في الغلاف الجوي. تأكدّت هذه الدعوى عندما وجد العلماء في الدائرة القطبية الجنوبية أن الأوزون فوقهم قد استنزف بشكل حاد خلال فصل الربيع، فقد أدّت تركيبة من الظروف الجوية التي تتفرد بها المنطقة إلى التدمير السريع للأوزون الموجود في أعلى الغلاف الجوي.

يوضح هذا التوصيف، أن مشكلة الأوزون ظاهرة علمية موضوعية ذات شأن عالمي، تعامل معها الإجراء السياسي العالمي العارف بحيثياتها العلمية بنجاح. تفترض كيت سوبر (Kate Soper) في (ما هي الطبيعة؟) (What is Nature?) وتعمل على نشر هذه النظرة عندما تعلق أن: "ليست اللغة من تملك ثقباً في طبقة أوزونها" (p.151). هذه العبارة الدقيقة الخالدة، قد استشهد بها نقاد كثر لتوضيح التأكيد على الحقيقة الحرفية. وليس على الفهم الاجتماعي الذي يفصل حدود النقد البيئوي عن بقية المدارس النقدية الأدبية الأخرى (Barry، 2002: 252; Rigby، 2002: 154). بشكل ساخر، يمكن أن تكون سوبر قد اختارت المثال الخطأ للتدليل على وجهة نظرها. إذ يعد (الثقب في طبقة الأوزون) -في الواقع- مثالاً جيداً للفهم العلمي والثقافي للمشاكل البيئية العالمية، ذلك أن مصطلحات (الثقب) و(الطبقة) تعدُ مجازية، بالمعنى الضيق في هذا السياق. فالأخيرة منطقة للتركيز المتزايد للأوزون، التي توجد في الحقيقة على طول الغلاف الجوي. كما ينوه هانيجان (Hannigan)، فإنّ صور ثقب الأوزون هي في الحقيقة خرائط تصويرية محفّزة:

"صور ثقب الأوزون التي التقطتها المحطة الفضائية ناسا (NASA) ... حولت التدرجات المستمرة في تركيز الأوزون الحقيقي، إلى مقياس ترتيبي مرمّز باللون، موصلاً الانطباع الخاطئ، أنه يمكن في الواقع لثقب منفصل، وقابل للتحديد أن يوضع في الغلاف الجوي فوق القطب الجنوبي" (1995:45).

تثير هذه الصور مسألة الوصول إلى وسائل للتمثيل ولتشكيل السياسة. كانت الأمم الفنية

هي من دفعت بعجلة مفاوضات مونتريال للأمام، مطالبة بتخفيض انبعاثاتها السامة، والانبعاثات التي تطلقها دول العالم الثالث، على الرغم من أن انبعاثات الأخيرة أصغر بكثير، وبدأت مؤخراً. وقد سمح انتشار العلوم للدول المتطورة أن تدعي التحدث باسم العالم كله. في عملية تسمى (العُلومية) (Scientification): "الاقتناع أن العلم يتحدث بموضوعية، ونزاهة يعني: أن أحدنا ليس لديه شكوك في استثناء الناس الآخرين من صنع القرار. ذلك أنهم -في أي حدث- سيصلون إلى النتائج ذاتها، كالمرء نفسه" (Yearley 1996: 118). تقترح صورة ثقب الأوزون احتمالية علومية بيئية غير ديمقراطية، واستعمارية حديثة. يستدعي النقد البيئوي الانتباه للمشاكل الحرفية والمادية بشكل مختزل مثل استنزاف الأوزون، لكنه يعتمد أيضاً على البصيرة القائلة، أن المشاكل العلمية لم تكن يوماً منفصلة انفصالاً كاملاً عن نظيراتها الثقافية والسياسية. مشكلة الأوزون هي مشكلة حقيقية، إلا أنها توصَّل عبر استعارة شائعة، وتؤطر ضمن سياقات سياسية دولية ليست علمية، لكنها إيديولوجية. ينسجم مثل هذا التبصر مع (الواقعية النقدية) (Critical realism) التي شرحتها سوبر في تحليلها كاملاً.

المشكلة إذاً هي في تأسيس دَور المحاكاة لمنظور النقد البيئوي على الكرة الأرضية. بالنسبة لمشاعر الأصالة، فإنَّ مواجهة مباشرة مع العالم الحقيقي، كفيلة بإنقاذ الذي ينقذ الموضوع من عالم التمثيل والمحاكاة الحديث الفاسد. في (عصر المعلومات المفقودة) (The Age of Missing Information، 1992). يقارن بيل مكيبان (Bill Mckibben) -أحد أكثر مناصري هذه النظرة إقناعاً- بين التبصيرات التي قدمتها 24 ساعة على قمة جبل في أديروندا كس[1] (Adirondacks)، وبين سيل البرامج المسجلة من مئة قناة تلفزيونية شبكية في الفترة ذاتها. فالأخيرة -كما يسلِّم مكيبان- توفر جرعات من المعرفة بين الفينة والأخرى، وجزء يسير من التسلية، ولكنها تضيّق في الوقت ذاته -على نحو قاتل- مدى إدراكنا واستجابتنا. بعيداً عن عصر المعلومات (Information Age)، يدعى مكيبان أننا نعيش في حقبة (اللاتنوير) (Unenlightenment)، لأننا انقطعنا عن الدروس التي تعلمنا إياها الطبيعة: "أفكار مخرّبة عن مقدار ما تحتاجه، أو ما هي الراحة، أو الجمال، أو الوقت، الذي يمكن أن تتعلمه من القناة الواحدة العظيمة، التي لا شعار لها، ناهيك عن مئات القنوات المزعجة أو حتى قنوات الدفع لكل مشاهدة" (Mckibben 1992: 23). يدلل مكيبان أن التلفاز يروج إحساساً بالوقت مضغوط بشكل كبير، وأنه يستبدل الراحة العادية ذات الحد الأدنى بالكد في العمل، وعدم الراحة، والاسترخاء،

1 سلسلة جبال في ولاية نيويورك، شمال شرق الولايات المتحدة.

والشهوانية التي تجعل من السعادة الحقيقية شيئاً ممكناً. ارتداء ملابس دافئة وجافة بعد نزهة تحت المطر تعد متعة متناقضة جوهرياً مع الانغماس بوهج جهاز التلفاز الوميضي، ليس أقل من ذلك: لأنه يتضمن حواس اللمس والشم التي لا يعالجها الأخير. مع هذا، بالنسبة لتحذير النقاد البيئويين من آثار ما بعد الحداثة، تبدو نظرية الازدواجية للتلفاز مقابل الطبيعة نظرة لا يمكن دعمها. فثقب الأوزون هو حقيقي ومحاكى، وحرفي ومجازي: والاحتباس الحراري هو ظاهرة تولدت عن نماذج مناخية معقدة محوسبة.

على الرغم من ذلك، فليس التغير المناخي واستنزاف الأوزون أزمات محاكاة فقط، لذلك لا يمكن لعالم المحاكات أن يوضع ببساطة في مواجهة عالم الطبيعة الحقيقي. كما رأينا، تتأثر لقاءاتنا مع العالم الطبيعي بالاستمارات، وكل إدراك هو -لدرجة معينة- محاكاة. بالمقابل، كما تبين كاثرين هايلز (Katherine Hayles) في (الطبيعة المحاكاة والمحاكات الطبيعية) (Simulated Nature and Natural Simulations)، أن وظيفة برامج (الحقيقة المظهرية)[1] (Virtual Reality) والمحاكات الآخريات تعتمد على التوافق الحجمي بين التقنية والطبيعة، الذي يوحي بانتقاد لمشاعر الأصالة:

"إذا كان بالمقدور فصل الطبيعة عن المحاكاة، بطريقة واضحة وسهلة، فإننا نجازف بالاعتقاد أن الطبيعة طبيعية، ذلك أنها غير متوسّطة، بينما المحاكاة هي شيء اصطناعي [غير حقيقي] ذلك أنها تبنى ... والمحاكاة تعد طبيعية ... فقط لأن تقنيات المحاكاة تُعمل معرفة دقيقة ومفصلة عن التحولات الإدراكية البشرية، فهل بمقدورهم خلق محاكات تؤثر فينا؟ تكون فارضة وحقيقية، تظهر محاكاة (الحقيقة المظهرية) (VR) لنا بثلاثة أبعاد لأن الصور متغيرة الأبعاد، وتحاكي الفراغ (الطبيعي) لأعيننا، (1996:418).

بينما -حتى كما تدلل هايلز- أن الحقيقي والمحاكى ليسا ببساطة متقابلين، ومن فئات غير متكافئة، فإنها تعدُّ صلاحية التفريق بينهما أمراً بديهياً. تدعي الفيلسوفة الفرنسية جين باودريلارد (Jean Baudrillard) في دراستها المؤثرة (التشبيهات والمحاكات) (Simulacra and Simulations، 1981)، أن تقنيات الاتصالات -القادرة على النسخ اللامتناهي والنشر الواسع للمعلومات- قد ابتدأت عالم المحاكاة، الذي يعمل الآن للحلول مكان العالم الحقيقي. فقد تميزت الحداثة بزيادة أشكال التمثيل، مثل الكتابة أو الخريطة، التي يمكن بها التمييز بوضوح بين الشيء الحقيقي وتمثيله. وعلى الرغم من ذلك، ففي عالم ما بعد الحداثة، تفقد التمثيلات

1 حقيقة تحاكي الواقع.

المكرر إنتاجها بشكل هائل أصلها؛ لذلك في يومنا هذا "أصبحت الخريطة هي من تولّد الأرض أو الإقليم" (2001:169)، وأصبحت الأرض الحقيقية لا تعرف تقريباً. تحدد باودريلارد أربعة (أطوار للصورة):

إنها انعكاس للحقيقة الأساسية.
إنها تخفي وتحرِّف الحقيقة الأساسية.
إنها تخفي بذاءة الحقيقة الأساسية.
إنها لا تحمل أدنى ارتباط لأية حقيقة مهما كانت. وتملك تشبيهها الصرف الخاص".
(2001 :169)

تمثل ديزني لاند هذه التراتيب الأربعة كلها. فهي تمثّل القراصنة. والعامة في الولايات المتحدة الأمريكية(1). وبشكل واضح. أساءت تمثيلهم(2). ولكنها جسدت سوء تمثيل جَلي: "ديزني لاند هناك لإخفاء حقيقة أنها البلد (الحقيقي). كل أمريكا (الحقيقية). هي ديزني لاند" (p.175). في هذه المرحلة الثالثة للصورة. تضلل عدم حقيقة ديزني لاند اللاحقيقية الأكثر شؤماً لأمريكا. على الرغم من أن (اللاحقيقة) في كلتا الحالتين تعود إلى فائض التمثيلات. وليس لقلة الجوهر. إذاً. فديزني لاند وأمريكا على حد سواء ليسا أقل من كونهما حقيقيين. بل إنهما (فوق حقيقيين) (hyperreal). ذلك أن الفرق بين الحقيقي والمحاكى قد انهار. وما تبقى هو قاعة مرايا (التشابيه)(4). فمقالة مايكل برانش (Michael Branch) (علم الكونيات في نادي القمار) (Cosmology in Casino. 1990) تمثّل هذه الفكرة عن طريق تفحص دورة النهار والليل، التي تدوم لساعتين تُسقط داخل قبة (مقهى منتجع التركة الفضية في مدينة رينو، نيفادا). وتعبر عن القلق من أن إمكانية أن يغذي هذا التشبيه الرغبة. لما هو فوق حقيقي بديلاً مرضياً للحقيقي. تعارض شكوكية باودريلارد تجاه (الحقيقي) برانش تماماً، وتعارض مفهومه النظري لحقبة ما بعد الحداثة، وتعارض معظم النقاد البيئويين.

تستكشف رواية دون ديليلو (Don Delillo) (الضجة البيضاء) (white noise) -التي نوقشت آنفاً- العلاقة بين عالم المحاكاة ما بعد الحداثة، والأزمة البيئية. على سبيل المثال، خلال الحدث المحمول جواً المسمّم، يظهر مسؤولون من منظمة حكومية للاستعداد للطوارئ، المعروفة اختصاراً (simuVac)، التي تحاكي الكوارث. بالنسبة إليهم، هذه الحالة الطارئة الواقعية تعدُّ فرصة لهم للتدريب، على الرغم من أن التجربة الحقيقية يمكن أن تخيب الآمال، كما ينوه أحد المسؤولين. «هناك إفراط في الاحتمالية ... ينبغي أن تدخل في حسابك حقيقة أن كل

ما نراه الليلة حقيقي» (1986:139). فتعرُّض جاك (jack) للسحابة المسمّمة تركه هائماً على وجهه في الشكوك، فهما كان حاسوب منظمة الاستعداد للطوارئ الحكومية يحاول حساب الخطر المتوقع لموته. لا يمكن تمييز طمأنة المسؤول من تهديده:

"إنه ما نسميه سجل قاعدة البيانات الضخم. جلادني ج. أ. ك (Gladney. J. k. a). أسجّل الاسم، والمادة، ووقت التعرُّض. ثمَّ انقر نقراً خفيفاً على تاريخ حاسوبك ... ترجع نجوم وميضية. ذلك لا يعني أن شيئاً سيحدث لك في حد ذاته، على الأقل ليس اليوم أو غداً. إنه يعني أنك المجموع الإجمالي لبياناتك فقط. فلا أحد يفلت من ذلك".

يبدو مثل هذا الموت المُسقط أو المحاكى متفوقاً على حقيقة حياة الشخص الخاصة. يتأمل جاك "أنه يشعرك أنّك غريب في احتضارك الخاص. (p.142). الموت والكارثة البيئية-اللذان يظهران أنهما يمثلان الحقيقي -يتم إخضاعهما لنظام المحاكاة، الذي تضحى فيه كل قصص التهديد والحل مبتذلة ومرائية. وكما يدلل ريتشارد كيردج:

"تضع (الضجة البيضاء) قارئها خارج القصص المتوفرة كلها، التي يمكن أن تعالج الكارثة البيئية، وتعمل على استقرارها، تاركة طريقاً مسدوداً –حالة من الانتظار السلبي. تصوِّر هذه الرواية بطريقة مسرحية -قاسية أكثر من أي رواية أعرفها- الطريق المسدود بين الوعي، وعدم قدرة الثقافة على التغيير» (1998:139).

يمكن لنظريات التمثيل ما بعد الحداثة أن تقدم شخصيات دقيقة للأزمات البيئية في الإعلام، إلا أنها في الوقت ذاته تعيق إمكانية مذهب الفعالية (ActiVism). فكرة باودريلارد عن المحاكاة -كما مُثّلت في (الضجة البيضاء) تنزح تجاه نوع من حمى الارتياب المفرقة، أو كما يسميها (دوخة التفسير) (p.178). لا بد لمثل هذه الشكيّة غير العملية تجاه ادعاءات الحقيقة المستقرة، إلا أنها تتناقض مع نقد بيئوي ينكب على مشاكل التمثيل، لكنه يتأسس في النهاية على افتراضية المشاكل البيئية الحقيقية. يجب أن نميز بين الشكيّة المضعفة تجاه الحقيقة بشكل عام، كما صورتها نظرية باودريلارد ما بعد الحداثة، وبين الشكيّة المنعشة تجاه بعض (الحقائق) المفترضة للخطاب البيئوي الشائع، الذي مثّله علم التبيؤ ما بعد الحديث.

بشكل حاسم، يبقى حماس باودريلارد للكرة الأرضية المحاكاة، واليأس البيئوي العميق على حد سواء مستلباً بالوعد الفاشل للأصالة. وكوننا موجهين نحو مشاكل المسؤولية العملية، فإننا بحاجة لعدم قبول التقسيم بين التجوال في جبال الأديرونداكس وبين وجود المخلوق الهجين

على الكرة الأرضية المحاكاة. يوحي منظور باودريلارد بالانفجار الضمني للمعنى في سياقات الخطر البيئوي ما بعد الحداثة، إلا أن انشغال أولريك بيك بالمشكلة ذاتها، يثمر عن نتيجة مختلفة تماماً:

"تخلق المخاطر البيئوية العالمية- بعيداً عن تكثيف النقص العام للمعنى في العالم الحديث- أفقاً مليئاً بالمعنى للتجنب، والحماية، والمساعدة، مناخ أخلاقي يزداد حدةً بمقياس الخطر المحسوس، الذي به ترتبط أهمية سياسية جديدة لأدوار البطل والوعد" (1999:45).

ليست الأسطورة الفعالية بالضرورة رؤيوية مذعورة. ولكنها أشبه بنمطية الغلام ديفيد (David) في مواجهة العملاق جوليات (Goliath) كما يشير بيك، فإصباغ الكوكب من زاوية الخطر العالمي يولّد استراتيجيات سياسية جديدة إضافة إلى لاعبين جدد، مثل (سياسة الجودو[1] لمنظمة السلام الأخضر)، المصممة لحشد القوة المتفوقة للخطاة البيئيين ضد أنفسهم، مثل هذه السياسات، علاوة على ذلك، يمكن أن تحشد إصباغاتها الافتراضية الخاصة عن الكرة الأرضية.

غايا GaIA

كان الروائي ويليام جولدنج (William Golding) هو من اقترح اسم (غايا)، إلهة الأرض عند الإغريق القدماء، لإصباغ الكرة الأرضية الذي طوّره صديقه جيمس لفلوك (James Lovelock)، (انظر الفصل الخامس). تستخدم اللفظة في يومنا هذا من قِبَل علماء التبيؤ المتعمق، والنقاد البيئويون النسويون: لمواجهة إصباغ الأرض كرةً أرضيةً مؤطرةً تقنياً واقتصادياً. ابتدأ عمل لفلوك في علم التبيؤ الكوكبي. كانت فرضيته أن الأرض يمكن أن توصف أنها نظام ذاتي التنظيم، يحاكي الكائن الحي. فقد أصبح معروفاً منذ اكتشاف عملية التركيب الضوئي لدى النبات أن الكائنات الحية تنتج الجو الذي تحتاجه للسكن، إلا أن لفلوك ابتعد بالحجة لمرحلة أخرى، مؤكداً أن الكوكب قد تغير تغييراً جذرياً فيزيائياً، وكيميائياً بفعل الكائنات الحية، لدرجة أن الأرض ذاتها يجب أن ينظر لها نوعاً من الكائن الحي الفائق. بدلاً من أن تكون مجرد صخرة في الفضاء، تتشبث الحياة بها، فإن الأجزاء غير الحية للكوكب تعد جزءاً من الكل تماماً مثل جلب[2] الشجرة الحية.

---

1 ضرب حديث من المصارعة اليابانية.

2 خشب القلب الصلب في جذع الشجرة.

وفقاً ليلفولوك، فإن الشمس كانت تزداد حرارتها عندما تطورت الحياة على الأرض، لكن كوكبنا بقي بارداً إلى نقطة المرور بالعصور الجليدية. يظهر هذا أن غايا Gaia قد حافظت على درجة حرارة سطحية عالمية مستقرة إلى حد ما على مر تاريخها. يمر الإشعاع الشمسي عبر الغلاف الجوي للأرض تماماً كما ينفذ من الزجاج، ويدفئ السطح. يمكن للحرارة المولّدة أن تفقد إلى الفضاء الخارجي لولا غازات الغلاف الجوي التي تمتصها وهي في طريقها للخارج، وتحاصرها كما لو أنها تحت بطانية. السماح للضوء بالدخول، مع منع الحرارة من الخروج يسمى أثر الدفيئة (greenhouse effect). ويتمزز ذلك الأثر بفعل النسب المرتفعة لثاني أكسيد الكربون. من أجل أن تدعم (غايا) الحياة، يتوجب تنظيم أثر الدفيئة، ذلك أن كثرته، أو قلته يمكن أن تكون قاتلة. يتضمن (الانحباس الحراري) درجة غير مقبولة من أثر الدفيئة الناتج عن النشاط الإنساني، إضافة لما يطرحه الغلاف الجوي بشكل طبيعي.

أشار لفلوك أن الكائنات الحية البحرية تستخدم بعض ثاني أكسيد الكربون المذاب في ماء البحر لصنع أصدافها، التي تطرح بعدئذٍ بأعداد ضخمة في الصخور الرسوبية مثل الأحجار الجيرية. يُزال بعض ثاني أكسيد الكربون عندما تتحلل النباتات الميتة بشكل غير كامل، مشكّلة الفحم، والنفط ورسوبيات أخرى. بهذه الوسائل، تنظم الأشياء الحية ثاني أكسيد الكربون الموجود في الغلاف الجوي، من أجل الحفاظ على درجة حرارة سطحية ملائمة. يوضح عمل مايكل ألابي (Michael Allaby) (دليل إلى غايا) (Guide to Gaia، 1990)، كيف تحافظ آليات مشابهة على دورات الماء، والكبريت واليود، وتنظم ملوحة المحيطات و-ربما- تؤثر حتى على الانجراف القاري (Continental Drift). لقد أبقت المؤامرة الحميدة غير الواعية كلياً، لملايين الأنواع على (غايا) حية ومستقرة، على الرغم من أن الكائنات الحية والعمليات المحددة قد تغيّرت بشكل كبير على مر تاريخها، ويتوقع أن تستمر بفعل ذلك. (غايا) حيوية، ولا يمكن التنبؤ بها، ليست جامدة ولا متناسقة، مع أن الفرضية تدعي أنها تنزح نحو التوازن في وظائفها الجغرافية (geophysiological balance) للطاقة والعناصر الكيماوية، المشابهة للتوازن الوظيفي للكائن الحي.

منذ أن قدم لفلوك الفرضية، شكلت مثار جدل واسع بين العلماء الآخرين (انظر: Schneider and Boston، 1993). يسميها بريور (Brewer) مجرد (استعارة ساحرة) (1994:372). يبدو من الصعب تتبع محور الجدل الدائر بالتفصيل، إلا أن القضايا المفتاحية، ليست وعرة أمام غير العلماء. طالما كانت (غايا) تجتذب علماء التبيؤ المتعمق، والروحانيين

البيئويين، إلى جانب علماء المناخ، وعلماء المياه وفلاسفة العلوم. عزو الوحدة الكائنية للأحياء إلى الكوكب، ومنحه اسم آلهة الأرض يسمح لغايا أن تخصّص بوصفها هدفاً للوعي البيئي العالمي، أو ربما التبجل أيضاً. ولكن كما يؤكد أرنست كالينباخ (Ernest Callenbach): "ليست غايا كينونة واعية ذات هدف أو اهتمام بالنسبة للبشر. أولئك من يحسبونها خليفة للكينونة المتعالية (Supreme Being)، أو الله هم مضلّلون" (1998:62). وتدلل كيت رولز (Kate Rawles) أن العواقب الأخلاقية لغايا ليست كلها واضحة المعالم. فعلى سبيل المثال، لقد أفترض أن (غايا) تثبت (وحدانيتنا) المستقلة مع المحيط الحيوي، ويجب بذلك أن تروّج الاهتمام به، لكن رولز تلحظ أنه "بينما نميل حقيقة إلى الاعتناء بأنفسنا بدرجة معينة، نظهر أننا أيضاً سيئو السمعة، بالمخاطرة بالضرر طويل الأمد بصحتنا نحن، من أجل مكاسب قصيرة الأمد. أو عندما تكون الآليات المسبِّبة للضرر متشابكة، أو غامضة" (1996:318).

هناك أيضاً تجاذبات سياسية تتعلق بـ (غايا). فقد انتقد الناقد النسوي البيئوي باتريك ميرفي لفلوك (التصنيف الجنسي للكوكب). يعترف ميرفي أن "غايا أصبحت على الفور مصطلحاً للأرض معروفاً ومقبولاً" وأن الفرضية العلمية "تعمل على قدم وساق لتغير الوعي" (Murphy 1995: 61.68). لكنه مع ذلك، ينتقد لفلوك لبقائه مقيداً بالعادات السلطوية للغة والفكر. يدلل ميرفي أن لفلوك -بتبنيه الأنموذج النسوي على غرار النقاد البيؤيين النسويين المتشددين عابدي الإله (انظر الفصل الثاني)- "ينقش من جديد ... التصنيف الجنسي السلطوي" لأن "تصور الأنثى الولادة أنها ساحرة، ومقدسة، وغامضة، هو تصور يعيق الشفاء ذاته الذي يقصدونه"(pp.62-3). كما بلومود (Plumwood). يفرض ميرفي تفريق غير طبقي أو (متغاير الطبقات) (heterarchical) للجنس، يحتمل الفروق الحيوية دون إقحامها في التقييمات الطبقية. تعلي (غايا) -كما يدلل- تقييماً محدداً للأنثى إلى مستوى كوكبي. مع ذلك، بينما يخضع ميرفي فرضية لفلوك للنقد النسوي البيئوي، يبقى بيانه المعياري الخاص، مقاوماً على نحو بارز للنقد القادم من المنظور البيئوي الحقيقي. فهو يقيس -على نحو متكرر- الكُتّاب على محك الالتزام (بالتوازن) و(الانسجام)، الذي -كما رأينا- يحتفظ بارتباط متواضع بعلم التبيؤ الحديث، ويؤكد خطأ (مستشهداً بعالم لاهوتي بدلاً من عالم بيئوي) على "المبدأ البيئوي الأساسي: أن التنوع يعد مكوناً مفتاحياً للصحة الشاملة (p.67). يعد ميرفي شخصاً مهماً في النقد البيئوي، فقد قوّى رابطة دراسة الأدب والبيئة (ASLE)، والنسوية البيئوية، والدولية (Internationalism)، والمزيد من الصقل الأدبي والنظري، إلا أن مفرداته البيئوية الأساسية تنضوي بشكل متزايد على مفارقات تاريخية.

لا تتطابق (غايا) -على أية حال- مع الأرض. إنها فهم فرضي لنظرية لفلوك، تشبيه للكوكب يصوّر فيه (كأنه) كائن حي. أثناء تنقيح النظرية، أضحت (غايا) أقرب شبهاً من الأرض التي نعرفها ونسكنها، لكنها ستظل مفتوحةً على مصراعيها للدحض من قِبَل العلماء. نُجرى أحد طرائق فحص (غايا) من خلال تجريب نماذج محوسبة متنوعة عن تنظيمها، مثل محاكاة لفلوك الخاصة لعالم زهر الأقحوان (Daisyworld). والتي تتوفر نسخٌ منها على الشبكة المنكبوتية (مثال ذلك كرة أزهار الأقحوان (Daisyball) موجودة على (<http://www.gingerbooth.com/courseware/daisy.html). يمكن للمحاكات أن تظهر كيف تعمل (غايا)، هذا إذا كانت تعمل حقاً. ولكن المحاكات بمفردهنّ لا يمكن أن تثبت جدارة غايا كنظرية. بالمقارنة مع رعب باودريلارد المغالي، تبدو مثل هذه النمذجة الواقعية مملة. لكن فهم الاستخدام المسؤول للنمذجة البيئوية، يعد ضرورياً لفهم طبيعة (التنبؤ) العلمي في عصر التنبؤ العالمي. علاوة على ذلك، بالرغم من أنني حللت تركيبتها العلمية حسب، يمكن للمحاكاة الغائية (Gaian) أن تقدم أيضاً أرضيةً لمحاولات تَخيُّل الكرة الأرضية كاملة بالوسائل الأدبية. والوسائل الأخرى التي غالباً ما يتعاطى بها النقاد البيئويون.

مستقبل النقد البيئوي: بين محاكتين للأرض

THE FUTURE OF ECOCRITICISM: BETWEEN TWO SIMULATIONS OF EARTH

لقد انتقل هذا الكتاب من المجاز الرعوي القديم، إلى النزاع المعاصر الدائر حول شكل الأرض. من الرومانسية إلى ما بعد الحداثة. شكلت القصص الإغريقية الرومانية مصادر مهمة للمجازات الأولى. ولقد رأينا أن فكرة المكان الأصلي البكر الذي فُقد بفعل الجُرم البشري، ما زال يتصفّح في الرعوية، والبرية وبعض نسخ السكن. إلا أن الخوف، أو الأمل من بعض النهايات للصراعات البشرية النهائية مع الطبيعة تشبع الرؤى الرؤيوية. ومع ذلك، تعدُّ المجازات المسيحية إشكالية بالنسبة للنقاد البيئويين، لأنها نشأت من دين قادم من عالم آخر يشرعن الدمار البيئي. تدعي البنية القصصية المؤسِّسة لمجموعة الأساطير المسيحية وجود ترابط منطقي في تاريخ الخلق (Creation)، الذي يختلف اختلافاً صريحاً مع العمليات التطورية والبيئوية. مثل هذه المجازات القديمة -كما كيّفها الخطاب البيئي- تملك أفضل الجذور المتأصلة في ثقافتنا، لكن مع مسؤوليتها القانونية عن المفارقة التاريخية في حقبة ما بعد الحداثة. يبدو أن المفاهيم النسبية الروائية للإنسان، والحيوان، والأرض كاملة- والتي تشكلت جميعها بشكل جذري بفعل الفكر

العلمي- هي من تقدم استمارات تكفي لبداعة مأزقنا، وحتى أن هذه يمكن أن تنعكس بشكل مختلف تماماً في سياقات متباينة.

عَدَّ كثير من النقد البيئوي بداهةً، أن مهمته تتمثل في التغلب على الفوقية البشرية، تماماً كما تسعى النسوية للتغلب على الفوقية الذكورية. سُخِّرت الحجة ما وراء الطبيعية للمركزية الأحيائية للحفاظ على الدعاوى الأخلاقية للقيمة الجوهرية للعالم الطبيعي، التي ستؤثر على توجهاتنا وتصرفنا تجاه الطبيعة. فتجارب البرية، أو تهديدات الرؤيوية، أو طرائق الأمريكيين الأصليين في الحياة، يُفترض أن تقدم الحافز، أو القدوة التي يصل الأفراد من خلالها إلى حالة الذات الأصلية الموجهة نحو الإجراء البيئي الصحيح. في حين لا يمكن نكران أهمية تغيير أذهان وحياوات الأفراد، فقد هدف هذا الكتاب لإظهار البعد السياسي الذي يمكن أن يسده هذا التأكيد الأخلاقي. وعلى الرغم من ذلك، فإن تسيس النقد البيئوي يفرز فعلاً مشاكله الخاصة. السكن في المثال الإشكالي الذي قدمه هيدرجر (الفصل السادس)، الذي ناصر النازية، وشكلاً من أشكال علم التبيؤ المتعمق، وكما يؤكد جوناثان بيت (Jonathan Bate) في (أغنية الأرض) أن "فضيلة القراءة الخضراء تتمثل في أنها يجب -لكنها لا تستطيع- أن تفصل المشاعر البيئوية عن السياسة البيئوية" (2000:206). تتوافق الحركة البيئية مع معظم المواقف السياسية، وفي حين أننا رأينا أخطاراً محتملة متأصلة في هذا التوافق، فإنه يمكن أن يمنحنا أيضاً، حجة واضحة لمنظومة سياسية أفضل -وليس أقل- في النقد البيئوي. يشير بيت بحق أن الشعراء ليسوا مهندسو العالم، وأن الأدب لن يتمكن من طرح حلول محددة، وهذا يعني أن على النقد البيئوي أن يستمر في تبني وتكييف النظريات القادمة من التراث النسوي والماركسي، التي تمكنه من الانخراط في السياسة الثقافية.

أميل إلى التدليل أن الوعد النسوي بنظرية أدبية وثقافية لمّا يتحقق بعد. مع وجود استثناءات مهمة مثل هاراوي، وأرمبرستر، وويستلنغ، وميرفي، فمثل هذا النقد قد كُبح على يد نقيض المذهب العقلي، وازدواجية المركزية الجينية للنسوية البيئوية المتشددة. يقدم عمل الفيلسوف الأسترالي فال بلومود للنسوية البيئوية أساساً سليماً للنقد المطلوب بإلحاح للقوى المحركة للهيمنة التي تشتغل في طيف من السياقات الثقافية. يلتزم السبب الجذري المصوّر أنه وحدة متراصة للتدمير البيئي -سواء سمّي فوقية بشرية أو فوقية ذكورية- في إساءة تمثيل تعقيد السببية في العالم الحقيقي. ويمكن للنسوية البيئوية -المعدّلة بفعل حوار مواقف بيئوية اجتماعية- أن توفر تبصراً في العمليات الثقافية للظلم البيئي. وفقاً لهذه الطريقة، فإن الاندماج بين جداول الأعمال

البيئية، وجداول أعمال التطور الاجتماعي الذي حدث بشكل صادم جداً داخل، وبين المنظمات غير الحكومية (ngos) يمكن أن يحدث للنقد البيئوي: إذ يتضمن ما (بعد الكتابة عن الطبيعة) (Beyond Nature Writing، 2001) الذي تحرره كارلا ارمبرستر وكاثلين واليس، مقالات عديدة في حقل التساؤل الناشئ هذا.

يستمر النقاد البيئويون إذاً، في تجربة ممارسات القراء المهجنة، معتمدين على مصادر نظرية فلسفية، وأدبية متعددة. يكشف (طبيعة المدن) (The Nature of Cities، 1999) لبينيت (Bennett) وتيجو (Teague) عن تأكيد جديد لإحضار مُنظِّرين ثقافيِّين مثل كرونون (Cronon)، وروس (Ross)، ولوك (luke)، وهاراوي (haraway) للحوار مع النقاد البيئويين الأدبيين، وبذلك يترسخ الحقل حول مواجهة نقدية بين الأنواع الأدبية، والرؤى، والسياسة. يعد عمل ريتشارد كيردج مثالاً في هذا الاتجاه: فهو يكتب بقدر من التبصر عن خطر ما بعد الحداثة كما يفعل حين يكتب عن توماس هاردي (Thomas Hardy) تعزز غابات (Forests، 1993) هاريسون (Harrison) الانتقائية -التي تتراوح بين حكايا غريم (Grimm) عن الجن، إلى فن العمارة لفرانك لويد رايت (Frank Lloyd Wright)- خلق صلات بين الظواهر الثقافية اليائسة، دون نفي خصوصياتهم. كان بيت (Bate)، وبويل (Buell) هما أول من نشر كتباً حددَت (تراثاً بيئياً) واحداً في بريطانيا، والولايات المتحدة، متجذرة ومتسلسلة من وردزورث (Wordworth) إلى ثورو (Thoreau). في أعمال لاحقة -مع ذلك- فقد فضلا منهجاً جدلياً صريحاً. ففي (أغنية الأرض) تختمر تقوى وردزورث بحنكة بايرون (Byron)، وتكتسب نُذُر هيدجر سخرية معلِّمه ثيودور أدورنو (Theodor Adorno). بالنسبة لبويل، يضم (الكتابة من أجل عالم مهدّد بالانقراض) سكان مدن متجاورين مثل ثيودور دريزر (Theodor Dreiser)، وجوندولين بروكس (Gwendolyn Broocks) مع مرشحين أكثر وضوحاً لمعالجة نقد بيئوية: جيفرز (Jeffers) وبيري (Berry). فالاعتماد على مصادر الأمل المتنوعة هذه، يمكّن النقد البيئوي من الاتصال بالأماكن المدينية، والضواحي التي يواصل معظمنا العيش فيها، وستضيف عمقاً للنقد البيئوي للحداثة: فلم يعد التقدم المادي والاقتصادي أصل كل الشرور، كما أنه لا يشكل منفعة صرفة للناس، أو للعالم الطبيعي. بهذه الوسيلة يمكن التقليل من خطر تقوية السياسة الرجعية.

هناك تحديان مفتاحيان للمستقبل. أحدهما: يتمثل في العلاقة بين العولمة، وبين النقد البيئوي، التي لم تطرق تقريباً. فالاهتمام المستدام في فكرة المكان بوصفه موقعاً (Locale) لم

يقدم لنا أي أحساس بمكان الأرض كاملة في الثقافة المعاصرة. أما التحدي الثاني فهو: صعوبة تطوير علاقات بنائية بين الإنسانيات الخضراء وبين العلوم البيئية. مما يعكس إشكالية، لاسيما في ضوء التطورات في علم التبيؤ، التي تعرض بيان التوازن والانسجام -بالمحصلة- نسخاً رعوية. تترسخ هذه الفكرة عن حكمة الطبيعة بعمق في خطاب الداعية البيئي. والنقد البيئوي، إلى حد أنْ لا شيء عدا البحث المستدام على تخوم الإنسانيات والعلوم الحيوية ما بعد الحداثة الجديدة يمكن أن يفكها، من نظمنا في الافتراضات المسبقة الأساسية. كما يلاحظ دانييل بوتكن (Daniel Botkin):

"بقدر ما نستطيع أن نؤمن، أن الطبيعة غير المعبوث بها كانت ثابتة، بقدر ما كان يتوفر لنا مقياس بسيط نحكم على أفعالنا من خلاله، فانعكاس في بركة ماء ساكنة، يكون فيها مكاننا واضحاً وثابتاً، يوفر لنا حساً بالاستمرارية، والديمومة لطالما كان مريحاً. هجر هذه الاعتقادات يتركنا على موضع وجودي متطرف: نحن كما القوارب الصغيرة بلا مراسي في بحر الزمان: فكيف لنا أن نحنَّ إلى المرفأ الآمن على الشط؟" (1992:188-9).

توحي (غايا) -على سبيل المثال- باللاتنبئوية، والحيوية، وليس بالانسجام الحتمي، لكنها أيضاً تؤكد من جديد على نزعة الحياة للحفاظ على التعادل أو التوازن. في حين لا يؤمن تبيؤ بوتكن كثيراً في وظائف الكائنات الحية التنظيمية المنسجمة. في كلتا الحالتين، انعكاس الأرض صورةً ساكنة وثابتة يظهر أنه مُضلِّل بشكل كبير. فمن الأفضل رؤية الأرض عمليةً وليس شيئاً ساكناً.

لا يعيدنا علم التبيؤ ما بعد الحداثة إلى الأسطورة القديمة للأرض الأم(Earth Mother)، الذي يرثي بعض النقاد البيئويون فقدها، ولا يقدم لنا دليلاً أن (الطبيعة تعرف أفضل). المفارقة أن نظام القيم، والمجازات المستقبلي الموجه للأرض، يجب أن يعترف بالمصادفة واللاحتمية بمستوى أساسي، لكن هذا يزيد من مدى ودرجة مسؤوليتنا القانونية فقط، على أساس أننا النوع الأكثر قوة على الكوكب. تفترض مشاعر الأصالة -في مقابل دليل علم التبيؤ- أن هناك مقياساً خارجياً ثابتاً يتوجب علينا تجريبه وتحقيقه. إذ تظهر مشاعر المسؤولية أن كل إصباغ للكرة الأرضية هو إصباغنا، وكل مقياس هو مقياسنا، ويجب أن لا نخدع القرارات السياسية بخصوص نوع العالم الذي نريده، سواءً عن طريق الموضوعية غير المصدقة للترتيب الطبيعي، أو عبر الغموض الذاتي للبديهة الروحية. يُعنى النقد البيئوي أساساً بترسيم الحدود بين الطبيعة وبين الثقافة، بناؤها وإعادة بنائها. يتمحور المنطق الجوهري للرعوية في الأمل. وبدايةً أن تُصنف الثقافة تحت مظلة الطبيعة، لكننا رأينا القيود على مثل هذه المثالية. يمكن أن يكون السمو التقني

للمحاكاة هو النقيض المتطرف، الذي لا تغدو الطبيعة فيه كونها منشأً ثقافياً. لكن عالم التمثيل المنتشر بشكل طاغٍ ما هو إلا سوء تمثيل. يتوجب على النقد البيئوي -من وجهة نظري- أن يعمل مع المعنى التحولي، والنفعي للعلاقة بين الثقافة، والطبيعة المقترحة في هذا الكتاب.

عادة ما ينتقد الفلاسفة البيئويون عجرفة الفوقية البشرية، مستخدمين المصطلح الإغريقي القديم (الخيلاء) (hubris) أحياناً؛ لوصف هذا التدفق النرجسي المتعجرف، وسوء استخدام القوة المتعمّد. يقدم تاريخ العالم في المئتي عام الأخيرتين -وخاصة تاريخ العالم المتقدم في آخر خمسين عاماً- أدلة مسهبة عن مثل هذا الخيلاء. وعلى الرغم من ذلك، يجب ألا يكون الحل -كما يريده علماء التبيؤ المتعمق- في الإذلال المنكِر للذات، والخضوع للنظام البيئي المفترض. اقترح الإغريق القدماء فضيلةً جمعت بين الفخر السليم بحيوان ذكي وواسع الحيلة، وبين قبول معقول لمكانة الإنسان في عالم لا يمكننا التبيؤ به كاملاً أو السيطرة عليه. يطلقون على هذه الفضيلة لفظة (Megalopsuche) التي تعني تقريباً (عظمة الروح). وإنني اقترح أن هذا طموح وجيه، يمكُننا أن نفهم الفرق إذا قارنّا بين محاولتين لمحاكاة التبيؤ الكوكبي.

في أيلول من عام 1991م، حُبس ثمانية أشخاص يسمّون (الرواد الأحيائيين) (bionauts) في بناء ضخم في صحراء أريزونا. في أول سنتين، حاولوا العيش والعمل في (المحيط الحيوي2) الذي يُعدُّ محاكاةً لبيئة الأرض المحيط الحيوي الأصلي. من زاوية معمارية، يشرف على المحيط الحيوي 2 هرمان مربعة السطوح مدرّجة، يذكُراننا بالآثار الأمريكية في الحقبة الوسطى، لكنها بُنيت من الفولاذ والزجاج مثل البنايات المشتركة. داخل هذه المباني والمباني المرتبطة، هناك سبعة مجتمعات حيوية (biomes)[1]، تجمع نباتات وحيوانات مختارة من أنحاء العالم مع بعضها بعضاً داخل بيئة متكاملة افتراضياً، معيلة لنفسها أو قائمة بذاتها. تدعم خمسة مجتمعات حيوية (طبيعية): محيط، وسافانا، وصحراء، وغابة مطيرة استوائية، سبخة تدعم اثنين (صناعيين)، يضمّان مدينة صغيرة للرواد الأحيائيين البشر، ومنطقة للزراعة التكثيفية. خارج المحيط الحيوي ذاته، يضم الموقع غرف مراقبة، وتسهيلات للمؤتمرات، وأماكن للعرض، ومحلات هدايا، ووسائل راحة للسياح. كان يفترض بالمبادرة أن توفر نموذجاً فاعلاً لـ (الأرض سفينة الفضاء)، الذي يمكن أن لا يخدم كقاعدة اختبار لتقنيات الهندسة البيئية فقط، ولكن أيضاً كمثال على تقنيات المحاكاة البيوئة، التي يمكن أن نحتاج إليها لسبر الفضاء النهائي خارج حدود الطعام، والطاقة، وإمدادات الأوكسجين القادمة من الأرض.

---

1 مجتمع ضخم من الكائنات الحية يمتلك شكلاً خاصاً من النباتات والحيوانات الخاصة.

فشلت مهمة المحيط الحيوي 2 الأصلية فشلاً ذريعاً. فقد تسببت مشاكل تقنية باخفاقات في المحاصيل وبمستويات مرتفعة من ثاني أكسيد الكربون، الذي كان يمكن أن يقتل الرواد الأحيائيين لولا التدخل الخارجي. حُققت قليل من النتائج ذات الأهمية العلمية، وقد فشل المحيط الحيوي الصناعي على نطاق واسع في كونه إعلانا، أو مختبرا لنظم دعم الحياة المعالة ذاتياً. وقد قوطعت المهمة الثانية في عام 1994، ومنذ ذلك الحين حظي المحيط الحيوي بفرصة جديدة للعيش دون رواد أحيائيين أو (مهمات) مكلفة مثل: البحث، والتسهيل العلمي لجامعة كولومبيا (Columbia University). في تجسيده الأصلي، يبدو المحيط الحيوي 2 مثالاً جيداً على الخيلاء المأساوية، يقارب عادةً المهزلة أو السخرية. فمساحته التي تصل إلى 3.2 فدان -بينما كانت مبهرة، لأنها بيوت زجاجية ضخمة -كانت نطاقاً صغيراً على نحو مضحك، قياساً بمثل هذه الطموحات المبالغ فيها. علاوة على ذلك، كما يلاحظ لوك (Luke) فإن أساس المشروع ذاته كان مخادعاً، فبينما تعتمد الحياة الإنسانية و(محيطها التقني) على (المحيط البيئوي) الداعم، الموجود هنا في الخارج في المحيط الحيوي 1، فإن الأرض المحاكاة تعكس هذه الأولوية. أسفل البنى العظيمة، هناك حاجة ملحة لآليات معقدة، وخفية لتنظيم عمل العوامل البيئية، مثل: درجة الحرارة، أو تركيب الهواء. يضحي المحيط البيئوي -بكلمات أخرى- معتمداً على المحيط التقني. وتتألف المجتمعات الحيوية ذاتها من ارتباطات صناعية كليةً من نباتات ترتبط ارتباطاً اجتماعياً فضفاضاً بأمم أو مناطق معينة، مع تضمين نخبة قليلة من الحشرات والحيوانات. هذا ما يجعل المحيط الحيوي 2 مثالاً ممتازاً على التشبيه البيئوي:

«هنا، الطبيعة ليست الطبيعة، لكنها شيئاً أُخذ كعينة رقمياً، لوّن نباتياً، وضغط على شكل حدائق الحيوان، ومُسح بيئوياً إلى محاكاة محيطية حيوية لذاته. كي لا يتمكن، ولن يتمكن من الوجود دونما الهندسة الضرورية لإخراج هذه التجربة البيئوية الغريبة للمسرح» (Luke، 1997:102).

فُتحت أضخم مدافئ العالم للعامة في كورنول (Cornwall) في 15 أيار من عام 2000، فمشروع جنة عدن -كما يسمى- يناضل في الوقت الراهن لتحسين إدارة نجاحه الاستثنائي بوصفه منطقة جذب سياحي. على المستوى الخارجي، يشبه المشروع المحيط الحيوي 2: فهو يضم مجتمعين حيويين ضخمين داخل المباني، يحاكيان المنطقة الاستوائية الرطبة، وظروف المنطقة المعتدلة الدافئة، مع وجود مناطق نباتية إقليمية. لقد صُمّم بألمعية بوصفه منطقة جذب سياحي، يبدو أنه يختبئ أسفل التجويف الطيني، حتى يظهر الزبون الذي يدفع المال على منصة الرؤيا

الأولى: ليشاهد صورة مسرحية مذهلة لقبابه الجيوديسية[1] الثمانية، يكتنفها متنزه ذو مناظر طبيعية خلابة، ومحاصيل في الهواء الطلق وخدمات سياحية. السلع المعروضة ذات جودة عالية، والاسم التجاري لمشروع جنة عدن غدا موجوداً في كل مكان، وقد تعلّم المصممون بوضوح الكثير من المتنزهات الرئيسية، ووسائل الترفيه المشابهة.

يبدو تيم سميث (Tim Smith) مؤلف (جنة عدن) (Eden، 2001)، وهو ناشط رئيسي في المشروع صريحاً بخصوص الحاجات التجارية. إلا أنه يستهجن تمثيل أو تشبيه المتنزه الرئيس. يتتبع عملية البناء المجهدة، ويوضح أن الفلسفة من ورائها، ليست محاكاة النظم البيئوية بمعنى التظاهر في خلقها من جديد، لكن "في تمثيل وتفسير المناطق المناخية التي تعرّضت لأقصى أثر للإنسان على البيئة، وبذلك توفير نسيج يستكشف على سطحه طيف القضايا الواسع" (Smith، 2001: 129). طموحه ليس الوجود بين المجرات، وبين الوله التقني، ولكنه أرضي وتعليمي بإصرار، يؤكد الاعتماد البشري على النباتات؛ لتحصيل الغذاء الجمالي والروحي إلى جانب الطعام، والدواء والعمليات الصناعية. تنتشر المنحوتات في الفراغات الداخلية والخارجية، ويجوب الموقع العلماء والفنانون المنفذون. فالمحيط التقني، والمحيط البيئوي متداخلان بشكل واضح وصريح، مع وجود أنابيب الخدمة المنصوبة خارجياً على القباب، في حين تُسبَر داخل المجتمعات الحيوية التداخلات المبدعة، والمدّمرة على حد سواء بين الثقافة وبين الطبيعة.

"يمكن أن تُكرس (جنة عدن) لإلهام الناس التأمل في الدور الحيوي للنباتات، وأن يعوا الحاجة للتوازن والعناية الزراعية -زراعتهم لخدمة مصالحنا- من جهة، ومن جهة أخرى -(الوكالة)- الاعتناء بهم نيابة عن الكائنات الحية كلها" (2001:174).

ربما يكون مشروع جنة عدن بعد ذلك -بشكل ساخر- أي شيء سوى الحنين للرعوية، أو الإسقاط الازدواجي للبشر في مواجهة –أو اغتراب عن- الكرة الأرضية. إنه تجربة في التبيؤ الإنساني التخييلي، الذي يغازل المثالية، لكنه يصوّر شيئاً من الزراعة العالمية في النهاية وبشكل مختصر:

"لا يرتكز مشروع (جنة عدن) على البيئة؛ مثل قولنا الحياة تعتمد على الهواء. إنه يهتم -بالشراكة مع آخرين- في سبر التطور بالمعنى الكامل للكلمة: التنمية المستدامة للقوة البشرية الكامنة في تحقيق الجودة القصوى لحياة الجميع، عبر الحدود الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية". (2001:302).

---

1 ذات تجويف مبطّن ببلورات أو بمادة معدنية. المترجم.

ليس من المفروض أن تكون متحيزاً، أو غير جدير بالتصديق بشكل كبير، كي تربط النقد البيئوي المستقبلي بإصباغ جنة عدن على الأرض: أن تكون متناغماً مع العدالة البيئية، لكن ليس رافضاً لدعاوي التجارة والتقنية، شكلتك المعرفة بالمشاكل البيئية طويلة الأمد، ولكنك تحترس من الرؤيوية؛ ومطّلعٌ بفعل التبصر الفني، والعلمي البيئوي، وملتزم بالحفاظ على التنوع الأحيائي للكوكب بكل ساكنيه. إنها لمسافة بعيدة عن الرعوية التي ابتدأنا بها، وإنها رؤية ذات روح عظيمة أقدامها تنغرس بصلابة في الأرض.

مسرد المصطلحات وشرحها
GLOSSARY

- الفوقية الذكورية: Androcentric

منظومة المعتقدات والممارسات التي تفضل الرجال على النساء.

- المذهب الروحي: Animism

الاعتقاد أن الأشياء والظواهر الطبيعية تملك أرواحاً.

- الفوقية البشرية Anthropocentrism

منظومة المعتقدات والممارسات التي تفضل البشر على الكائنات الحية الأخرى.

- بشريُ السبب: Anthropogenic

يتسبب به البشر.

- طاقة الحمل: Carrying Capacity

الحد الأقصى من الكائنات الحية من نوع ما، الذي يمكن لنظام بيئوي أن يدعمها. يطبق أحياناً بشكل ملبس على التعدادات البشرية، مثال ذلك كالينباخ (Callenbach 1998: 22-5).

- التفسير الثقافــي: Constructionism

الاعتقاد أن الظواهر الطبيعية الواضحة -مثل خصائص الجنس- تصوغها الثقافة أو (تفسَّر اجتماعياً) بشكل رئيسي أو كلي.

- المخلوق الهجين: Cyborg

كائن حي هجين مكوّن من عناصر أحيائية وعناصر كهربائية آلية.

- الجدلية: Dialectic

التحليل الذي يُتتبع عن طريق انخراط حجج أو وجهات نظر متضادة.

- الازدواجية: Dualism

تفسير العالم وفقاً لمفهومين متضادين، مثل: العقل مقابل المادة، الطبيعة مقابل الثقافة.

- الإبادة البيئوية: Ecocide

تدمير مواطن النباتات والحيوانات كاملةً، وليس كائنات حية أو أنواعاً منفردة فقط.

- القيمة الوسيلية: Instrumental Value

حصر قيمة الشيء بتلازمها مع مصالح البشر فقط، غالباً ما تكون اقتصادية على نحو ضيق.

- داخل النوع: Interspecies

التأثير داخل النوع، وليس بين الأنواع.

- القيمة الجوهرية: Intrinsic Value

امتلاك الشيء قيمة لذاته، دون مرجعية لمصالح الإنسان.

- النذير: Jeremiad

خطاب التحذير والإحباط، ذو نغمة نبوئية في العادة.

- التمحور الأمومي: Matrifocal

نظام اجتماعي يتمحور حول الأمهات بوصفهن حكمة وإبداع. يتوافق مع بعض أشكال النظام الأبوي.

- الآلية: Mechanism

الاعتقاد أن العالم قابل للتفسير وفقاً لقوانين آلية ومادية فقط.

- الأحدية: Monism

تفسير العالم وفقاً لتصور أحادي متكامل.

- معياري: Normative

يطرح أو يحتفظ بمقياس أو بمعيار.

- التوقع: Prolepsis

مصطلح روائي للتنبؤ بأحداث المستقبل.

- الاختزالية: Reductionism

الاعتقاد أن الظواهر يمكن تفسيرها بمصطلحات بسيطة، أو (بالمعنى المتضمن) مبسّطة كلياً.

- الانحياز للنوع: Speciesim

تحيّز الفرد لصالح نوعه الخاص.

- المجاز المرسل: Synecdoche

صورة بلاغية قوامها ذكر الجزء وإرادة الكل، مثال على ذلك "اليد" بدلاً من "العامل"، أو "فم جائع" بدلاً من "شخص فقير".

- المزج الإنساني-الحيواني: Therianthropic

تمثيل الحيوانات والبشر في صورة واحدة، تكون في العادة على شكل رسم كاريكاتوري.

- التصوير الحيواني للبشر: Theriomorphic

تمثيل البشر كحيوانات، عادة لغايات استهزائية.

- الرُّهاب الحيواني: Theriophobia

الخوف غير المبرَّر من الحيوانات.

- المجاز: Trope

أية صورة بلاغية، مثل الاستعارة، والكناية، والسخرية. تستخدم في هذا الكتاب لتسمية نطاقٍ واسع من استعارات الطبيعة الثقافية الأساسية.

- المذهب الحيوي: Vitalism

اعتقاد علمي غير مقبول على نطاق واسع، يدعي أن الظواهر لها روح حيوية علاوة على الصفات التي يمكن تجسيدها مادياً.

قراءات إضافية
FURTHER READING

The ASLE website is an excellent, growing source of theoretical, bibliographic and pedagogical material, with an especially interesting section that includes twelve different definitions of <ecocriticism>: <http://www. asle.umn.edu/conf/other_conf/wla/1994.html>. This would be a good starting point for further research, as are the following:

K. Armbruster and K.R. Wallace (eds) (2001) *Beyond Nature Writing: Expanding the Boundaries of Ecocriticism, London:* University Press of Virginia. Examines a wide variety of authors and periods, with a broadly social ecological and ecofeminist perspective.

J. Bate (2001) *The Song of the Earth*, London: Picador. A dialectical reading of canonical literature, mainly British, using Heideggerean concepts.

M. Bennett and D.W. Teague (eds) (1999) *The Nature of Cities: Ecocriticism and Urban Environments*, Tucson, AZ: University of Arizona Press. Not only a new terrain for ecocriticism, but also a politically progressive theoretical framework.

D. Botkin (1992) Discordant Harmonies: *a New Ecology for the Twenty-First Century*, Oxford: Oxford University Press. An accessible and thoughtprovoking introduction to recent ecological theory that recognises the importance of tropes.

L. Buell (2001) *Writing for an Endangered World: Literature, Culture, and Environment in the U.S. and Beyond*, London: Belknap Press. Together with Buell's earlier Thoreau book, constitutes a thorough basis for American ecocriticism.

W. Cronon (ed.) (1996) *Uncommon Ground: Rethinking the Human Place in Nature*, London: Norton. An excellent collection of work by writers from a variety of disciplinary backgrounds.

C. Glotfelty and H. Fromm (eds) (1996) *The Ecocriticism Reader: Landmarks in Literary Ecology*, London: University of Georgia Press. Canonical anthology

with a broadly deep ecological approach and exclusively American focus.

R. Kerridge and N. Sammells (eds) (1998) *Writing the Environment*, London: Zed Books. Important anthology containing essays on children's literature, wildlife programming and Oscar Wilde as well as canonical literature.

D. Quammen (1996) *The Song of the Dodo: Island Biogeography in an Age of Extinctions*, London: Pimlico. Excellent example of popular scientific writing that explains one of our most pressing ecological problems.

K. Soper (1998) *What is Nature?* Oxford: Blackwell. An uniquely accessible and insightful discussion of ecophilosophy and politics.

L. H. Westling (1996) *The Green Breast of the New World: Landscape, Gender, and American Fiction*, Athens, GA: University of Georgia Press. A persuasive ecofeminist reading of canonical American literature.

A. Wilson (1992) *The Culture of Nature: North American Landscape from Disney to the Exxon Valdez*, Oxford: Blackwell. A witty and combative contribution to green cultural studies.

ثبت المراجع
BIBLIOGRAPHY

Abbey, E. (1992) *Desert Solitaire: a Season in the Wilderness*, London: Robin Clark. First published in 1968.

Aberley, D. (1999) 'Interpreting bioregionalism: a story from many voices', in M.V. McGinnis (ed.) *Bioregionalism*, London: Routledge.

Adamson, J. (2001) *American Indian Literature, Environmental Justice, and Ecocriticism: the Middle Place* Tucson, AZ: University of Arizona Press.

Allaby, M. (1990) *Guide to Gaia*, London: Optima.

Allen, P.G. (1996) 'The Sacred Hoop: A Contemporary Perspective', in C. Glotfelty and H. Fromm (eds) *The Ecocriticism Reader. Landmarks in Literary Ecology*, London: University of Georgia Press.

Alpers, P (1996) *What is Pastoral?* Chicago: University of Chicago Press.

Armbruster, K. (1998) 'Creating the world we must save: the paradox of television nature documentaries', in R. Kerridge and N. Sammells (eds) *Writing the Environment*, London: Zed Books.

—— (2001) 'Can a book protect a valley?: Rick Bass and the dilemma of environmental advocacy', in O.A. Weltzein (ed.) *The Literary Art and Activism of Rick Bass*, Salt Lake City, UT: University of Utah Press.

Attfield, R. (1983) `Western traditions and environmental ethics', in R. Elliott and A. Gare (eds) *Environmental Philosophy*, Milton Keynes: Open University Press.

Atwood, M. (1991) *Wilderness* Tips, London: Virago.

—— (1992) *Surfacing*, London: Virago.

Austin, M. (1996) *The Land of Little Rain*, New York: Dover. First published in 1903.

Baarschers, W.H. (1996) *Eco-facts and Eco-fiction*, London: Routledge.

Baker, S. (1993) *Picturing the Beast: Animals, Identity and Representation*, Manchester: Manchester University Press.

Barrell, J. and Bull, J. (1982) *The Penguin Book of English Pastoral Verse*, London: Penguin.

Barry, P. (2002) *Beginning Theory: an Introduction to Literary and Cultural Theory*, Manchester: Manchester University Press.

Bass, R. (1998) *Fiber*, London: University of Georgia Press.

Bate, J. (1991) *Romantic Ecology: Wordsworth and the Environmental Tradition*, London: Routledge.

___ (2000) *The Song of the Earth*, London: Picador.

Baudrillard, J. (2001) *Selected Writings* (2nd edn), ed. M. Poster, Cambridge: Polity.

Beck, U. (1999) *World Risk Society*, Cambridge: Polity.

Beckerman, W. (1995) *Small is Stupid: Blowing the Whistle on the Greens*, London: Duckworth.

Bennett, M. (2001) 'Jeremiad, elegy and the Yaak: Rick Bass and the aesthetics of anger and grief', in O.A. Weltzein (ed.) *The Literary Art and Activism of Rick Bass*, Salt Lake City, UT: University of Utah Press.

Bennett, M. and Teague, D.W. (eds) (1999) *The Nature of Cities: Ecocriticism and Urban Environments*, Tucson, AZ: University of Arizona Press.

Berger, j. (1979) Pig *Earth*, London: Bloomsbury.

— (1980) 'Why look at animals?', in *About Looking*, London: Penguin.

Bergon, F. (2000) '"Sensitive to the verge of the horizon": the environmentalism of john Burroughs', in C.Z. Walker (ed.) *Sharp Eyes. John Burroughs and American Nature Writing*, Syracuse, NY: Syracuse University Press.

Berry, W. (1980) *A Part*, San Francisco: North Point Press.

— (1990) *What Are People* For? San Francisco: North Point Press.

Biehl, J. (1991) *Finding Our Way: Rethinking Ecofeminist Politics*, Montreal: Black Rose Books.

Biehl, J. and Staudenmeier, P. (1995) *Ecofascism: Lessons from the German Experience*, Edinburgh: AK Press.

Biggs, S. (1998) 'The biodiversity convention and global sustainable development', in R. Kiely and P. Marfleet (eds) *Globalisation and the Third World*, London: Routledge.

Botkin, D. (1992) *Discordant Harmonies: a New Ecology* for *the Twenty-First Century*, Oxford: Oxford University Press.

Brain, T. (1998) 'Or shall I bring you the sound of poisons?', in R. Kerridge and N. Sammells (eds) *Writing the Environment*, London: Zed Books.

Bramwell, A. (1965) *Blood and Soil: Walther Darri and Hitler's 'Green' Party,* Bourne End, Bucks.: Kensal Press.

— (1989) *Ecology in the Twentieth Century: a History,* London: Yale University Press.

Brennan, A. (1995) 'Ecological theory and value in nature', in R. Elliot (ed.) *Environmental Ethics,* Oxford: Oxford University Press.

Brewer, R. (1994) *The Science of* Ecology (2nd edn.) London: Saunders College.

Branch, M.P. (1999) 'Cosmology in the Casino: Simulacra of Nature in the Interiorized Wilderness', in M. Bennett and D.W. Teague (eds) *The Nature of Cities: Ecocriticism and Urban Environments,* Tuscon, AZ: University *of* Arizona Press.

Brooks, P. (1980) *Speaking for Nature: How Literary Naturalists from Henry Thoreau to Rachel Carson Have Shaped America,* San Francisco: Sierra Club Books.

Buell, L. (1995) *The Environmental Imagination: Thoreau, Nature Writing and the Formation of American Culture,* London: Princeton University Press.

— (2001) *Writing for an Endangered World: Literature, Culture, and Environment in the U.S. and Beyond,* London: Belknap Press.

Bunce, M. (1994) *The Countryside Ideal: Anglo-American Images of Landscape,* London: Routledge.

Burke, E. (1990) *A Philosophical Enquiry into the Origin of Our Ideas of the Sublime and the Beautiful,* Oxford: Oxford University Press.

Callenbach, E. (1998) Ecology. *a Pocket Guide,* London: University of California Press.

Callicott, J.B. (1983) 'Traditional American Indian and traditional Western European attitudes-towards nature: an overview', in R. Elliot and A. Gare (eds) Environmental *Philosophy,* Milton Keynes: Open University Press.

— (1995) 'Animal liberation: a triangular affair', in R. Elliot (ed.) *Environmental Ethics,* Oxford: Oxford University Press.

Campbell, S. (1998) 'Magpie', in R. Kerridge and N. Sammells (eds) (1998) Writing the Environment, London: Zed Books.

Carson, R. (1999) Silent Spring, London: Penguin. First published in 1962.

Cather, W. (2000) Oh Pioneers! London: Virago.

Clare, J. (1986)John Clare: Selected Poetry and Prose, ed. M. Williams and R. Williams, London: Methuen.

Clark, J. (1990) 'What is Social Ecology?', in J. Clark (ed.) *Renewing* the Earth: the Promise of Social Ecology, London: Green Print.

Clark, S.R.L. (1998) 'Pantheism', in D. Cooper and J. Palmer (eds) Spirit of the Environment: Religion, Value and Environmental Concern, London: Routledge.

Clements, C.D. (1995) 'Stasis: the unnatural value', in R. Elliot (ed.) Environmental Ethics, Oxford: Oxford University Press.

Coates, P. (1998) Nature: Western Attitudes since Ancient Times, Cambridge: Polity.

Cooper, D. and Palmer, J. (eds) (1992) The Environment in Question: Ethics and Global Issues, London: Routledge.

Coupe, L. (ed.) (2000) The Green Studies Reader. from *Romanticism* to Ecocriticism, London: Routledge.

Cronon, W. (1996) 'The trouble with wilderness; or, Getting back to the wrong nature', in W. Cronon (ed.) *Uncommon* Ground: Rethinking the Human *Place* in Nature, London: Norton.

Crosby, A.W. (1995) Ecological Imperialism: the Biological *Expansion* of Europe, 900-1900, Cambridge: Cambridge University Press.

Cuomo, C.J. (1994) 'Ecofeminism, deep ecology and human population', in K. Warren (ed.) Ecological Feminism, London: Routledge.

Daly, M. (1979) Gyn/Ecology, London: Women's Press.

Davion, V. (1994) 'Is ecofeminism feminist?', in K. Warren (ed.) Ecological Feminism, London: Routledge.

Day, A. (1996) Romanticism, London: Routledge.

DeLillo, D. (1986) White Noise, London: Picador.

Descartes, R. (1986) 'A Discourse on Method', 'Meditations on the First Philosophy', and 'Principles of Philosophy', London: Dent. 'Discourse on method' first published in 1637.

Dick, P.K. (1997) Do Androids Dream of Electric Sheep? London: Voyager. First published in 1968.

Doubiago, S. (1989) 'Mama Coyote talks to the boys', in J. Plant (ed.) Healing the Wounds: the Promise of Ecofeminism, London: Green Print.

Eagleton, T. (1996) Literary Theory: an Introduction, Oxford: Basil Blackwell.

Ehrlich, P. (1972) The Population *Bomb*, London: Pan/Ballantine.

Ehrlich, P. and Ehrlich, A. (1998) Betrayal of Science and Reason: How AntiEnvironmental *Rhetoric* Threatens Our Future, Washington, DC: Island.

Elliot, R. (ed.) (1995) *Environmental Ethics*, Oxford: Oxford University Press.

Elliot, R. and Gare, A. (eds) (1983) *Environmental Philosophy*, Milton Keynes:

Open University Press.

Erdrich, L. (1994a) *Love Medicine* (2nd edn), London: Flamingo. First published in 1984.

— (1994b) *Tracks*, London: Flamingo. First published in 1988.

Ferry, L. (1995) *The New Ecological Order*, trans. C. Volk, London: University of Chicago Press. First published in 1992.

Fitter, C. (1996) *Poetry, Space, Landscape: Towards a New Theory*, Cambridge: Cambridge University Press.

Foltz, B. (1995) *Inhabiting the Earth: Heidegger, Environmental Ethics, and the Metaphysics of Nature*, Atlantic Highlands, NJ: Humanities Press.

Fudge, E. (2000) *Perceiving Animals: Humans and Beasts in Early Modern English Culture*, London: Macmillan.

Fuller, B. (1969) 'Spaceship Earth: An Operating Manual', from <http://www.bfi.org.operating_manual.htm> Accessed 6 December 2003.

Gaard, G. (1998) 'Hiking without a map: reflections on teaching ecofeminist literary criticism', in G. Gaard and P.D. Murphy (eds), *Ecofeminist Literary Criticism: Theory, Interpretation, Pedagogy*, Urbana and Chicago: University of Illinois Press.

Gaard, G. and Murphy, P.D. (eds) (1998), *Ecofeminist Literary Criticism: Theory, Interpretation, Pedagogy*, Urbana and Chicago: University of Illinois Press.

Garrard, G. (1996) 'Radical pastoral?', *Studies in Romanticism* 35(3): 451-65

— (1998) 'Heidegger, Heaney and the problem of dwelling', in Kerridge, R. and Sammells, N. (eds) *Writing the Environment*, London: Zed Books.

— (2000) 'Wordsworth and Thoreau: two versions of pastoral', in R.J. Schneider (ed.) *Thoreau's Sense of Place: Essays in American Environmental Writing*, Iowa City, IA: University of Iowa Press.

Giblett, R. (1996) Postmodern *Wetlands: Culture, History, Ecology*, Edinburgh: Edinburgh University Press.

Gifford, T. (1999) *Pastoral*, London: Routledge.

Glotfelty, C. (1996) 'Introduction', in C. Glotfelty and H. Fromm (eds), *The Ecocriticism Reader. Landmarks in Literary Ecology*, London: University of Georgia Press.

Glotfefty, C. and Fromm, H. (eds) (1996) *The Ecocriticism Reader. Landmarks in Literary Ecology*, London: University of Georgia Press.

Gore, A. (1992) *Earth in the Balance: Forging a New Common Purpose;* London: Earthscan.

Gray, C.H. (1995) *The Cyborg Handbook*, London: Routledge.

Griffin, S. (1978) *Woman and Nature: the Roaring Inside Her*, London: Women's Press.

Hannigan, J.A. (1995) Environmental Sociology: *a Social Constructionist Perspective*, London: Routledge.

Haraway, D. (1991) *Simians, Cyborgs and Women: the Reinvention of Nature*, London: Free Association.

Harris, R. (2000) 'Other-words in *Silent Spring*', in C. Waddell (ed.), *And No Birds Sing: Rhetorical Analyses of Rachel Carson's Silent Spring*, Carbondale and Edwardsville, IL: Southern Illinois University Press.

Harrison, R.P. (1992) *Forests: the Shadow of Civilization*, London: University of Chicago Press.

Harvey, G. (1997) *The Killing of the Countryside*, London: Vintage.

Hayles, N.K. (1996) 'Simulated natures and natural simulations', in W. Cronon (ed.) *Uncommon Ground: Rethinking the Human Place in Nature*, London: Norton.

Hayward, T. (1995) *Ecological Thought: an Introduction*, London: Polity.

Heidegger, M. (1993) *Basic Writings*, ed. D.F. Krell, London: Routledge.

Hochman, J. (1998) *Green Cultural Studies: Nature in Film, Novel, and Theory*, Moscow: University of Idaho Press.

Hughes, J.D. (1996a) *Pan's Travail: Environmental Problems of the Ancient Greeks and Romans*, London: Johns Hopkins University Press.

—— (1996b) *North American Indian Ecology*, El Paso, TX: Texas Western Press.

Ingram, D. (2000) *Green Screen: Environmentalism and Hollywood Cinema*, Exeter: University of Exeter Press.

Janik, D.I. (1995) 'Environmental consciousness in modern literature: four representative examples', in G. Sessions (ed.) *Deep Ecology for the Twenty-First Century: Readings on the Philosophy and Practice of the New Environmentalism*, London: Shambhala.

Jeffers, R. (1987) *Selected Poems*, Manchester: Carcanet.

Kay, J. (1998) 'Concepts of nature in the Hebrew Bible', in R.G. Botzler and S.J. Armstrong (eds), *Environmental Ethics: Divergence and Convergence*, Boston, MA: McGraw-Hill.

Kerridge, R. (1998) 'Small rooms and the ecosystem: environmentalism and DeLillo's . *White Noise*', in Kerridge, R. and Sammells, N. (eds) *Writing the Environment*, London: Zed Books.

— (1999) 'BSE stories', *Key Words: a Journal of Cultural Materialism* 2:111-21.

—(2000) 'Ecothrillers: environmental cliffhangers', in L. Coupe (ed.) *The Green Studies Reader. from Romanticism to Ecocriticism*, London: Routledge.

— (2002) 'Narratives of resignation: environmentalism in recent fiction', in J. Parham (ed.) *The Environmental Tradition in English Literature*, Aldershot, Hants.: Ashgate.

Kerridge, R. and Sammells, N. (eds) (1998) *Writing the Environment*, London: Zed Books.

Kheel, M. (1989) 'From healing herbs to deadly drugs: western medicine's war against the natural world', in J. Plant (ed.) *Healing the Wounds: the Promise of Ecofeminism*, London: Green Print.

Kiliingsworth, M.J. and Palmer, J.S. (1996) 'Millennial ecology: the apocalyptic narrative from *Silent Spring* to *Global Warming*', in C.G. Herndl and S.C. Brown (eds), *Green Culture: Environmental Rhetoric in Contemporary America*, Madison, WI: University of Wisconsin Press.

— (1998) 'Ecopolitics and the literature of the borderlands: the frontiers of environmental justice in Latina and Native American writing', in R. Kerridge and N. Sammells (eds) *Writing the environment*, London: Zed Books.

— (2000) '*Silent Spring* and science fiction: an essay in the history and rhetoric *of* narrative', in C. Waddell! (ed.), *And No Birds Sing: Rhetorical Analyses of Rachel Carson's Silent Spring*, Carbondaie and Edwardsville, IL: Southern Illinois University Press.

King, T. (ed.) (1990) *All My Relations: an Anthology of Contemporary Canadian Native Fiction*, London: University of Oklahoma Press.

King, Y. (1989) 'The ecology of feminism and the feminism of ecology' in J. Plant (ed.) *Healing the Wounds: the Promise of Ecofeminism*, London: Green Print.

Kolodny, A. (1975) *The Lay of the Land: Metaphor as History and Experience in American Life and Letters*, Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press.

Krech III, S. (1999) *The Ecological Indian: Myth and History*, London: Norton.

Kroeber, K. (1994) *Ecological Literary Criticism: Romantic Imagining and the Biology of Mind*, New York: Columbia University Press.

LaChappelle, D. (1996) *D.H. Lawrence: Future Primitive*, Denton, TX: University of North Texas Press.

Lawrence, D.H. (1988) *The Rainbow*, London: Penguin. First published in 1915.

___(1989) *Women in Love*, London: Penguin. First published in 1920.

Leahy, M.P.T. (1994) *Against Liberation: Putting Animals in Perspective*., London: Routledge.

Lee, M:F. (1997) 'Environmental apocalypse: the millennial ideology *of* "Earth first!", in T. Robbins and S.J. Palmer (eds) *Millennium, Messiahs and Mayhem: Contemporary Apocalyptic Movements* London: Routledge.

Legler, G. (2000) "I am a transparent eyeball": the politics of vision in American nature writing', in J. Tallmadge and H. Harrington (eds) *Reading Under the Sign of Nature: New Essays in Ecocriticism*, Salt Lake City, UT: University of Utah Press.

Leigh, J. (2000) *The Hunter*, London: Faber and Faber.

Leopold, A. (1968) *A Sand County Almanac and Sketches Here and There*, Oxford: Oxford University Press.

Levinson, M. (1986) *Wordsworth's Great Period Poems: Four Essays*, Cambridge: Cambridge University Press.

Lewis, M.W. (1992) *Green Delusions: an Environmentalist Critique of Radical Environmentalism*, London: Duke University Press.

Littlejohn, B. and Pearce, J. (1973) *Marked by the Wild: an Anthology of Literature Shaped by the Canadian Wilderness*, Toronto: Mclelland and Stewart.

Lovelock, J. (1982) *Gaia: a New Look at Life on Earth*, Oxford: Oxford University Press. First published in 1979.

Lukes, T. M. (1997) *Ecocritique: Contesting the Politics of Nature, Economy and Culture*, London: University of Minneapolis Press.

Lutts, R.H. (2000) 'Chemical fallout: *Silent Spring*, radioactive fallout and the environmental movement', in C. Waddell (ed.), *And No Birds Sing: Rhetorical Analyses of Rachel Carson's Silent Spring*, Carbondale and Edwardsville, IL: Southern Illinois University Press.

McGinnis, M.V. (ed.) (1999) *Bioregionalism*, London: Routledge.

McKibben, B. (1990) *The End of Nature*, London: Penguin.

— (1992) *The Age of Missing Information*, London: Penguin.

— (2000) 'The call of the not so wild', in CZ Walker (ed.) *Sharp Eyes: John Burroughs and American Nature Writing*, Syracuse, NY: Syracuse University Press.

Malamud, R. (1998) *Reading Zoos: Representations of Animals and Captivity*, London: Macmillan.

Malthus, T.R. (1970) *An Essay on the Principle of Population*, Harmondsworth: Penguin.

Marx, L. (1964) *The Machine in the Garden: Technology and the Pastoral Ideal in America*, London: Oxford University Press.

Masson, J. and McCarthy, S. (1996) *When Elephants Weep: the Emotional Lives of Animals*, London: Vintage.

Merchant, C. (1990) *The Death of Nature: Women, Ecology and the Scientific Revolution*, San Francisco: Harper and Row. Originally published in 1980.

Midgley, M. (1983) *Animals and Why They Matter, a Journey Around the Species Barrier*, Harmondsworth, Middx.: Penguin.

Muir, J. (1992) *The Eight Wilderness-Discovery Books*, London: Diadem Books.

Murphy, P.D. (1995) *Literature, Nature, and Other Ecofeminist Critiques*, Albany, NY: State University of New York Press.

Myers, N. and Simon, J. (1994) *Scarcity or Abundance: a Debate on the Environment*, London: Norton.

Nelson, B. (2000) *The Wild and the Domestic: Animal Representation, Ecocriticism, and Western American Literature*, Reno and Las Vegas: University of Nevada Press.

Nietzsche, F.W. (1974) *The Gay Science*, trans. W. Kaufman, New York: Vintage.

—— (1982) *The Portable Nietzsche*, ed. and trans. W. Kaufman, Harmondsworth, Middx.: Penguin Viking.

North, R.D. (1995) *Life on a Modern Planet: a Manifesto for Progress*, Manchester: Manchester University Press.

Norwood, V. (1996) 'Heroines of nature: four women respond to the American landscape', in C. Glotfelty and H. Fromm (eds) *The Ecocriticism Reader. Landmarks in Literary Ecology*, London: University of Georgia Press.

Oelschlaeger, M. (1991) *The Idea of Wilderness. from Prehistory to the Age of Ecology*, London: Yale University Press.

O'Leary, S.D. (1994) *Arguing the Apocalypse: a Theory of Millennial Rhetoric*, Oxford: Oxford University Press.

Padget, M. (2oo1) 'Native American Fiction', in H. Grice, C. Hepworth *et al.* (eds) *Beginning Ethnic American Literatures*, Manchester University Press. Passmore, J. (1974) *Man's Responsibility for Nature*, London: Duckworth.

Payne, D. (1996) *Voices in the Wilderness: American Nature Writing and Environmental* Politics, London: University Press of New England.

Pepper, D. (1993) *Eco-Socialism: From Deep Ecology to Social Justice*, London: Routledge.

Plato (1920) 'Critias', in *The Dialogues of Plato, vol. fl*, trans. B.)owett, New York: Random House.

Plumwood, V. (1993) *Feminism and the Mastery of Nature*, London: Routledge.

___(2001) *Environmental Culture*, London: Routledge.

Polfan, M. (2002) *Second Nature: A Gardener's Education*, London: Bloomsbury.

Ponting, C. (1992) *A Green History of the World*, London: Penguin.

Quammen, D. (1996) *The Song of the Dodo: Island Biogeography in an Age of Extinctions*, London: Pimplico.

Rackham, O. (1994) *The illustrated History of the Countryside*, London: Phoenix.

Rawles, K. (1996) 'Ethical Implications *of* the Gaia Thesis', in P. Bunyard (ed.) *Gaia in Action: Science of the Living Earth*, Edinburgh: Floris.

Rigby, K. (2002) 'Ecocriticism', in J. Wolfreys (ed.) *Introducing Criticism at the 21st Century*, Edinburgh: Edinburgh University Press.

Robinson, D.M. (1999) 'Wilderness and the agrarian principle: Gary Snyder, Wendell Berry, and the ethical definition of the "wild"', *Interdisciplinary Studies in Literature and Environment 6 (1):* 15-28.

Ross, A. (1994) *The Chicago Gangster Theory of Life: Nature's Debt to Society*, London: Verso.

Sale, K. (1985) *Dwellers in the Land: the Bioregional Vision*, San Francisco: Sierra Club Books.

Schama, S. (1995) *Landscape and Memory*, London: HarperCollins.

Scheese, D. (1996) '*Desert Solitaire:* Counter-friction to the Machine in the Garden', in C. Glotfelty and H. Fromm (eds) *The Ecocriticism Reader: Landmarks in Literary* Ecology, London: University of Georgia Press.

Schilfer, F.W. (1985) 'On Naive and Sentimental Poetry', trans.) A. Elias, in H.B. Nisbet (ed.) *German Aesthetic and Literary Criticism: Winckelmann, Lessing, Hamann, Herder, Schiller, Goethe*, Cambridge: Cambridge University Press.

Schneider, R.J. (ed.) (2000) *Thoreau's Sense of Place: Essays in American Environmental , Writing*, Iowa City, IA: University *of* Iowa Press.

Schneider, S.H. and Boston, P.J. (eds) (1993) *Scientists on Gaia*, London: MIT Press.

[Chief] Seathl (1994) *The Great Chief Sends Word: Chief Seathl's Testament*, Coalville, Leics.: Saint Bernard Press.

Sessions, G. (ed.) (1995) *Deep Ecology for the Twenty-First Century: Readings on the Philosophy and Practice of the New Environmentalism*, London: Shambhala.

Shapiro, M.J. (1993) "Manning" the frontiers: the politics of (human) nature in *Blade Runner'*, in J. Bennett and W. Chaloupka (eds) *In the Nature of Things: Language, Politics and the Environment*, London: University of Minnesota Press.

Shelley, P. (1977) *Shelley's Poetry and Prose*, ed. D.H. Reiman and S.B. Powers, London: Norton.

Shiva, V. (1989) 'Development, ecology and women', in J. Plant (ed.), *Healing the Wounds: the Promise of Ecofeminism*, London: Green Print.

— (1998) *Biopiracy: the Plunder of Nature and Knowledge*, Totnes, Devon: Green Books.

Silko, L.M. (1986) *Ceremony*, London: Penguin. First published in 1977.

Singer, P. (1983) *Animal Liberation: Towards an End to Man's Inhumanity to Animals*, Wellingborough, Northants.: Thorsons. First published in 1975

Slater, C. (1996) 'Amazonia as Edenic Narrative', in W. Cronon (ed.) *Uncommon Ground: Rethinking the Human Place in Nature*, London: Norton.

Slovic, S. (1992) *Seeking Awareness in American Nature Writing*, Salt Lake City, UT: University of Utah Press.

— (1996) 'Epistemology and politics in American nature writing: embedded rhetoric and Discrete Rhetoric', in C.G. Herndl and S.C. Brown (eds), *Green Culture: Environmental Rhetoric in Contemporary America*, Madison, WI: University of Wisconsin Press.

Smit, T. (2001) *Eden*, London: Transworld.

Snyder, G. (1999) *The Gary Snyder Reader. Prose, Poetry and Translations* 1952-1998, Washington, DC: Counterpoint.

Sober, E. (1995) 'Philosophical problems for environmentalists', in R. Elliot (ed.) *Environmental Ethics*, Oxford: Oxford University Press.

Soper, K: (1998) *What is Nature?* Oxford: Blackwell.

Spretnak, C. (1989) 'Towards an ecofeminist spirituality', in J. Plant (ed.) *Healing the Wounds: the Promise of Ecofeminism*, London: Green Print.

Sweeting, A. and Crochunis, T.C. (2001) 'Performing the wild: rethinking wilderness and theater spaces', in K. Armbruster and K.R. Wallace (eds) *Beyond Nature Writing: Expanding the Boundaries of Ecocriticism*, London: University Press of Virginia.

Theocritus (1978) *The Poems of Theocritus*, trans. A. Rist, Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press.

Thomas, K. (1984) *Man and the Natural World: Changing Attitudes in England* 1500-1800, Harmondsworth, Middx.: Penguin.

Thomashow, M. (1999) 'Toward a cosmopolitan bioregionalism', in M.V. McGinnis (ed.) *Bioregionalism*, London: Routledge.

Thompson, D. (1997) *The End of Time: Faith and Fear in the Shadow of the Millennium*, London: Minerva.

Thoreau, H.D. (1983) *The Maine Woods*, Princeton, N.J.: Princeton University Press. First published in 1864.

—— (1992) *Walden*, London: Dent. First published in 1854

' (2003) ——Walking 'from> http://eserver.org/thoreau/walking.html> Accessed 25 July 2003. First published in 1862.

Trafzer, C.E. (1993) *Earth Song, Sky Spirit: Short Stories of the Contemporary Native American Experience*, London: Anchor.

Virgil (1984) *The Eclogues*, trans. G. Lee, London: Penguin.

—— (2002) *The Georgics* from

<http://www.tonykline.free-online.co.uk/Virgilhome.htm> Accessed 25 July 2003.

Warren, K. (1990) 'The power and the promise of ecological feminism', *Environmental Ethics* 12(2): 124-46.

Warren, K. (ed.) (1994) *Ecological Feminism*, London: Routledge.

Welch, J. (1986) Fools *Crow*, London: Penguin.

Westling, L.H. (1996) *The Green Breast of the New World: Landscape, Gender, and American Fiction*, Athens, GA: University of Georgia Press.

White, L., Jr. (1996) 'The historical roots of our ecologic crisis', in C. Glotfelty and H. Fromm (eds) *The Ecocriticism Reader. Landmarks in Literary Ecology*, Athens, GA: University of Georgia Press.

Wheeler, M. (ed.) (1995) *Ruskin and Environment: the Storm-Cloud of the Nineteenth Century*, Manchester: Manchester University Press.

Williams, J. (1993) *Wordsworth: Contemporary Critical Essays*, London: Macmillan.

Williams, R. (1989) 'Socialism and ecology', in *Resources of Hope*, London: Verso.

—— (1993) *The Country and the City*, London: Hogarth. First published in 1973.

Willis, R. (1974) *Man and Beast*, London: Hart-Davis, MacGibbon.

Wilson, A. (1992) *The Culture of Nature: North American Landscape from Disney to the Exxon Valdez*, Oxford: Blackwell.

Wilson, J. (1998) *The Earth Shall Weep: A History of Native America* London: Picador.

Wollstonecraft, M. and Godwin, W. (1987) *'A Short Residence in Sweden' and 'Memoirs of the Author of "The Rights of Woman"'*, London: Penguin.

Wordsworth, W. (1977) *A Complete Guide to the Lakes. . .*, ed. E. de Selincourt, Oxford: Oxford University Press.

—— (1979) *The Prelude: 1799, 1805, 1850*, ed. J. Wordsworth, M.H. Abrams and S. Gill, London: W.W. Norton.

—— (1969) *Poetical Works*, ed. T. Hutchinson and E. De Selincourt, Oxford: Oxford University Press.

Yearley, S. (1996) *Sociology, Environmentalism, Globalization: Reinventing the Globe*, London: Sage.

Zimmerman, M.E. (1990) *Heidegger's Confrontation with Modernity: Technology, Politics and Art*, Indianapolis, IN: Indiana University Press.

—— (1993) 'Rethinking the Heidegger-Deep Ecology Relationship', *Environmental Ethics* 15 (Fall): 195-224.

نبذة عن المترجم:

حاصل على درجة الماجستير في اللغويات بتقدير امتياز (2001) من جامعة اليرموك.
محاضر في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها – جامعة اليرموك، الأردن.

شارك في عدة مؤتمرات حول تعليم اللغة الإنجليزية عُقدت في أغلبها في دولة الإمارات العربية المتحدة منها:

1 – مؤتمر العين الثاني لتعليم الإنجليزية.

2 – مؤتمر تيسول أريبيا في دبي.

3 – المؤتمر الرابع لتعليم الإنجليزية في العين.

4 – مؤتمر الندوة التقاربية حول تعليم الإنجليزية في العين.

5 – عضو لجنة تحضيرية لمؤتمر الندوة التقاربية الثالث في العين.

نبذة عن المترجم:

حاصل على درجة الماجستير في اللغويات بتقدير امتياز (2001) من جامعة اليرموك. محاضر في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها- جامعة اليرموك، الأردن.

شارك في عدة مؤتمرات حول تعليم اللغة الإنجليزية عُقدت في أغلبها في دولة الإمارات العربية المتحدة منها:

1 - مؤتمر العين الثاني لتعليم الإنجليزية.

2 - مؤتمر تيسول أريبيا في دبي.

3 - المؤتمر الرابع لتعليم الإنجليزية في العين.

4 - مؤتمر الندوة التقاربية حول تعليم الإنجليزية في العين.

5 - عضو لجنة تحضيرية لمؤتمر الندوة التقاربية الثالث في العين.

النقد البيئوي

ييسر كتاب (النقد البيئوي) الطرائق التي نتخيل من خلالها العلاقة الكامنة بين البشر والبيئة، في مجالات الإنتاج الثقافي كافة، بدءاً من وردزورث (Wordsworth) وثورو (Thoreau)، وانتهاء بوثائقيات ديزني (Disney) وهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عن الطبيعة. كما يعرج على الحركات البيئية الحديثة ويوجّه لها نقده اللاذع.

يتتبع كتاب جرج جرارد (Greg Garrard) تطور الحركة البيئية، ويستكشف أهم الموضوعات التي شغلت النقاد البيئويين، من مثل:

- التلوث Pollution
- البرية Wilderness
- الرؤيا Apocalypse
- السكن Dwelling
- الحيوانات Animal
- الأرض The Earth

يعدُّ هذا الكتاب مقدمة نفيسة لواحد من أكثر التطورات إثارة في الدراسات الأدبية والثقافية. ويتميز بمسرد للمصطلحات والقراءات الإضافية التي يقترحها.


ISBN 978-9948-01-389-1
9 789948 013891 >





